٢١٠/١٢
ع شباق

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة ـ المذاهب الفكرية المعاصرة

١٧٦

مكتبة قسم الدراسات العليا
بجامعة الملك عبد العزيز بالمدينة

الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة
مكتبة قسم الدراسات العليا
الرقم العام
الرقم الخاص ٦٣

فكرة القومية العربية على ضوء الأسلام

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير
****

اعداد
صالح بن عبدالله العبود

اشراف
فضيلة الاستاذ / محمد قطب

١٣٩٧ — ١٣٩٨هـ
١٩٧٧ — ١٩٧٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

أ

خطبة و مقدمه

" ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، و أشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ، و أشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم عليه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن الا وأنتم مسلمون — و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا ، و اذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، و لتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون ، و لا تكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات و أولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمران : ١٠٢ — ١٠٥)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا و نساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) (النساء : ١)

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم و من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما — انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الأنسان انه كان ظلوما جهولا ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) (الأحزاب: ٧٠ — ٧٣) (١)

أما بعد :

فأنه يحسن أن نقدم بتمهيد عن معنى القومية حسبما يتبادر الى الذهن من مادتها فنقول وبالله التوفيق :

---

١ — هذه خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فى سنن ابن ماجه ، باب خطبة النكاح ١/٦٠٩ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/حلبى ، ١٣٧٢هـ .

وانظر صحيح مسلم ، الجمعة ، ١/٣٢٦ ، ط/ حلبى ، جماد ثاني /١٣٧٢هـ.

و هي مشروعة ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، تأليف محمد ناصر الدين الألباني ١/٣ ، واستزدت من سياق الآيات ما رأيته مناسبا في استهلال البحث .

مصدر صناعي

القومية : تأنيث قومي ، ونسبتها : الى قوم ، ولفظ: قوم ورد في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة مطلقا ومقيدا اما بالأضافة الى مؤمن أو كافر أو بصفة ايمان أو كفر أو مادخل في أحدهما . واذا ذكر مع لفظ: قوم لفظ: نساء على سبيل المقابلة صار لفظ : قوم يعني الرجال فقط كقوله تعالى : (لايسخر قوم من قوم) (الحجرات: ١١ . ثم قال تعالى : (ولا نساء من نساء) (الحجرات: ١١) . أما اذا ذكر لفظ قوم وحده فيدخل في معناه النساء قال الله تعالى : (انها كانت من قوم كافرين) (النمل : ٤٣) ، ولأن قوم كل نبي رجال ونساء .

وسمي القوم قوما : لأنهم في الأصل يقومون بمهام الأمور ويقيمونها بما تقوم به وتصلح عليه (١) بمشيئة الله تعالى كما قال سبحانه : (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين) (التكوير: ٢٨ ، ٢٩) .

واسم الفاعل : قائم ، ولله منه قوله تعالى : (هو قائم على كل نفس بما كسبت) (الرعد : ٣٣) وقوله تعالى : (شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم) (آل عمران : ١٨) .

ويصاغ منه قيوم وقيوم اسم من اسماء الله الحسنى ، من معناه أنه سبحانه يقيم الخلق فقد خلق الأنسان في أحسن تقويم ، وشرع له الدين القيم الذي أوحاه الى صاحب المقام المحمود محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه به الى الناس فبلغهم اياه حتى أصبح فيهم كتابا قيما يهدي للتي هي أقوم ، وسنة قائمة على صراط مستقيم ، والله وضع الميزان ليقوم الناس بالقسط فمنهم قائم لله وحده يمشي سويا على صراط مستقيم بفضل الله ورحمته ، ومنهم قاسط يمشي مكبا على وجهه يصد عن سبيل الله ويبغيها عوجا والله عزيز حكيم ، (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم) (هود : ٥٤) ثم يقيم الله القيامة ، وتعنو الوجوه للحي القيوم : (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما) (طه : ١١١)

ولقد أوجب الله على عباده أن يقوموا له بما شرع ، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (قم فأنذر) (المدثر: ٢) ، (فأقم وجهك للدين القيم) (الروم: ٤٣) .

وقال لأمته : (أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه) (الشورى: ١٣) ، (وقوموا لله قانتين) (البقرة: ٢٣٨) ، (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) (المائدة: ٨) ، (وأقيموا الشهادة لله) (الطلاق: ٢) ، (وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان) (الرحمن: ٩) وكل قومة على غير ماشرع الله فهي وان قامت بقدر الله غير صالحة ولا مصلحة ولا دوام

١ــ انظر معاجم اللغة مادة: قوم

لها ولاتمكين لها في الأرض قال الله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) (الأنبياء : ١٠٥، ١٠٦)

القومية العربية :

معنى لفظها هذا حسبما يتبادر الى الذهن مطلقا يدل على قومة العرب سواء كانت هذه القومة على أساس ثابت كالأسلام ولا ثابت غيره أم كانت على غير الأسلام .

ولكن بحثنا هذا ينحصر في فكرة القومية العربية المعاصرة وما يراد بها فلنقتصر على بحثها .

لما ذا اخترت البحث في هذه الفكرة؟

رأيت أن فكرة القومية العربية قد أصبحت في عصرنا مشكلة : مشكلة فى العقيدة : لبس بها الحق بالباطل ، ومشكلة فى العلم : شبه بها للناس حتى ظن الجهل علما والعلم جهلا .

و قد فرض محلها من التربية المكان الأعلى ، ومن التعليم بجميع مراحله المكان الأمكن في كثير من البلدان الأسلامية ، حتى جعلت مبلغ العلم وسيلة وغاية ، واعتبر معتنقها قد بلغ من الوعي النهاية واستحق الثقة والولاية . بل ان ميدان التربية والتعليم قد استهدف لغرسها فيه منذ أمد بعيد وعلى مراحل ، انه الميدان الذى بدئ بها فيه كفكرة وتكاملت نظريتها على مسرحة عن طريق الدعوة السرية أولا ثم الجهرية ثانيا ، وقد انتشرت منه الى سائر الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتشريعية وسائر ميادين الحياة البشرية فى المجتمع الذى سودت فيه ، ولا غرابة فان ميدان التربية والتعليم منطلق التأثير الذى ينتشر بقوة فى أعمق أغوار المجتمع الأنساني ، وأبعد أبعاده ، والذى نمارس فيه بحمد الله دراستنا التربوية والعلمية بل وحياتنا العملية كذلك هو ميدان التربية والتعليم ، فأردت التمييز بين الحق والباطل والفرقان بين العلم والجهل ، وكشف الشبهات وفسر الملتبسات فى هذه المشكلة حسبما يقتضيه الميثاق الذى أخذه الله على الذين أوتوا الكتاب: (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) (آل عمران : ١٨٧) . على قدر الوسع والطاقة .

ثم من الناحية الأخرى فان هذه الفكرة مبرجة ببريق ، ومنفقة بمدحة ، ومصرة بمحبة ، ومفروضة بقوة ، حتى بدت كأحسن العرب الأتراب ، وأصفى الخلص ، وأعرف المعارف ، وأرسى الثوابت ، فانصرفت اليها قلوب غالية ، وأنفقت لأجلها أعمال وأموال ، وبذلت فى سبيلها مهج وأرواح ، فأردت بيان هذه الفكرة بعد استبانتها على حقيقتها

بالبحث عن جنسها و فصلها ، وأصلها ومنبتها ، وبالخبر عن أمها ودينها ، وصدقها ووفائها ، وبالأيضاح عن عواقبها وما اختبأ من ورائها نصيحة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم و (الدين النصيحة) .

وفى حد علمي القاصر أن هذه الفكرة لم تبحث من قبل على نور كاف من الأسلام لاستبانتها في ميدان التعليم العالي بحثا مستوفيا عرض هذه الفكرة ومن أين استمدت وتاريخها ، وابراز دور كل من اليهود والنصارى في بعثها ، من مصادرها ، مع التعقيب بالنتيجة وتقرير المخلص والمفازة ، والله أعلم .

كيف سار هذا البحث؟

قسمته الى خمسة فصول . جعلت الفصل الأول : عرضا لنظرية القومية ككل والقومية العربية كأحد أفرادها فى التعبير النهائى عند القوميين بأمثلة مختصرة من مصادر مقبولة لها وعليها مراعيا اختلاف الزمان والمكان لكي ندرك افتراضاتها وقضاياها التى قبلت بها وطابعها المثبت .

يتضمن هذا العرض تعريف القوميين للقومية وتاريخهم لنشوئها فى أول القرن التاسع عشر الميلادى فى أوربا أولا ثم فى بلاد العرب بعد ذلك ، وجواب سؤال هو: لماذا تأخر ظهورها الى هذا التاريخ ؟ والجواب: هو أن سيطرة المفهوم الدينى وقوة سلطانه على النفوس السبب الرئيسي لتأخر ظهور القومية قبل هذا التاريخ ، ثم سيطرة الولاء للملك أيضا السبب الثانوى لتأخرها قبل القرن التاسع عشر الميلادى ، هكذا يجيب القوميون ، ويتضمن ذكر مايراه القوميون عوامل مكونة للأمم وهي : اللغة والتاريخ والوطن ، المشتركة ويتضمن بيان دعوة القوميين العرب الى الأيمان بالعروبة بدلا من الأسلام .

وبيان أنهم يوجبون الجهاد والتضحية بالأموال والأنفس فى سبيل العروبة المشتركة بين مختلفي الأديان ، ويوجبون ازالة العقبات التى تحول دون ذلك كلها وان تكن هي الرابطة الأسلامية .

وبيان أن أساس دعوتهم وهم أن القومية ظاهرة طبيعية على وهم أن الطبيعة حتمية الوقوع بذاتها ، فالقومية على هذا ماهي الا مرحلة من مراحل الطبيعة الأجتماعية التى لامناص للبشرية من المرور بها والتزامها طوعا أو كرها ، فما للأنسان العربي الا أن يجتازها مختارا غير مكره مادام أن دورها في بلاده آت حتما ، وماله الا أن يصرف قلبه الى محبة قومه من غير اعتبار للدين لأنه يفرقهم ، وعليه ابراز التاريخ المشترك والعوامل المشتركة الأخرى على مايرون وهذا هو الطابع القومي الذى من شأنه أن

تنبعث منه مشاعر الاستعلاء والاعتزاز بالقوم والمباهاة بالأمجاد .

وبناء على ذلك يوجبون تأسيس الدولة على المبدأ القومي فحسب ، ونقض أى أساس قد قام عليه بناء يخالف هذا المبدأ القومي ، ويعملون بذلك .

لم أناقش في صلب المرض هذه الفكرة حرصا على تكامل صورتها بلا تقطيع ، وأرجأت مناقشتها ونقدها الى المباحث الأخيرة في الفصلين الرابع والخامس ، غير أنه ألجأتني الضرورة الى التعليق في الهامش على بعض التعبيرات التي رأيت أنه لا يصح السكوت عنها وخفت أن تفوت دون أن ينتبه لها أو أن تنسى .

وفى الفصل الثاني :

بينت دور اليهود فى بعث القومية وكيف أن حكماءهم السفهاء استغلوها وتعلقوا بها من الحظيظ الذى وقعوا فيه والتشتت الذى عاشوه فكانت الصهيونية مشجبهم المريح لذلك التعلق ، استطاعوا بواسطتها تجميع بنى قومهم حول جبل صهيون بفلسطين كمرتكز ارتكزوا عليه بمعاونة أوليائهم .

وبينت كيف أن اليهود استخدموا الفكرة القومية ذاتها لتفريق وفل أى وحدة تقف فى طريقهم وتحول دون أطماعهم — خاصة التى جمعت أقواما وشعوبا مختلفة فى دولة قوية على أساس الدين — فعمد اليهود ينشرون فكرة القومية داخلها لينتقض أساس وحدتها ولتتوزعها القوميات العديدة ، وأول وحدة جزؤوها هي الوحدة النصرانية ، فاحتووا أجزاءها ، وسخروها بهائم عاملة ، يحققون عليها أغراضهم ، ثم اتجهوا بها نحو الأسلام وأهله غزوا موحدا قد أذكيت فيه روح التعصب الصليبي وأثيرت به أحقاد اليهود ، وخططت له المخططات الشيطانية ، والحيل الماكرة ، شأن يهود من قديم ، وبدأوا بالهاء ذوى النفوذ والجاه والمال والترف بجرهم الى الغلو فى محبة هذه القيم المزينة ليبعدوهم عن الوعي الأسلامي والفقه فى الدين ، حتى نفذ فيهم الغزو بالتغفيل والتشكيك واثارة الشهوات والأهواء عن طريق المحافل الماسونية وغيرها ، ووصل الأمر الى أن غرروا ولاة أمر الخلافة العثمانية باستيراد القوانين الألحادية (العلمانية) ، والأوضاع البشرية واحلالها على رعيتهم بدلا من الشريعة الربانية وبالتدريج حتى لا ينتبه لها الا وقد تغلغلت ، ولما تم ذلك ، كانت العقلية العثمانية قد تهيأت لقبول الولاء القومي وترك الولاء الأسلامي ، فأثارها اليهود فى العنصر الحاكم قومية طورانية عنيفة لا تلوى على شيء من الأسلام ، بل تريد صهر جميع الأجناس فى بوتقة التتريك حتى العرب تريد أن تتركهم ليصيروا أتراكا ، ويستغل هذا الاتجاه الطوراني نحو العرب في تحويل احساس

العرب به الى الدفاع عن ذواتهم بدلا من الأسلام ، ويوحى اليهم أن عروبتهم وجنسهم هما المقصود بالتجاهل والاحتقار ، لكي تثور فيهم النخوة للعروبة المهانة ، والحمية لجنسهم المهضوم ، وينسوا أن الاسلام ورفع رايته والقيام بأمر خلافته أولى بحميتهم ونخوتهم وهو المقصود بالأطفاء والكفر ، والهاء العرب عنه بأنفسهم هو غاية الأعداء حتى يتركوه فأذا تركوه لايغنى عنهم همهم بوجودهم وعزهم وحميتهم لعروبتهم ذلك لأنهم تركوا الأسلام وهو المبرر الوحيد لعزهم وحماية عروبتهم فى الحقيقة التى عرفها الأعداء ، وفى غمرة هذا الاهتمام بالنفس يستدرج أكثر العرب بالمحافل الماسونية والجمعيات السرية فى الشام وغيره وبالدول المسخرة لليهود ليلتزم العرب الولاء للقومية العربية تاركين الولاء الأسلامي ، حتى لايجاهدوا في سبيل الله أيضا عند ماتقوم الحرب العالمية التى يثيرها اليهود ويخططون لها ويمولونها ، وفعلا لما قامت الحرب العالمية الأولى قاتل فيها هؤلاء العرب على أساس المبدأ القومي ، وكما أريد لهم كثوار ضد العثمانيين يطلبون اقامة دولة عربية على أساس العروبة فحسب ، لتجمل كل العرب سواء ، وما تم لهم ذلك الى الآن بل صاروا يعملون على نقيض ذلك المقصود .

فلم يرع العالم الا وقد تم لليهود مرادهم فلسطين احتلوها ، والجهاد فى سبيل الله — الذى لايخيفهم غيره — قد عطلت أعلامه ، والخلافة الأسلامية الواحدة قد تجزأت بالقومية ، ولم يعد أحد يطلبها عن جدارة ، اذ كان العرب قد اندسوا بالقومية أيضا وتنازعوا ذات بينهم بسببها ، وفشلوا وذهبت ريحهم ، وصاروا غير قادرين بحالهم هذه على حمل عبء خلافة المسلمين والولاية عليهم كما أن غيرهم فى حال أسوأ فهم أعجز من باب أولى ، وصار العرب كلما أرادوا تقاربا ولو على أساس المبدأ القومي الذى رضيه اليهود بديلا من الأسلام ليقووا به فان اليهود وحماة صهيون قد تسلطوا على التفريق بينهم وتخذيل بعضهم ببعض : (كمثل الشيطان اذ قال للأنسان اكفر ، فلما كفر قال اني بريء منك) (الحشر: ١٦)

والفصل الثالث: خصصته لبيان دور النصارى فى حمل لواء القومية العربية بادئ ذى بدء ، انهم أول من دعا اليها من بيروت وسائر الشام ومن القاهرة ومن باريس ومن غيرها وأسسوا الجمعيات الأدبية والعلمية فى الظاهر وهي لنشر الفكرة القومية فى العرب ودعوتهم الى اعتناقها ، ثم أسسوا الجمعيات العملية والثورية السرية والجهرية لتنفيذ هذه الفكرة وفصل العرب عن الخلافة العثمانية بمقتضاها ، وكان في بداية هذه الجمعيات جميع أعضائها من النصارى ثم استمالوا اليها كثيرا من المسلمين الناشئين .

وبينت أن للنصارى مصلحة وأهدافا من فكرة القومية العربية خاصة كظفرهم بأن يكون لعرب النصارى قدر مساو للمسلمين في البلاد الأسلامية وفي حكم المسلمين وسياستهم وتوجيههم في ديارهم وهذا مالم يكن ولا ينبغي لهم في دولة الأسلام العزيزة ،فما كان من نصارى الصليب الا أن يغتنموا ضعف دولة الخلافة الأسلامية وضعف العرب في فقه الأسلام ، فقام النصارى ينصبون للعرب قاسما مشتركا بينهم هو فكرة العروبة ، يرتفع اليها النصارى وينخفض اليها المسلمون ، فلا يصح في ملتها فرق بينهم حيث التقوا على صميد العروبة سواء فحسب ، وهذا على مافيه من غبن للمسلمين وكسب للنصارى لم يكتف به النصارى ولم يفوا به لسائر العرب ، ورغم تظاهرهم بهذا المبدأ القومي أول الأمر كرواد صدق كانوا في الواقع يدعمون جمعيات التبشير (التنصير) الغربية في العرب بكل قواهم ويؤازرون بعثاته سرا وعلنا وينشطون في ذلك كلما تحروا أن يدخلوا العرب في دائرة النفوذ النصراني أو أن يخرجوهم على الأقل من دين الأسلام .

ولما حصلوا على مرادهم من القومية العربية استطالوا على العرب من غيرهم كما في الشام بما ظفروا به من نفوذ في الداخل العربي وبقوى الصليبية الأعجمية الغازية لمصلحة صهيون وسائر أعداء الأسلام من الخارج مؤثرين وهم عرب رابطة الصليب والعجم ـ لأنهم لم يرتفعوا عنها في الحقيقة ـ على رابطة العروبة ولم يشفع عندهم قدر العروبة المشترك ونسوا أو تناسوا أن أنه المبدأ القومي الذي حملوا لواءه ودعوا جميع العرب اليه والى ترك أديانهم من أجله جانبا ، ولم يعد غريبا أن يمالئوا قوى الصهيونية العالمية ويمكنوهم في بلاد المسلمين وان كانت العربية كقوة معادية للأسلام .

واذا كان قد تجلى في دور اليهود التحام جهود النصارى بجهود اليهود في تفريق وحدة الخلافة العثمانية التي قامت على الأسلام ، وابعاد العرب عن الولاء الأسلامي وفصلهم عن المسلمين بفكرة القومية العربية ففي دور النصارى يتجلى هذا الألتحام أكثر كما يظهر تعاون نصارى العرب مع النصارى قاطبة في غزو الأسلام وأهله خصوصا بنشر الأفكار الألحادية ونقلها الى العربية عن طريق الصحف والمجلات والكتب وتوزيعها في البلاد العربية فضلا عن الاحتلال المسلح للبلدان الاسلامية كمصر وغيرها وفرض القوانين الالحادية والاوضاع الجاهلية على المسلمين بدلا عن شريعتهم الربانية .

كل هذا لتضليل عقلية العرب وصد ناشئتهم عن معرفة الأسلام . (والله متم نوره ولو كره الكافرون) (الصف: ٨)

والفصل الرابع: جعلته نقدا لفكرة القومية ذاتها ، بتحليل حقيقتها واستعراض الواقع الذى آلت بالعرب اليه ازاء عصبة صهيون العالمية ، وفحص أصول كبير دعاتها ، ومعارضة بعضها ببعض لنرى : هل هي محكمة أم متناقضة؟ ومن ثم نرى مدى فاعلية ملتزميها وهل كانوا يجدون عن علم بواقعية صحيحة لما يصورونه للعرب من وعود حسنة تلاقيهم بها القومية العربية؟ وعلى ذلك يوجبون الايمان بها فعالة والايمان بالمستقبل الذى تأتي به ، وأن ذلك حتمي ، فأن آمن العرب بالقومية وجاهدوا فى سبيلها فازوا بالسعادة والا هلكوا .

على ضوء الاسلام بالأدلة القائمة والأمثلة المقارنة أوضحت التحليل وناقشت التعليل ، ثم أثبت ما وصلت اليه من نتائج وأحكام ، ودعمتها بأحكام علماء معاصرين .

وصار الفصل الخامس: خاصا بالمخلص والمفازة ، ناقشت من يرى أنه يلزم التزام القومية العربية كمخلص من أزمة تهدد العرب كعرب ، وحل موقت يدفع به أحد ضررين هو أخفهما ، اذ أن العرب اذا لم يلتزموا القومية العربية يترتب على ذلك ذوبانهم وانمحاء شخصيتهم ولذلك يتصور بعضهم أنها لاتنافى الأسلام ، ولا يلزم من التزامها تركه ، أو يتصور بعضهم أن التزامها خطوة تقرب الأمة الى الأسلام ، ومنهم من يرى أن الأسلام ذاته ماهو الا من عبقرية العرب ، وهؤلاء هم المتأثرون بالفلاسفة الذين يرون أن النبوة نوع من الأدراك ، تدرك بالرياضة والاكتساب ، فيرى هؤلاء : أن الأسلام ادراك عربي نبع من ذاتية العرب فحسب ، واجهوا به زمنا مضى وانقضى فما على هذه العبقرية العربية الذكية المدركة ان هي أدركت أن القومية العربية خير ملائم لهذا العصر وهو عصر القوميات .

عرضت هذه الآراء أما الحقيقة : (شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله) كلمة الأسلام ، وتضمن ذلك العرض ذكر صور لواقع العرب بدون الأسلام ، قديمة وحديثة ، قد اكتملت فيها مشخصات العروبة من غير نقص ، ولا غفلة عن وعيها ، ولا تخلف فى تعاملهم على أساسها ، قد اشتركوا فى لغة واحدة هي العربية وأرض واحدة هي الجزيرة العربية ، وتاريخ واحد هو تاريخ حروبهم وأيامهم وأنسابهم ومآثرهم ، وحضارتهم ومداولتهم ، وبينت كيف كان غناء هذه الصور بين أهل زمانها الماضي والحاضر شرقا وغربا ، ثم قارنت هذا الغناء بالغناء الذى أسبغه الله عليهم حين قبلوا نعمته وهي الأسلام ، فأتمها الله عليهم ودخلوا فيه أفواجا ، فانقلبت حالهم من الأسوأ الى الأحسن ، وأشرت الى القومة الراشدة التى قامها خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأذن الله تعالى فدعوا الى الله وقالوا اننا من المسلمين وهم عرفوا نقذوا من شاء الله من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الأسلام ، ومن نار الآخرة الى جنتها ، قصروا قيصر الأرباب المتخذة من دون الله فى النصرانية غربا ، وكسروا

كسرى عبادة النار والمزدكية الاباحية الشيوعية شرقا ، ونشروا نور الله (الأسلام) في مشارق الأرض ومغاربها ، وما من علم ولاقوة يتبجح بهما أهل الشرق والغرب اليوم الا وقد اقتبست أنوارها الفاتحة وأخذت مفاتيحها المنيرة من الأسلام .

ثم بينت كيف يمكن العرب اليوم وهم الأقرب والأولى أن يقوموا مثل تلك القومة الراشدة ان شاء الله وبينت قرب مفتاح قفل الدنيا والآخرة ، لو يبصرون ، وأن هذا القفل الذى أعيا كل من حاول فتحه بغير مفتاحه ما مفتاحه سوى : (شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله) ذلك لأنها مبدأ الأسلام الرئيسي ، والحقيقة كل الحقيقة التى لاينافيها الاباطل ، انها كلمة الله العليا وشهادته وشهادة الملائكة وأولوا العلم ، وكفى بالله شهيدا (شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لااله الاهو العزيز الحكيم ، ان الدين عند الله الأسلام) (آل عمران : ١٨ / ١٩) .

وبشرت ببشارة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق الذى لاينطق عن الهوى وهي أن المسلمين هم الذين سيسلطون باذن الله على اليهود ويقتلونهم حتى ليختبئ اليهودى خلف الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يامسلم ياعبدالله خلفي يهودى تعال فاقتله .

أحسب أن قد بينت فى هذا البحث: أنه لامخلص ولامفاز حق الا بالأسلام كما هوالحق والواقع الذى ليس بعده الا الضلال والخيال ، ووفيت عنوانه الموسوم : (فكرة القومية العربية على ضوء الأسلام) .

و أعترف بقصورى وتقصيرى ذاتيا واندراجي تحت كلية الخطائين ، لكن أستغفر الله و أتوب اليه ثم أعترف بما ينبغى اليه العلماء وأقوم باصلاحه ان شاء الله تعالى ، وأرغب في أخلاق المسلمين .

الشكر :

الشكر لله ، أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ، فهو الأول الذى ليس قبله شيء والآخر الذى ليس بعده شيء والظاهر الذى ليس فوقه شيء والباطن الذى ليس دونه شيء وهو بكل شيء عليم وبنعمته تتم الصالحات . ثم أشكر أستاذى المشرف على هذا البحث الأستاذ محمد قطب ، فقد قام بدوره وأحسن جزاه الله خيرا ، وأشكر الذين تكرموا وأعارونى مراجع هامة فى القومية العربية ، أخص بذلك أستاذى محمد أمين المصرى والزملاء فؤاد سندو سليمان الماعد وعبد الله الجفالى .

ولقد أفدت بفضل الله من هذه المراجع فائدة كبيرة وميسرة لم أشد رحل سفر الى مكانها ولاجهدت فى استيرادها من الخارج ولله الحمد ، وأشكر كل من أفادنى من خلال مؤلفاته أو مذاكرته عند لقائه و أتحمل وحدى مسؤولية عملى والله المستعان وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ، ان أحسنت فمن الله وحده وله الحمد والشكر وحده وان أسأت فمن نفسي ومن الشيطان وأعوذ بالله المحمود على كل حال وأسأله بمنه وكرمه أن يتقبل هذا البحث وأن ينفع به المسلمين خاصة والناس عامة ولا يكلهم اليه وصلى الله وسلم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

الفهـــــــرس

خطبة ومقدمة ..... أ ـ ط

خطبة الحاجة ..... أ

تمهيد من معنى قومية حسبما يتبادر لفة ..... ب

معنى لفظ : القومية العربية لفة ..... جـ

لماذا اخترت البحث فى فكرة القومية العربية؟ ..... جـ

كيف سار هذا البحث ..... د ـ ح

ملخص للفصل الأول : عرض النظرية ..... د

ملخص للفصل الثاني : دور اليهود ..... هـ

ملخص للفصل الثالث: دور النصارى ..... و

ملخص للفصل الرابع: نقد الفكرة ..... ح

ملخص للفصل الخامس: المخلص ..... ح

الشـــكر ..... ط

الفهرس ..... ى ـ س

الفصل الأول

عرض لحقيقة فكرة القومية العربية فى تعبيرها النهائي من مصادرها ..... ١ ـ ٣٣

أ ـ ساطع الحصرى ، تعريف به ومنهجه ١

الفكرة القومية ٤

نشوء الفكرة ٥

اللغة والتاريخ ٨

القومية العربية ٩

الأيمان القومي ١١

عقبات وحواجز ١٣

الوحدة العربية والوحدة الأسلامية ١٤

ب ـ مثال آخر : فكرة القومية العربية فى محاضرات الأمير الأستاذ مصطفى الشهابي ..... ١٦ ـ ٢٠

الأفصاح عن كنه عقيدتهم القومية وعواملها وعلاقتها بالدين ١٧

جـ ـ فكرة القومية العربية فى محاضرات الدكتور محمد معروف الدواليبي ، تعريفها ، وعواملها ، وعناصرها وعلاقتها بالاسلام ..... ٢٠ ـ ٢٤

د ـ فكرة القومية العربية فى مناهج التعليم الاولي ..... ٢٥ ـ ٢٨

تعريفها ، وعواملها ، ومظاهر شعورها ٢٥
أصولها الفكرية فكرة القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي ٢٦
أول تطبيق عملي للمبدأ القومي ٢٦
تأثر القومية بالرومانسية ٢٧
القومية العربية الافكار القومية التي سادت أوربا ٢٧
زعماء الحركة القومية العربية ٢٨
الأسلام وصلة القومية العربية به عندهم ٢٨
هـ ـ فكرة القومية العربية فيما ينشر للعامة من ثقافة ..... ٢٩ ـ ٣٣
في مجلة العربي ٢٩
في مجلة العالم العربي ٣٠
في كتاب : "قضية العرب" علي ناصر الدين ٣٠
في كتاب: "كيف ينهض العرب" عمر فاخوري ٣٠
في كتاب: "القومية العربية" أبو الفتوح رضوان ٣١ـ ٣٣
مفهوم القومية العربية متطور ٣١
١ ـ مرحلة العروبة ٣١
٢ ـ الجامعة الاسلامية ٣٢
٣ ـ العودة الى العروبة ٣٢
٤ ـ القومية العربية غاية وعقيدة بعد ثورة مصر ٣٣

الفصل الثاني

دور اليهود في نشوء فكرة القومية ..وأهدافهم ..... ٣٤ ـ ٦٦
استفادة اليهود من فكرة القومية في الدعوة الصهيونية ٣٤
استغلال اليهود الفكرة القومية لتجزئة وحدات ضدهم ٣٥
نظرة اليهود الى الدولة العثمانية ٣٦
توريد الأفكار الألحادية من الغرب الى الخلافة العثمانية ٣٦
خطط اليهود السرية ..... ٣٧ ـ ٣٨
توصل فرنسا بعد الثورة الماسونية الى اجبار تركيا على منح امتيازات
للمدارس الفرنسية في داخلية تركيا ٣٩
نشوء نظام الامتيازات للجاليات الأجنبية داخل الخلافة ٣٩
الجالية اليهودية في القسطنطينية ، ومالها من امتياز وتخطيط ونفوذ
كما لسائر اليهود في داخل الخلافة العثمانية ..... ٣٩ ـ ٤١

منح الأمتيازات للدول الخارجية ٤١
تشكيل محاكم قنصلية داخل الخلافة تحكم بغير الأسلام ٤١
تعقد القضاء واقرار فكرة المساواة بين العثمانيين وغيرهم من الدول ثم
الهزيمة وادخال القوانين العلمانية أو الاصلاح الغربي ..... ٤٢ ـ ٤٤
ماسونية الصدر الأعظم وتركيا الفتاة ٤٤
عرض اليهود على السلطان عبد الحميد ليمنحهم فلسطين ٤٥
خلع السلطان بعد رفضه ٤٦
تسلم جمعية تركيا الفتاة الحكم ٤٦
جهود اليهود السافرة لتحويل ولاء المسلمين قوميا ٤٦
القومية التركية ٤٧
حقيقة "تركيا الفتاة" ٤٩
وصف مجمل للسياسة القومية التي كانت تتبعها ٥٠
أثر اليهود في رد العرب الى القومية ، واثارتهم على أساسها .... ٥٢ ـ ٦٢
اثارة ردود الفعل عند العرب تجاه القومية التركية ٥٢
اذكاء الروح القومية واطفاء حماس العرب للعروبة ٥٣
اثارة الحرب والتحريش بين الناس وتوجيه الثورة لخدمة أهدافهم ... ٥٧
تجريد ثورة العرب من سبيل الله الى سبيل العروبة ٥٩
حقيقة الثورة العربية في نظر الصهيونيين ٦٢
وفاء الحلفاء ..... ٦٣ ـ ٦٤
احلال اليهود في فلسطين ٦٤
بث أفكار الوثنية والفرقة ٦٤
تمسيك اليهود بالقومية العربية خوفا من الاسلام ٦٥

الفصل الثالث

دور النصارى في نشوء الفكرة القومية عند العرب .. وأهدافهم ..... ٦٧ ـ ١٠٧
مشاعر الأمم النصرانية قديما نحو العثمانيين حال عزهم بالاسلام ٦٧
البداية ، لفكرة القومية العربية ٦٨
التعليم التبشيري ٦٩
مبتدعا الدعوة الى القومية العربية ٧١
الجمعيات العلمية النصرانية ٧٣
الأفكار الأوربية ..... ٨٠ ـ ٨٨

اللادينية ٨٠
تطورية داروين ٨٢
محاربة الدين والسلطان ٨٣
الاشتراكية ٨٤
ايهام فصل العلم الصحيح عن الدين الحق ٨٤
فصل الدنيا عن الدين ٨٥
الاعتياض بالفلسفة ٨٥
فصل الدولة عن الدين ٨٦
تأسيس الدولة على القومية ٨٦
أهداف النصارى من القومية العربية ..... ٨٨ ـ ٩٣
أولا : تقوية النصارى العرب وتمكينهم من السيطرة على العرب المسلمين . ٨٨
ثانيا : نفوذ دول الصليب الاستعمارية في البلاد العربية ٩٠
ثالثا : مناقضة الاسلام نفسه بفكرة العروبة ٩٢
الحركة النصرانية المنظمة للقومية العربية ٩٣
جمود الحركة في سلطان عبد الحميد ٩٦
اتفاق قوميي العرب مع الثوار الأعاجم ٩٧
الخلاف ٩٩
قيام جمعيات وحركات أخرى ٩٩
الثورة العربية في دور النصارى ١٠٢
تواثب النصارى على حكم الشام بالقومية ١٠٤
القومية العربية يتسلمها حزب البعث النصراني ١٠٥
مبادئ حزب البعث ١٠٦
سفور حزب البعث عن وجه صليبي ضد الاسلام ١٠٧

الفصل الرابع

نقد القومية العربية ..... ١٠٨ ـ ١٤٠
فكرة بعثت من اليهود والذين أشركوا والنصارى ١٠٨
بيان الله تعالى عما يود اليهود والنصارى والمشركون منا ويقصدون فينا ١٠٩
واقعها يشهد عكس ما تبشر به ، وبيدانها عبودية غير الله تعالى ١١٠
القومية العربية غاية من دون الله ، كسنن اليهود والنصارى ١١١
عرض العروبة كغاية على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ١١٢
القومية العربية رد للعرب الى الجاهلية ..... ١١٥ ـ ١١٧

ذر الرماد على العيون ١١٦
تصريفات القوميين للقومية لاتخرج على نظرية الحصرى : وجوب قومية العرب
على أساس عروبتهم فحسب ١١٧
نظرة فى حصيلة القومية العربية منذ قرن ١١٨
تناقض نظرية القومية العربية وفسادها ..... ١٢١ ـ ١٢٧
التناقض فيما يزعمونه عامل اللغة ١٢١
التناقض لدى فيلسوف القومية العربية ١٢٢
التناقض فيما يزعمونه عامل التاريخ ١٢٣
التناقض فيما يقولونه فى المشيئة ١٢٣
مناقضتهم للمصلحة الاجتماعية ١٢٣
موافقتهم لما فى "بروتوكولات حكماء صهيون" من خطط الافساد ١٢٦
خلاصة النتائج والأحكام مقرونة بالأدلة ، ومؤيدة بأحكام العلماء وغيرهم ١٢٧ ـ ١٤٠
البطلان ١٢٧
الشرك ١٢٨
شرك فى الربوبية ١٢٨
شرك فى العبادة ١٢٩
اتخاذ العروبة ندا من دون الله محبوبا ١٢٩
قول شيخ الاسلام ابن تيمية فى الفقر والحب ١٣١
قول امام الدعوة من نجد ١٣١
قوله أيضا فى معنى الطاغوت ١٣٣
قوله فى معنى التوحيد ١٣٤
قول الشيخ ابن باز ١٣٥
قول الشيخ ابن حميد ١٣٦
قول الشيخ الندوى ١٣٨
قول الشيخ محمد الغزالي ١٣٨
قول برنارد لويس (يهودى) ١٣٩
قول أرنلد توينبي (نصراني) ١٣٩
توصية المؤتمر العالمي للدعوة واعداد الدعاة ١٣٩
قول الأمير فهد بن عبد العزيز ..... ١٣٩ ، ١٤٠

الفصل الخامس

ا لمخلص والمفازة	١٤١ أ ـ ١٩٢
تمهيد بوصف مكر حساد العرب	١٤١ أ
وقوع القوميين فى حيرة من أمرهم ، وشعورهم بذلك وبالخطر	١٤٣ أ ، ١٤٥
انتكاس القومي بزعمه أن قوميته العربية مخلص	١٤٤ ـ ١٤٨
تصوير قومي عربي للواقع العربي من زاويته القومية فانطبق على القوميين العرب وحدهم ، ولم يتجاوز حله قدره القومي	١٤٦ ـ ١٤٨
خلاصة موجزة للقدر العربي المشترك	١٤٩ ـ ١٥٨
١ ـ من كتب التاريخ	١٤٩
٢ ـ من البحوث التاريخية الأثرية العلمية الجديدة	١٥٢
٣ ـ من ديوان العرب ، الشعر الجاهلي	١٥٥
قيمة هذا القدر المشترك وغناؤه عن العرب	١٥٨
ا لأسلام هو المخلص والمفازة	١٦٠
كيف واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الجاهلية برسالته	١٦٠ ـ ١٦٧
التحول والهجرة من الجاهلية الى الأسلام وأمثلة غنائها المقارنة	١٦٧ ـ ١٧٠
صورة من حوار المسلمين مع أهل فارس الشرق المعظمين تبين عظمة العرب بالأسلام حتى بعد أن لحق النبي صلى الله عليه وسلم بربه	١٧٠ ـ ١٧٤
أثر المد الأسلامي فى أوربا وحياة البشرية	١٧٤ ـ ١٧٨
رد الجميل	١٧٨
كيفية الانحطاط وأسبابه	١٧٩ ـ ١٨١
هذا طريق المخلص والمفازة ، وهو على العرب أيسر وهم به أجدر ...	١٨٦ ـ ١٨٨
تباشير	١٨٩ ـ ١٩٢
قائمة بالمراجع	١٩٣ ـ ٢٠٤

الفصل الأول

عرض لحقيقة فكرة القومية العربية فى تعبيرها النهائي من مصادرها

أ ـ ساطع الحصرى

تعريف بحاله :

« تربى فى تركيا وتلقى فى حداثته وشبابه التربية المعهودة لدى جيل تركيا الفتاة تلك التربية التى كانت تستند الى الأفكار الوضعية الفرنسية والقومية الأوربية . (١) شغل مراكز هامة فى وزارة التربية العثمانية ، التحق بالحكومة العربية فى دمشق وصار وزيرا للتربية فى حكومة الملك فيصل ، ثم رافقه الى العراق حيث عين مرة أخرى فى وزارة التربية . (٢) رافق فيصل هذا الى أوربا ، وذهب الى استانبول للاتصال بالكماليين ، كان له أثر كبير فى تكوين وعي قومي فى العراق ، نفي من البلاد بعد فشل انقلاب رشيد عالي الكيلاني ، عاش فى بيروت ثم فى القاهرة كموظف رسمي فى جامعة الدول العربية . (٣) وفيما كان فى بيروت ثم فى الجامعة العربية فى القاهرة وضع سلسلة من الابحاث دارت خصوصا حول النظرية القومية والدفاع عن القومية العربية ...

« ويمكن النظر اليها كالتعبير النهائي لتلك الفكرة القومية التى برزت خلال الاعوام اللاحقة لعام (١٩٠٨م) والتى سيطرت على الحياة السياسية فى سوريا والعراق حتى (١٩٤٥م) ، .

« نجد فى كتاباته نظرية نقية للقومية ... استمدها خلافا لما سواه من الكتاب لا من الفكر الانكليزى والفرنسي فحسب بل من جذورها فى الفلسفة الألمانية أيضا ، لقد قرأ فيخته كما لم يفعل حسب علمنا أى قومي عربي آخر " . (٤)

" الفكرة للقومية العربية هي محور عمله وحياته (أكثر من نصف قرن) .

" ولم تتردد القاهرة فى منحه جائزة الدولة التقديرية على كتابه الأخير " الأقليمية جذورها وبذورها "

" وفي أوائل عام (١٩٥٥م) نشرت مجلة الثقافة الوطنية الشيوعية اللبنانية تعليقا طويلا على كتابه : " العروبة أولا " خصت معظمه بالمديح والتأييد " (٥)

---

١ ـ الياس مرقص ، نقد الفكر القومي ، ساطع الحصرى ، ص١٢ / والبرت حوراني ، الفكر العربي ، ص ٣٧١ .

ومن المتقرر أن الماسون هم مؤسسوا جمعية تركيا الفتاة كما سيأتى بيانه ان شاء الله فى دور اليهود فى القومية فى الفصل الثانى من هذا البحث.

٢ ـ المصدر السابق .

٣ ـ الياس مرقص ، ص١٢ .

٤ ـ البرت حوراني ، ص٣٧١ .

٥ ـ الياس مرقص ، ص٩ .

ويقال عن الحصرى : "انه أكبر وأقدم دعاة الفكرة القومية ، انه فيلسوف الفكرة القومية العربية"
"وهو مرجع أساسي بالنسبة لجميع العاملين فى حقل الفكرة القومية" (١)
"نجد أفكار وأقوال الأستاذ الحصرى فى الكتب المدرسية ، مثلا فى سوريا : كتاب (المجتمع العربي) للصف الثاني عشره وكذلك (التربية الوطنية) للصف التاسع.
"قد طبعت بعض مؤلفاته خمس طبعات حتى (١٩٦٦م) ... ان عدد نسخ كتبه فى المشرق العربي لايقل بحال من الأحوال عن فئة ألف . (٢)
والملاحظ: من كتابات القومية العربية ذكر ساطع الحصرى مرجعا هاما لفكرة القومية ، والقوميون يلتقون على أفكاره ولا يعارضونه فى جوهرها وهو: "الزام العرب مبدأ القومية كغاية يدعى اليها"

منهج الحصرى وخطته :

ندع الحصرى يتحدث عن منهجه بنفسه حيث ننقل قوله :
"ان أعمالي فى قائمقامية رادويشته التابعة الى ولاية قوصوه خلال عهد المراقبة الدولية المفروضة على الولايات الثلاث أى ماكدونيا ، كانت أكسبتنى بعض الخبرة فى كيفية تدبير الأمور دون افساح المجال الى اعتراض هيئة المراقبة وتدخلها مع التغلب على الدسائس والمناورات التى كان يقوم بها البعض من المراقبين . ولذلك استعرضت فى ذهنى كل تلك الوقائع والتجارب وقررت لنفسي الخطة التى يجب اتباعها فى هذا الشأن :
بحث الأمور والمشاريع بحثا دقيقا وشاملا قبل ايصالها الى مكتب المستشار والتسلح بسلاح قوى من العلم والمنطق فى مناقشتها معه.
والعمل على الدوام بهدوء تام دون اثارة وضجيج مع اخفاء الغرض الأصلى من ذلك العمل فى بعض الاحيان.
"ان المرتبة العليا من السياسة ، أى سياسة التربية الوطنية والقومية تدخل ويجب أن تدخل فى صميم أعمال المدارس وأغراضها .
وأما المراتب الاخرى ... فتبقى ويجب أن تبقى بعيدة عن المدارس واهتماماتها .
"هذه الخطة التى كنت شرحتها ونشرتها فى احدى المحاضرات التى ألقيتها فى الاستانه قبل أحد عشر عاما ستكون من أهم المبادئ التى سألتزمها خلال عملى فى العراق ، اني سأتوسل بكل الوسائل لتقوية الشعور الوطنى والقومي فى نفوس ابناء العراق ، وبث الايمان

١ــ الياس مرقص ، ص٩ / ومحمد جلال كشك، القومية والغزو الفكرى ، هامش ص٣٨ / وجريدة العمل لسان حال الكتائب اللبنانية سنة (١٩٥١م) نقلا عن أبحاث مختارة فى القومية العربية للحصرى ، ص٥١٣ .
٢ــ الياس مرقص ص٩.

بوحدة الأمة العربية بينهم وذلك دون أن أنتسب الى حزب من الأحزاب السياسية التى لابد أن تتألف عاجلا أو آجلا " (١)

منهجه مع الاشتراكية والشيوعية هو قوله :

"انا لا أخالف من يدعو الى الاشتراكية ، حتى أننى لا أعارض من يقول بالشيوعية ، غير أننى أطلب الى هؤلاء ألا يمزجوا دعوتهم هذه بالفكرة الأممية ، وألا يجعلوا حركتهم معادية للنزعة الوطنية " (٢)

أما منهجه مع الأسلام فهو قوله :

" ان فكرة القومية العربية صادفت فى طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة ، وعقبات خطيرة وقد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالى : فأنها اخترقت أولا السد المنيع الذى تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة الاسلامية . وهي على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التى تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الأسلامية من ناحية أخرى " (٣)

" والديانة الأسلامية من جملة هذه الأديان العالمية ... وهل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية الأخرى؟ ان التاريخ يشهد على عكس ذلك تماما " (٤)

" ولا شك فى أن روح القومية الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصارا حاسما (٥)."

ومن ميادين نفوذ خطته حسبما يقول جامعة الدول العربية التى خولته على حد قوله أن يفتتح معهدها للدراسات العربية العالية لمنح الماجستير بافتتاحية عامه الدراسي الأول والتى ضمنها الخطة التى يتمنى أن يتبعها هو وزملاؤه الاساتذة فى سيرهم بالمعهد والقاها بحضور هيئة التدريس والادارة فى ١٩٥٣/١١/٧م ، ومما جاء فيها :

"ان أهم أهداف هذا المعهد هو المساهمة فى الأعمال التى ترمي الى تعجيل التطور الذى ذكرته آنفا (٦) وتقوية الفكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد بأحسن الصور وأنجع الوسائل.

"سندعم جميع دراساتنا من قانونية واقتصادية وتاريخية وأدبية بدراسات تحوم حول القوميات بوجه عام ، والقومية العربية بوجه خاص ، سنستكشف عناصر القومية ومقوماتها باستعراض جميع النظريات التى ظهرت ، والتمسنا قشات التى دارت لنتوصل الى عناصر القومية العربية ومقوماتها

١ــ ساطع الحصرى ، مذكراتي فى العراق ، ١/٣٧ ، ٣٨ .

٢ــ = = = = ، ابحاث مختارة فى القومية العربية ، ص١٥٣ .

٣ــ = = = = ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص٢٢٩ .

٤ــ = = = = ، أبحاث مختارة ، ص ٤٦ . ٥ــ نفس المصدر السابق ص١٩٦ .

٦ــ التطور الذى ذكره هو : "مسايرة أوربا فى تطورها " حتى فى ميدان الدين والقومية ، انظر ص١٦ ، ١٧ من : ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية .

على ضوء تلك النظريات والمناقشات ، كما أننا سنتبع كيفية نشوء فكرة القومية فى مختلف البلاد الغربية والشرقية بتفاصيل وافية لنستنير بها فى أمور القومية العربية "

"اننا سنهتم بهذه الابحاث اهتماما بالغا ..."

" ولذلك قلت: ان أهم الثمرات التى نرجوها من أعمال هذا المعهد ومساعيه هي تنشيط الوعي القومي فى العالم العربي مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الأيمان بمستقبلها " (١)

الفكرة القومية

يقول ساطع الحصرى : "الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التى تربط الفرد البشرى بالجماعات و تجعله يحبها و يفتخر بها و يعمل من أجلها و يضحي فى سبيلها " (٢)

"ان الأنسان يحب أمته ـ تحت تأثير النزعة القومية ـ ويشعر نحوها بارتباط قلبى شديد ، ويعتبر نفسه جزءا منها ، فيفرح لكل مايزيد مجدها ، ويتألم من كل ما يقلل قوتها ..."

"ان منبع الوطنية وبذرتها الأولى : حب الموطن ، وأما منبع القومية وبذرتها الأصيلة فحب الأهل " (٣)

"ان العوامل التى تربط الأفراد بعضهم ببعض وتحبب بعضهم الى بعض ـ فتؤلف منهم أمة واحدة كثيرة ومتنوعة جدا ، : الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ ، والاشتراك فى اللغة والتاريخ والتشابه فى العواطف والعوائد والتماثل فى ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل ... كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التى تولد التقارب والتعاطف وتكون الأمم والاوطان " (٤)

"ولكنا اذا لاحظنا أنواع الروابط التى تكون الجماعات السياسية على وجه أخص نجد أن أقواها وأفعلها ، هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ ... وهي التى تتغلب على كل ما عداها ، وتستتبعها استتباعا " (٥)

= ١ ـ ساطع الحصرى ، ابحاث مختارة فى القومية العربية ، ص٢٣ ، ٢٥

٢ ـ نفس المصدر السابق ، ٢٨ ، والنزعات الاجتماعية منها ممدوح يحب ومنها مذموم يكره فمن أيهما تكون الوطنية والقومية على المفهوم الأوربي الوثني ؟

٣ـ المصدر السابق ، ٣٢ ، وهل هذا الحب صالح والله سبحانه يقول : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم) الممتحنة : ٣

٤ ـ المصدر السابق ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، وهل هذه الروابط رابطة حقيقة ؟ أين هي فى الواقع بغير الله ؟ وأين هي يوم ينفخ فى الصور ؟ مع قوله تعالى : (فلا أنساب بينهم) (المؤمنون : ١٠١)

نشوء الفكرة القومية

يقول الحصرى فى محاضرة عنونها بقوله : "نشوء الفكرة القومية ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر"

" وقد طرأ على أوضاع أوربا السياسية ـ منذ مؤتمر فينا ـ (١٨١٥م) من التطورات والانقلابات مالم يسجل التاريخ مثيلا له ، فى أى عهد من العهود الغابرة"

"فقد تكونت وانقرضت ـ خلال المدة المذكورة ـ دولتان عظيمتان : هما الامبراطورية النمسوية والسلطنة العثمانية "

"وأما العامل الأساسي الذى أنتج هذه التحولات السياسية الخطيرة بهذه السرعة الخارقة فكان نشوء "الفكرة القومية" وتغلغلها فى نفوس الشعوب ، تغلغلا جعلها من القوى المؤثرة والمهادى الفعالة فى تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية .

" وتتلخص هذه الفكرة من حيث الأساس فى وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات ، لأن كل أمة من الأمم تكون "عضوية اجتماعية طبيعية" ذات كيان معنوى خاص ، فيحق لها أن تستقل فى ادارة شؤنها ، دون أن تخضع لمشيئة أمة أخرى ، وأن تؤسس "دولة خاصة بها مستقلة ومنفصلة عن غيرها" .(١)

ويتحدث الحصرى عن موقف كثير من المفكرين والكتاب من نظرية ما يسميه حق القوميات فذكر أن البعض يدعواليها والبعض ينادهضها ثم قال يرد على المناهضين : "ولكن للطبيعة أحكام لا تخضع لمشيئة الأشخاص ، ولا تتأثر بالدعايات التى تقوم لها أو عليها ، وللطبيعة الاجتماعية أيضا سنن تسير عليها غير آبهة بالأضرار أو المنافع التى تنجم عنها ، ولذلك سارت فكرة حقوق القوميات سيرها الطبيعي ، ووصلت الى نتائجها المحتومة ، وأعادت بناء الدول الأوربية على أسس جديده تختلف عن أسسها القديمة اختلافا كليا" (٢)

وكان الحصرى قد تساءل لماذا لم تنشأ هذه الفكرة الا فى القرن التاسع عشر؟

ويجيب بأن المانع هو سيطرة مفهوم أن الملك يملك الدولة ، "فتخضع لمشيئته خضوعا مطلقا لا يقيده أى قيد " كما هي حال "ملوك أوربا بأجمعهم" "حين يتصرفون بممالكهم تصرفا مطلقا كما يتصرف الأفراد بالأراضي والعقارات التى يملكونها " .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فأن المانع من نشوء الفكرة القومية هو سيطرة الاعتقاد بأن

١ـ ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

٢ـ المصدر السابق ، ٦٧ ، ٦٨ . وفى عبارة الحصرى هنا يذكر أن نتائج فكرة القومية محتومة وليس حتمي الوقوع الا ما أراده الله تعالى ، كما ذكر أن للطبيعة أحكاماً غير خاضعة وسننً تسير غير آبهة بما ينجم عنها ، بينما فى الحقيقة أنه ليس ثمة أحكام مطلقة لا معقب لها الا ما حكم الله به ، وليس ثمة سنن لا تتغير الا سنة الله تعالى ، فنسبة هذا التصور للطبيعة غير صحيح .

" الله الذى يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء أغدق على امبراطورنا خصالا ومزايا كثيرة ، ونصبه سلطانا علينا ...

"لأننا نقرأ فى الكتاب المقدس بأن الله فاطر الأرض والسماء يعطى السلطان بفضل مشيئته ورحمته ". (١)

ثم ذكر الحصرى نماذج للحركات القومية الأوربية كمثال يحتذى، فذكر ألمانيا وأثنى على الأمة الألمانية بأنها كانت تتمتع بأدب راق وثقافة عالية، ولما كانت مع هذا مجزأة الى دول ودويلات مستقلة تماما ويحول دون اتحادها فى الدرجة الأولى — أنانية الملوك والأمراء وتمسكهم بالامتيازات التى كانوا يتمتعون بها — قامت الحركات القومية فى ألمانيا على أساس ضمان تعاون الدول الألمانية وتفاهم ملوكها وأمرائها . (٢)

وذكر ايطاليا وأنها تختلف عن ألمانيا بأن بعض أقطارها تابعة لدول أجنبية فكانت الحركة القومية فى ايطاليا على أساس تخليص الأقطار من شيطرة الأجنبى، من جهة وتوحيد الدول المستقلة من جهة أخرى . (٣)

وزعم أن شعب اليونان قد أضاع استقلاله تماما لأنه ظل تحت السلطنة العثمانية قرونا عديدة ولم يبق له شيء من خصائصه الأصلية غير لغته الخاصة ومذهبه الأرثوذكسي . فنشأت القومية اليونانية على أساس تذكير التاريخ واثارة الحماس الدينى فى ظل الكنيسة الأرثوذكسية التى قد حافظت على كيانها محافظة قومية تامة . (٤)

= ١ — المصدر السابق ٦٤، ٦٥ . وهنا يفصح الحصرى عن أن سيطرة الاعتقاد : بأن الله الذى يخلق الممالك ويعطى السلطان من يشاء سبب لتأخر ظهور القومية فى عهد قوته .

٢ — المصدر السابق ، ٦٩ ، وبذلك يعرض الحصرى بالدول العربية التى استقلت وتميزت عن بعضها أنه لتمسك ملوكها وأمرائها كل بامتيازاته الخاصة لتفعل مثل مافعلت ألمانيا .

٣ — المصدر السابق ، وهنا يعرض بالأقطار العربية التى لم تستقل لتفعل مثل مافعلت ايطاليا .

٤ — المصدر السابق ، ويفهم من كلام الحصرى أن السلطنة العثمانية أبقت لشعب اليونان لغته ومذهبه الدينى حتى وصل به الأمر الى ثورة الحماس الدينى فيه ضد من خالف مذهبه فكيف يكون قد أضاع استقلاله تماما لانه ظل تحت سلطنة تحمي خصوصياته من لغة ومذهب؟ ولكن الحصرى يعرض بعرب مسلمين يوالون السلطنة العثمانية بدافع حماسهم لحماية الاسلام ليجعلوا دينهم مذهبيا قوميا فينفصلوا به عن من لا يذهب مذهبهم وليس من قومهم كما فعلت اليونان فى ظل الكنيسة الارثوذكسية التى قد حافظت على كيانها الخاص محافظة قومية تامة!

وزعم الحصرى أيضا أن الأمة البلغارية أضاعت أيضا استقلالها تماما يوم دخلت بأجمعها تحت حكم السلطنة العثمانية فضلا عن أنها كانت أرثوذكسية المذهب تابعة للكنيسة اليونانية التى تعمل على نشر اللغة اليونانية بين الشعب البلغارى بوسائل شتى . فنشأت الفكرة القومية البلغارية على أساس احياء اللغة البلغارية والتذكير بالتاريخ البلغارى ، ثم الاستقلال عن الكنيسة اليونانية أولا وعن الدولة العثمانية ثانيا . (١)

ويؤكد الحصرى نظرة القوميين الى أن السبب الرئيسي لتأخر ظهور القومية هو قوة الدين بما يقوله عن الأتراك فيما يلي :

" وأما عند الأتراك فالأمور كانت أكثر تعقيدا من جميع النماذج التى ذكرناها آنفا . لأن الشعب التركي كان العنصر الحاكم فى دولة اسلامية كبيرة تجمع بين السلطنة والخلافة ، فالشعور القومي ظل تابعا للشعور الدينى مدة طويلة ، وذلك أوجد بعض الحالات الخاصة التى حملت القوم على معالجة الأمور بأساليب ووسائل خاصة ، وكان أهم هذه الوسائل اصلاح اللغة والأدب بنظرات قومية بحته ، واعادة النظر فى مباحث التاريخ على أساس تبعيدها من النظرات الدينية ، وايجاد تاريخ تركي جديد يثير في النفوس حس الفرور والمباهات بأمجاد الأجداد ... " (٢)

ويختتم الحصرى كلامه عن نشوء الفكرة القومية بالرد على من يقول : "ان عصر القوميات انتهى نظرا لانتهاء أعماله فى أوربا " فيقول :

"ولذلك أكرر القول بأن الفكرة القومية لم تتم بعد مهمتها فى هذه البلاد (العربية) وان كانت قد أتمتها فى كثير من البلاد . ولا شك فى أنها ستؤدى مهمتها فى هذه البلاد أيضا عاجلا أو آجلا " . (٣)

تساؤل آخر: لماذا تأخر نشوء القومية فى البلاد العربية؟

وهذا التساؤل يثيره الحصرى فرعا لتساؤله الأول : لماذا لم تنشأ فكرة القومية فى أوربا قبل القرن التاسع عشر الميلادى؟

ويجيب الحصرى على تساؤله هذا بنحو اجابته عن تساؤله الأول فيقول :

= ١ــ المصدر السابق، ٦٩، ٧٠ . وهنا يعرض الحصرى بعرب يستثقلون تبعيتهم للأسلام لهيمنة حضارته عليهم فضلا عن هيمنة سلطانه ليفعلوا مثل فعل شعب بلغاريا على حد خبره .

٢ــ المصدر السابق، ٧٠، وهذا مايدعواليه العرب ،قومية محورها "اثارة حس الفرورفى النفوس"

٣ــ المصدر السابق، ٧٢ ، وهذا جزم عجيب حينما تعقد به قلوب بينما هو لا يطابق الواقع . لكن قد يطابق حس الفرور .

"ان أسباب ذلك كثيرة ومتنوعة ... ولا شك فى أن أول هذه الأسباب وأقدمها هو: السلطة المعنوية التى كانت تتمتع بها السلطنة العثمانية باعتبارها " دولة الخلافة الأسلامية " .

"هذه السلطة المعنوية القوية كانت تخدرنا روح القومية العربية وتجعلنا لا نشعر بأننا أمة مغلوبة على أمرها ، مستسلمة لسلطان أجنبى عنها ، نسينا أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين . (١)

""استمر الحال على هذا المنوال مدة طويلة حتى انه عند مابدأت جماعة مستنيرة (٢) من الناطقين بالضاد تنتبه الى ذلك وتطالب بحقوق العرب وتتكلم عن حقوق اللغة العربية ، قامت جماعات كبيرة تعارضهم معارضة شديدة ، زاعمة بأن هذه المطالبات تسيء الى الرابطة (الأسلامية) العثمانية وتخل فى الأخوة الأسلامية .

"واستمر هذا التأثير المعنوى يعمل عمله فى الكثيرين من متنورى العرب ... الى أن قام الكماليون يحاربون الجيش الذى جرده الخليفة ضدهم ـ خدمة لأغراض المستعمرين ـ والى أن فضح الأتراك أنفسهم أنواع المساوىء التى كانت تتستر وراء ستار الخلافة الأسلامية . (٣)

اللغة والتاريخ

يرى الحصرى القومي أن اللغة والتاريخ هما أكبر مكونات الامم (٤) لكن التاريخ أصغر من اللغة ، أما اللغة فهي كبيرة العوامل التى يزعم أنها مكونة وهذا قوله فيما يلي :

"ان أهم العوامل التى تؤدى الى تكوين القرابة المعنوية التى يشعر بها الأفراد فى الأمم المختلفة هي اللغة والتاريخ ، فأن الاعتقاد بوحدة الأصل انما يكون فى الدرجة الأولى من الوحدة فى

١ـ المصدر السابق ، ١٩ ، وأود أن أسأل ماذا فى هذه المعنوية من ذم ؟ ان هي خدرت فينا روح معنوية تميزنا عن سائر المسلمين "والمسلمون سواسية كأسنان المشط" ، أليس هذا هو شأن الاسلام فى تهدئة كل روح تفرق بين المتماثلات وتفاوت بين المتساويات أو تسوى بين المختلفات كالفجار والابرار وهم لا يستوون . من هنا نقم الشيوعيون على الاسلام وقالوا: الدين أفيون الشعوب .

٢ـ أى تنور فى ما خرج عن نور الله (الاسلام) ؟ أم أنه يقصد بمتنور ما يقصده الجماعة النورانيون من اليهود .

٣ـ المصدر السابق ، ١٩ ، والكماليون هم أتباع اتاتورك خادم الاستعمار الكافر حقيقة .

٤ـ بينما أن اللغة لا توصف بأنها مكونة ولا التاريخ ولا غيرهما ولا جميع من سوى الله تعالى ، انما الذى يختص بهذا الوصف هو الله رب العالمين الذى اذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، فسبحانه وتعالى عما يشركون .

اللغة والاشتراك فى التاريخ "

" اللغة هي أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد البشرى بغيره من الناس ... " (١)

"وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم ، فمن الطبيعي أن نجد الأفراد الذين يشتركون في اللغة يتقاربون أكثر من غيرهم ، ويتماثلون ويتماطفون أكثر من سواهم ، ويتميزون عمن عداهم ، فيؤلفون بذلك أمة متميزة من الأمم الأخرى ... (٢)

"ان اللغة هي روح الأمة وحياتها ، انها بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى وهي من أهم مقوماتها ومشخصاتها ، أما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ، فأن كل أمة من الأمم انما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص" (٣)

ويتحفظ الحصرى عند ذكر التاريخ فيقول :

" عند ما أقول التاريخ لاأقصد بذلك التاريخ المدون فى الكتب ، التاريخ المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات ـ بل أقصد بذلك التاريخ الحي فى النفوس ، الشائع فى الأذهان ، المستولي على التقاليد " (٤)

القومية العربية

من محاضرة ألقاها الحصرى فى قاعة جمعية الوحدة العربية بالقاهرة فى ١٩٥٠/١٢/٢م استخلص هذا العنوان فى ابحاثه التى اختارها فى القومية العربية وما جاء فى بحثه تحت هذا العنوان :

"ان كل شعب يتكلم العربية هو شعب عربى ، وكل من ينتسب الى شعب من هذه الشعوب العربية هو عربى ... وأما اذا لم يعرف هذا ذلك ... ولم يعتز بالعروبة ... (٥) فعلينا أن نبحث

---

١ ـ المصدر السابق ص ٤٢ .

٢ ـ = = = ، ٤٣ .

٣ ـ = = = ، ٤٤ . ان روح الأمة وحياتها ليس لغتها ولكنه من أمر الله قال الله تعالى : (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (الأسراء : ٨٥) ، وذاكرتها وشعورها ليس الا ذكر الله الذى أنزله للعالمين قال تعالى : (ان هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين) (التكوير : ٢٩) .

٤ ـ أى لا يقصد التاريخ الأسلامي فى قرونه الماضية والتى تذكر الأمة العربية بشرفها وعزها وتوقضها على واقعها المتباعد عن الأسلام فتعود اليه ، وانما يقصد تاريخها الحاضر ، نسيانها لذكرها المستولي على التقاليد والأذهان كي يدوم .

٥ ـ انما الاعتزاز بمن له العزة كما قال الله تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (المنافقون : ٨)

عن الأسباب التى تحمله على الوقوف هذا الموقف . فقد يكون ذلك ناتجا عن الجهل ، فعلينا أن نعلمه الحقيقة . وقد يكون ناشئا عن الغفلة والانخداع ، فعلينا أن نوقظه ونهديه سواء السبيل ، وقد يكون ناتجا عن فرط الأنانية ، فيجب علينا أن نعمل للحد من أنانيته " (١)

ويستعرض الحصرى نظرية الألمان فى أساس القومية فيقول :

"كان الألمان يقولون منذ أوائل القرن التاسع عشر: ان أساس القومية ومعيارها الصحيح هو اللغة"

ثم نظرية الفرنسيين فيقول :

"وأما الفرنسيون فقالوا : ان القومية ليست باللغة ، بل انما هي بالارادة والمشيئة " (٢)

ويصحح نظرية الألمان ليأخذ بها العرب فيقول :

"وعلى كل حال ، أنا لا أتردد فى القول بأن النظرية الالمانية فى هذه القضية ، هي النظرية الصحيحة التى أيدتها الوقائع التاريخية ودعمتها الأبحاث العلمية " (٣)

ويصل الى خلاصة قوله فى القومية العربية فيقول :

" وخلاصة القول : أننا فكلما (هكذا) تعمقنا فى درس القضايا القومية العامة ... وكلما توسعنا فى درس تاريخ العرب الخاص ... تأكدنا من الحقائق التالية :

المصريون ، والسوريون ، واللبنانيون ، والفلسطينيون ، والعراقيون ، والنجديون ، والحجازيون ، واليمانيون ، والليبيون ، والتونسيون ، والمغاربة ... كلهم ينتسبون الى أمة واحدة هي الأمة العربية .

"هناك شعوب عربية عديدة ، ولكن الشعوب كلها تنتسب الى أمة واحدة هي الامة العربية .

"هناك دول عربية عديدة ، ولكن هذه الدول كلها تسوس فروع أمة واحدة ، هي الأمة العربية .

"

١ــ ساطع الحصرى ، ابحاث مختارة ، ص ٩٥ .

٢ــ المصدر السابق ، ص ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

٣ــ المصدر السابق ، ص ٩٨ . يلاحظ أن النظرية الألمانية تنظر الى اللغة كمعبود أساسي للقومية ، بينما أن النظرية الفرنسية تعتبر ارادة الامة هي المعبود للقومية وكلاهما شرك بالله الذى لا معبود حق سواه فسبحانه وتعالى عما يشركون . ذلك أن قوميي ألمانيا يتصورون أن لغتهم تخلق عقولهم وتحرك الفرد حتى أعمق أغوار تفكيره ومشيئته وتجعل المتكلمين بها كلا موحدا ربطتهم بروابط متينة وان كانت غير مرئية ولذا يجب على الألماني أن يبني ولاءه وبراءه عليها ، هذا حسبما تفيده أقوال فيلسوفيهم هردر وفيخته ... والتى أعجب بها الحصرى فصححها ونقلها وقال بها ولأجلها خطأ وترك نظرية فيلسوف القومية الفرنسية رينان ... وكان معجبا ويقول بها ، وهي التى تنظر الى مشيئة الأمة أنها مطلقة اذا شاءت شيئا كان غير مقيدة بمشيئة الله تعالى .

(انظر الياس مرقص، نقد الفكر القومي ، ص ــ ص ٨١ ــ ٩٩)

"لكل واحد منا ... لكل واحد من منتسبي هذه الشعوب ... لكل واحد من مواطني هذه الدول ... أن يقول أنا مصري ، أو أنا عراقي ، أو أنا سوري أو أنا لبناني ... ولكن عليه أن يقتنع في الوقت نفسه : أنا عربي ... (كما) يجب عليه أن يقول : العروبة فوق الجميع ."(٢)

الأيمـان القومي

هذا العنوان للحصري من محاضرة ألقيت بنادي المثنى ببغداد وتحت هذا العنوان ينتقل الحصري الى الدعوة الى الأيمان القومي وهو بالنسبة للعرب : الأيمان بالقومية العربية ويعرفه بأنه : " ايمان الوطني بمجد الأمة وكفاءتها وبقدرة الوطن ومستقبله " (٣)

ويقول : "ان الكفاح القومي والجهاد في سبيل النهضة القومية ... يحتاج الى ايمان راسخ في النفوس ...

" يتطلب بذل المجهود لبث الأيمان القومي في النفوس ولتقوية هذا الأيمان وتغذيته بكل الوسائل الممكنة " (٤)

١ــ ثم ماذا ؟ هل العروبة كافية منجية ؟

٢ــ المصدر السابق ، ص٩٨ ، وهذا الذي يوجبه الحصري على كل عربي أن يقوله : "العروبة فوق الجميع" هو كشعار ألمانيا القومي : " ألمانيا فوق الجميع" والذي جعلوه عنوان نشيدهم الحماسي ، وكالقومي ألمانيا نشيد حماسي يستهلون به فأن الحصري يذكر سكان البلاد العربية بالنشيد الحماسي المعروف:

بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدان

ومن نجـد الى يمن ... الى مصر فتطوان

(انظر أبحاث مختارة ، للحصري ص ١٩٠)

وهذا النشيد الحماسي كان الصغار يتلقنونه عن أساتذة ويرددونه ويستهلون به صباح يومهم الدراسي في المدارس الابتدائية ومن ضمنه هذا الشطر: " فلا دين يفرقنا " وسواء كان نفيا للدين أو نهيا عنه فهو دعوة الى تركه لأنـه يفرق العرب على قسمين : كافر ومؤمن بخلاف مـا يوجبه الحصري على كل عربي أن يقول : "العروبة فوق الجميع " . بينما الذي فوق الجميع حقيقة هو الله تعالى كما قال سبحانه : "(وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) (الانعام : ١٨)

٣ــ المصدر السابق ، ص ص ٩٩ ، ١٠٠ ،

٤ــ المصدر السابق ، ص ١٠٣ ،

وأخيرا يقول الحصرى: " ولذلك كله أقول بلا تردد :ان أول الواجبات التى تتحتم علينا لتقوية الأيمان القومي ــ هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية " (١)

ثم يحث شباب العرب على التزود بالأمل لتقوية هذا الأيمان القومي ويستدل بأحدى الاساطير اليونانية الوثنية على أهمية هذا الأمل غير أنه لايخفى ماتوحي به الى نفوس الشباب المستجيبة: من أن صراع الحياة إنما هو صراع بين آلهة كي يحقق هؤلاء الشباب مغامرات تلك الآلهة فى سلوكهم فيقول الحصرى عن باندور:

" كانت جمة الخصال ، تكونت من عطايا جميع الألهات ،ان كل الهة من الالهات الموجودة الى ذلك الحين أعطتها شيئا من خصالها ولهذا السبب سميت هذه الالهة الجديدة باسم باندور بمعنى عطية الكل ،

" عند ما غضب جوبتر على هركول وأراد أن ينتقم منه فكر فى اغرائه بواسطة باندور : سلمها علبة سحرية وطلب اليها أن توصلها اليه دون أن تفتحها وتطلع على مافيها ، وحملت باندور هذه العلبة غير أنها لم تستطع أن تتغلب على حب الاستطلاع فى نفسها ففتحت العلبة فى طريقها وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوئ والشرور وينتشر فى الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل ، اندهشت باندور من كل ذلك وأخذت تبذل كل مالديها من قوة لأعادة غطاء العلبة بسرعة ... غير أنها الى أن تمكنت من ذلك كان قد خرج من العلبة جميع الشرور ولم يبق فيها الا شيء واحد ... وكان ذلك الذى بقي فى العلبة مقابل تلك الشرور ... هو الامل ...

" ان حالة العالم العربي الآن أيها السادة تشبه الحالة التى حدثت عند انفتاح علبة باندور ... لقد انتشرت المصائب والشرور فى العالم العربي ولم يبق بين أيدى أبنائه شيء غير (الامل) ، يجب علينا أن لاننسى الأمل ... هو أثمن عوامل العمل ، فيجب علينا أن نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلا الى تسلل القنوط الى القلوب ، فليكن قلب كل واحد منا شبيها بعلبة باندور يحفظ الأمل ولا يكتفى بحفظه فحسب بل يسعى الى تغذيته وتقويته الى أن يتحول الى ايمان

١ــ المصدر السابق ، ١٠٦ ، ولكن الأيمان النافع هو الأيمان بالحق الذى بينه الله تعالى بقوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) (الحجرات: ١٥) ،

٢ــ وهل هذا الأمل غير الذى عناه الله بقوله: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) (الحجر: ٣)

لايتزعزع يدفعنا الى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص ..."

وللحصري أسفله بالخط الدقيق تعليقا نصه: "هذا ماكنت قلته قبل نحو ربع قرن من الزمان لجمع من الشبان الناهضين . غير أني اليوم عند ماأعدت قراءة هذه الأسطر، شعرت بسرور حاد يضمر جوانحي لأني قد لاحظت بأنه لم يعد يخيق لي أن أقول : "لم يبق شيء غير الامل" لأنه لم ينقطع الأمل من التأثير في نفوس العاملين المخلصين تأثيره السحري الباهر فأن جهود هؤلاء قضت على الكثير من المساوئ والشرور ، وأكسبت البلاد العربية الكثير من المزايا والمحاسن ... ولذلك جعلت "الأمل" الآنف الذكر جديرا بأن يتحول الى الأيمان" (١)

عقبات وحواجز في طريق سير فكرة القومية في العرب

يتحدث الحصري عن هذا فيقول مانصه: "ان فكرة القومية العربية صادفت في طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة وعقبات خطيرة . وقد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالي فأنها اخترقت أولا "السد المنيع" الذي تكون من امتزاج "فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة الأسلامية" . وهي على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التي تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الأسلامية من ناحية أخرى . وأما العراقيل والعقبات الباقية أمام تيار فكرة القومية العربية فهي عبارة عن النزعات الاقليمية المتولدة من تعدد الدول العربية . ولهذا السبب أعتقد أن استبعاد النزعات الأقليمية مع نشر فكرة الوحدة العربية أصبح في الظروف الحالية من أهم واجبات المفكرين والكتاب والأدباء في جميع البلاد العربية" (٢)

الرابطة القومية والرابطة الأسلامية

يرى الحصري أن الرابطة القومية أقوى وأعم من الرابطة الاسلامية ولذا فأن روح العروبة ستقتحمها في آخر الأمر وهذا نص كلامه: "والديانة الأسلامية من جملة هذه الأديان العالمية ...

" وهل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية الاخرى؟ ان التاريخ يشهد عكس ذلك تماما "

"لم تستطع أن توحد القوميات حتى في الأدوار التي وصلت سلطتها وسيطرتها خلالها الى أقصى الدرجات" (٣)

١ــ المصدر السابق، ص ص ١٢١، ١٢٢ .

٢ــ ساطع الحصري، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٢٩ .

٣ــ = = = ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ص ٤٦، ٤٧ . وهذه مكابرة للواقع التاريخي الذي يشهد أن الأسلام ألف الله به بين قلوب المسلمين حتى انصهروا في وحدة لم يعرف البشر أحسن ولا أكمل منها في الوجود ، ذلك أنها جمعت بين الأسود والابيض والعربي والعجمي وصهرت الفوارق الزائفة بينهم حتى صار الأسلام مقياسهم الوحيد في التفاضل والأولوية في المراتب والولاية .

" ولا شك فى أن روح العروبة الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصارا حاسما فى كل الميادين " (١)

ويستشهد الحصرى على هذا الانتصار بكلمة يقول انها " صدرت عن لسان زعيم عربي مسلم " وهي : "نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد " (٢)

وقد صرح الحصرى فى كتابه ميسلون (ج ٢ ص ١٩٨) أن فيصل بن الشريف حسين قال فى سوريا عن العرب: "هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد ، وأن الديانات تأمر فى الأرض باتباع الحق والأخوة ، وعليه فمن يسعى للشقاق بين المسلم والمسيحي والموسوى فما هو بعربي "

وفى (ص ١٩٤) أنه قال : " العربية قد تأسست على قاعدة المساواة فهي تنظر الى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظرا واحدا " (٣)

وفى (ص ٧٧) أنه قال : " الدين لله والوطن للجميع "

وهذه أقوال يبشر بها عند ما دخل فيصل هذا سورية على رأس جيش الثورة التى وجهها وقادها لورانس العرب ملتقيا بالجنرال اللنبي . وينسبها الحصرى الى فيصل يعنى بذلك أن اسلامه لم يمنع روح العروبة فيه أن تحمله على هذا القول الذى يقتحم اسلامه فى سبيلها ويبغي ذلك حجة على دعواه ان الأسلام لا يربط المسلمين برابطة أقوى وأعم من رابطة العروبة للعرب وأن روح العروبة ستنتصر فى آخر الأمر .

الحصرى يدعي: أن الوحدة العربية حقيقة وأن الوحدة الأسلامية حلم

يقرر الحصرى بعد درسه وتحليله وتفكيره وتقديره أن الوحدة العربية أفضل من الوحدة الأسلامية وأسهل وأنه يمكن تحقيقها فيقول : " أعتقد بأن القضايا الأساسية التى يجب درسها وحلها عند التفكير فى "المفاضلة بين الوحدة الأسلامية والوحدة العربية " تتلخص فيما يلي : هل الوحدة الأسلامية من الآمال المعقولة التى يمكن تحقيقها أم هي من الأحلام الطوباوية التى لا يمكن تحقيقها ؟ وعلى فرض الشق الأول : أتحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية ؟

١ــ المصدر السابق ص ١٩٦ ، وهذا يقين لا يطابق الواقع فى التاريخ .

٢ــ ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٥٠ .

٣ــ نقلا عن كتاب العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨م ــ ١٩٢٩م ، كتبه علي حاج بكرى ، وقدم له نبيه أمين فارس ، ص ١١٧ ، وانظر: مقدمة نبيه فارس لكتاب جورج أنطونيوس: يقظة العرب ص ٢١ ، وقوله : الدين لله والوطن للجميع . تجزئة لملك الله بغير اذنه فان الكل لله تعالى كما قال سبحانه : (ولله ملك السموات والارض) (آل عمران : ١٨٩) وقد أنكر الله هذه التجزئة بقوله تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءا ان الأنسان لكفور مبين) (الزخرف: ١٥)

وهل يوجد شيء من المنافاة بين هاتين الوحدتين ؟ وهل من سبيل الى تحقيق الوحدة الاسلامية دون تحقيق الوحدة العربية ؟ .

" ان كل من يضع هذه الحقائق الراهنة نصب عينيه ويتصور خريطة العالم الاسلامي ويلاحظ موقع العالم العربي فيها يضطر الى التسليم بأن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الأسلامية وبأن هذه الوحدة الاخيرة لا يمكن ان تتحقق على فرض امكان تحققها الا بالوحدة العربية " . (١)

ويكابر الحصري بالرد على القائلين : " بأن فكرة الوحدة العربية اختلقت لمحاربة الوحدة الاسلامية ، وذلك لفصل بعض الأقطار الأقطار الأسلامية تسهيلا لأدامة السيطرة عليها "

فيقول : " اني لاأستطيع أن أتصور رأيا أكثر بعدا عن حقائق التاريخ والسياسة وأشد مخالفة لأحكام العقل والمنطق من هذا الادعاء الغريب "

ويرد ف بقوله : " ان فكرة الوحدة العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية ، لا من الآراء الأصطناعية التي يستطيع أن يبتدعها الأفراد ، أو تستطيع أن تخلقها الدول " (٢) ويرد ف الحصري بقوله : " هذا ما يجب أن يكون ايمان كل متنور من الناطقين بالضاد " (٣)

وكذلك يرد الحصري على القائلين على الدوام : " ان الوحدة العربية وهم وخيال فلنكن واقعيين فلا نسير وراء الخيال " فيقول : " وقد عرفت طائفة من ضعاف الأيمان بالقومية العربية يقولون على الدوام : "ان الوحدة العربية وهم وخيال فلنكن واقعيين فلا نسير وراء الخيال " .

" وأما أنا فأقول لهؤلاء : ان كثيرا من الأمور التي كانت تعتبر من الخيالات في الماضي أصبحت من الأمور الواقعية في الحالة الحاضرة ، ولا شك في أن كثيرا من خيالات اليوم ستصبح بدورها من الحقائق الراهنة في الغد القريب أو البعيد "

" بل ان للخيال كثيرا من الانواع الخلاقة التي تلعب دورا هاما في حياة الافراد والامم " (٤)

١ــ ساطع الحصري ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

٢ــ يريد الحصري أن يقول بمقتضى ايمان كل متنور من الناطقين بالضاد فان الوحدة العربية تيار طبيعي لا مفر منه أما الوحدة الأسلامية فهي من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن يبتدعها الافراد ...

٣ــ المصدر السابق ، ص ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

٤ــ المصدر السابق ، ص ١٩٥ . وليس من الخيال البشري أي نوع من صفة خلاقة وانما ذلك من اختصاص الخالق سبحانه فهو الخلاق العليم .

ويحكم الحصرى على معارضى الوحدة العربية بالوحدة الاسلامية أنهم خالفوا أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة بقوله: " وأما من عارض الوحدة العربية باسم الوحدة الأسلامية أو بحجة الوحدة الأسلامية ، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة "(١)

ويحكم أيضا على الوحدة الأسلامية ذاتها بقوله: " ليس من الممكن أن تتحقق فى هذا القرن بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية وتعضلت المشاكل السياسية وخرجت العلوم والصناعات من سيطرة التقاليد والمعتقدات "(٢)

بل ان الحصرى لم يتحرج من الاشادة بشاعر نصراني دعا الى الكفر فى سبيل الوحدة العربية ولم يتحرج من نقل قوله فى مؤلفاته القومية وهو هذا البيت:

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم (٣)

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ب ــ مثال آخر للفكرة القومية فى المعهد العالى بجامعة الدول العربية

ألقيت المحاضرات فى القومية على نمط مفهوم الحصرى من الأساتذة الآخرين ومنها بين أيدينا كتاب " القومية العربية " تاريخها وقوامها ومراميها ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، وهو مجموعة محاضرات عن القومية العربية ، ألقاها الأستاذ الامير مصطفى الشهابي على طلبة المعهد عام (١٩٥٨م) ، وهو موجود بكلية الشريعة والدراسات الأسلامية بمكة المكرمة ، بمكتبتها تحت رقم ١٥٨ / ٣٢٠ ، م / ش / م .

يهدى الشهابي كتابه هذا بقوله:

" الى روح أخى عارف الشهابى الذى وقف حياته القصيرة على بث عقيدة القومية العربية وقضى شهيدا فى سبيلها ، وعلمنى أن أحب المروءة وأن أبذل جهدى فى خدمتها "

وقال عن كتابه هذا:

"يتألف هذا الكتاب الصغير من محاضرات ألقيتها على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بناء على رغبة الأستاذ الجليل شفيق غربال مدير ذلك المعهد .

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ١٩٥ . وأى عقل ومنطق هذا : ؟ هل هو منطق المسلم أم منطق الكافر؟ ، انه منطق بيت الشعر الذى أشاد به الحصرى: سلام على كفر يوحد بيننا ...

٢ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٤ . ولكن فى الاسلام حل تعقد الحياة الاجتماعية وفيه شفاء معضلات السياسة ، واذا كانت العلوم والصناعات قد خرجت من سيطرة التقاليد والمعتقدات الأخرى فانها لازالت فى قبضة الاسلام ولن تخرج من قبضته الا اذا خرجت عن حكمها كعلوم ثابته وصناعات متقنة . وقد وقع ذلك فى الوحدة الأسلامية ، أما الوحدة العربية فأين هي ؟ .

٣ ــ ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٢٥٠ .

" وقد حاولت فيها أن أفصح للطلاب عما في رأيي في كنه عقيدتنا القومية ، وتاريخها الحديث ، والعوامل المكونة لها ، والاهداف التي ترمي اليها ، والفلسفة المثالية التي تحدد أغراضها وعلاقتها بالقوميات السائرة وبالبشرية جميعا "(١)

وعن عوامل القومية يقول الشهابي : " اختلف علماء الاجتماع والفلاسفة وسائر المفكرين في حصر عوامل القومية ، أو قل مقومات القومية : أهي البلد أي أرض الوطن؟ ، أم العرق أو قل السلالة؟ أم اللغة ؟ أم العناصر السياسية والاقتصادية؟ أم التاريخ المشترك؟ أم الدين؟ أم الارادة المشتركة؟ أم هي كلها ؟ أو بعضها ؟ . واختلفوا خصوصا في مدى تأثير كل من هذه العناصر في تكوين الامم وانفصال بعضها عن بعض أو تميز بعضها من بعض" (٢)

وعن الدين والقومية يقول : "ولقد كانت الاديان في التاريخ ، أي قبل نشوء مبدأ القوميات حديثا أهم صلة روحية بين أبناء البشر ، ولكننا نرى في أيامنا هذه أن رابطة القومية قد تفوقت على رابطة الدين لدى كثير من الأقوام التي تدين بدين واحد " (٣)

وفي خلاصة بسطه القول عن عوامل القومية يقول :

" والذي يهمنا ذكره فيما يتعلق بقوميتنا العربية أنها من حيث الفكرة المثالية تقوم كغيرها من القوميات على الشعور والايمان بأن العرب في جميع أقطارهم أمة واحدة ، وعلى ارادة السعي لتحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه الأمة "

" أما العوامل الواقعية التي ترتكز عليها قوميتنا العربية ، أي بواعث الفكرة المثالية فأهمها عاملان : الأول اللغة العربية الفصحى ، فهي التي تولد فينا ذلك الشعور القوي المشترك بالتعاطف والتساند بين أبناء الناطقين بالضاد على مختلف شعوبهم وأقطارهم ، وهي التي تولد فينا تلك الأرادة او النزعة المشتركة التي تحدونا على اعتبار هذه الشعوب أمة عربية واحدة واعتبار أقطارها وطنا مشتركا واحدا هو الوطن العربي الاكبر لتلك الامة .

" وأما العامل الثاني : فهو تاريخنا المشترك . فالقسم المشرق من تاريخ امتنا العربية عامل أساسي في تكوين النزعة القومية فينا ، وذلك بأن من المؤثرات الفعالة في نفوسنا تذكر الماضي أمتنا من أثر حميد في الثقافة والمدنية ، وما كان لرجالاتها من بطولة وما حفظت الأيام لنا

١ــ الأمير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، ص ٩٠

٢ــ المصدر السابق .

٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٣ . وتلك الرؤية ان صحت بالنسبة لما يسمى أديان فليست حجة على تفضيل القومية على الأسلام لأن الأسلام هو الدين الحق وما سواه باطل والذي يصح على الباطل لا يقال انه يصح على الحق ، وما تفوق أي رابط في أناس على الأسلام الا أن يفوقوه هم جهلا وظلما " وحملها الأنسان انه كان ظلوما جهولا " (الاحزاب: ٧٢)

من تراث علمي وأدبي عظيم ، وما خلفت لنا من قيم روحية لاكفاء لها .

" وبعد ان القومية ايثار لأثرة ، وتضحية لا جرم فنم ، وعقيدة فى سويداء القلب لا شقشقة على عذبة اللسان ، وياويح أمة لا تؤمن بقوميتها ، ولا تقبل التضحية فى سبيلها ، ولا تعرف كيف تضمن لنفسها عناصر الحياة من علم وثقافة واقتصاد وقدرة على حكم نفسها بنفسها ، وعلى مدافعة المعدوان عن وطنها . فأمة كهذه الامة لا مكان لها ولا استقلال فى عصر القوميات وفى معترك التسلط الاستعمارى .

" ومن الاجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية وأن يتجاوزوها الى الايمان الاعمى بعقيدة العالمية أو الاممية فى هذا الزمن " (١)

وكان الشهابى قد قال عن الاسلام بعد أن جعله مع النصرانية قسما واحدا يجوز عليه مايجوز عليها من أحكام مانصه :

"أما القسم الثاني كالاسلام والنصرانية فهو أيضا يولد فيمن يدينون به نزعة تساند قوية ولكنه يتجاوز النزعة القومية الى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى "(٢)

وحين يقول الشهابى: "من الاجرام الفظيعة ...." يريد بالأجرام جمع جرم وهو الذنب ، أى من الذنوب الفظيعة عند الشهابى أن يتخلى أفراد الامة الضعيفة عن عقيدة القومية وأن يتجاوزوها الى الايمان الاعمى فى نظره بعقيدة العالمية أو الاممية فى هذا الزمن وهو يقصد بالعالمية والاممية مايقصده الحصرى بقوله بمعناه: أن الديانة الأسلامية وسعت نطاق القومية العربية وصانتها من الانشطار ، ولكن الحركة الاسلامية لم تبق مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما ، وكون الديانة الاسلامية وسعت نطاق القومية العربية لا يعنى أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية لانها تجاوزتها الى العالمية .(٣) ويقصد الشهابى بالعالمية والاممية مايقصده بهما اليهود من الاسلام والمسيحية (النصرانية) بدليل قوله عن الاسلام والنصرانية بعد أن جعلهما قسما واحدا أنهما قسم يتجاوز النزعة القومية الى نزعة دينية شاملة لاقوام شتى .

ومن العجب أن الشهابى جعل القسم الأول من الأديان من حيث نظر القومي هو اليهودية والوثنية لأنه قسم يختص به قوم أو شعب أو جماعة فهو فى تعليل القوميين أفضل من الدين العالمي كالاسلام لأن الاسلام يتجاوز النزعة القومية الى العالمية أما مثل اليهودية والوثنية فأنها مختصة بقوم أو بشعب أو بجماعة فهي تزيد ترابطهم وتساند قوميتهم وقد تضاهى عامل اللغة المشتركة والتاريخ المشترك وفيما يلي نص قول الشهابي بالحرف الواحد : "والأديان من حيث مبدأ القومية قسمان :

١ــ المصدر السابق ، ص ، ص ١٧ ، ١٨ .

٢ــ = = = ، ص ١٣ .

٣ــ انظر : ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، من ص (٣٥٤) الى ص (٣٥٩)

قسم يختص به قوم أو شعب أو جماعة ، وقسم يدين به الناس من مختلف الأقوام والشعوب ، فالقسم الاول كاليهودية وكعبادة بعض الأوثان يولد فى أصحابه نزعة خاصة تنضم الى النزعة القومية أو الجماعية فيزداد بها ترابطهم وتساندهم ويكون الدين عندهم دينا قوميا ، ويكون فى كيانهم عاملا قويا قد يضاهي عامل اللغة المشتركة والتاريخ المشترك.

" أما القسم الثاني كالاسلام والنصرانية فهو أيضا يولد فيمن يدينون به نزعة تساند قوية ولكنه يتجاوز النزعة القومية الى نزعة دينية شاملة لأقوام شتى " (١)

" ومن الاجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية وأن يتجاوزوها الى الايمان الأعمى بعقيدة العالمية أو الأممية فى هذا الزمن " (٢)

هكذا يرى الشهابى أن التجاوز الى العقيدة العالمية كالاسلام من الذنوب الفظيعة خصوصا ان كان المتجاوز أمة ضعيفة كالعرب فى هذا الزمن ، أما ان كان الدين ينضم الى النزعة القومية كاليهودية وعبادة بعض الأوثان ولا يتجاوزها فالقومية المفضلة تزداد به قوة وسندا وقد يكون العامل القوى المضاهي لعامل اللغة المشتركة والتاريخ المشترك .

والشهابي منطقي فى قوله هذا مع المبدأ القومي ، وصادق بلسان القوميين عن نظرتهم الى الدين من مبدأهم .

وأعجب من هذا صدقه فى وصف موقف القومية الذى يريده للعربية مع غير العالمية [illegible] من نظائرها القوميات الأخرى لانها ليست عالمية كالاسلام فيقول :

" ومن الخطأ الظن بأن القومية ظلم أو مشاكسة لغيرها من القوميات [illegible] فالقومية لاتكون كذلك الا عند الأقوام التى لها دول استعمارية غاشمة . أما عند غيرهم من الأقوام فالقومية لاتكون الا عقيدة انسانية عادلة تحرص على احترام حقوق القوميات السائرة حرصها على جعل تلك القوميات تحترم حقوقها " (٣)

وفى الخاتمة يركز الشهابى على تعريف القومية العربية على الخصوص وتحديد كنهها فيقول :

" القومية العربية عقيدة قوامها ، من حيث الفكرة المثالية ، أمران :

الاول : الشعور والأيمان بأن الشعوب العربية فى جميع أقطارها أمة عربية واحدة ، وأن أوطان تلك الشعوب أجزاء من وطن كبير واحد هو وطن الأمة العربية .

والثانى : ارادة السعي لتحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لهذه الأمة . والعوامل الواقعية التى تقوم عليها القومية العربية ، أى بواعث ذلك الشعور وذلك الايمان وتلك الأرادة هي على الاخص :

١ــ الامير مصطفى الشهابى ، القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، ص ١٣ .
٢ــ المصدر السابق ، ص ص ١٧ ، ١٨ .
٣ــ = = = = ، ص ١٩ .

(١) الاشتراك فى اللغة العربية الفصحى .
(٢) والاشتراك فى التاريخ ، وأخص منه مآثر العرب وآثارهم فى العلم والثقافة والحضارة . (١)
(٣) والاشتراك فى المصالح السياسية والاقتصادية فى الحاضر وفى المستقبل .
" والقومية العربية لاترتكز على عامل العنصرية وان يكن معظم سكان البلاد العربية ينتمون الى سلالة بشرية واحدة هي السلالة العربية القديمة المسماة بالسلالة السامية .
" ولاترتكز على الدين وان يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين ، ففى القومية العربية : "العربي : من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربيا ، مهما يكن دينه ، ومهما تكن السلالة البشرية التى ينتمى اليها ." (٢)

جـ ـ فكرة القومية العربية فى محاضرات الدكتور محمد معروف الدواليبى

يتحدث الدواليبى وهو المتخصص فى أصول الفقه والدراسات الفقهية تحت عنوان عقده فى محاضراته التى صدرت له حديثا باسم "دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الانسانية" لناشرها الدكتور صلاح الدين المنجد فيقول الدواليبى :

"عناصر القومية

" اجتاز العرب فى السنوات الأخيرة مرحلة تاريخية من مراحل العروبة فتحركت فكرة القومية العربية فى كل مكان بعد غفوة طال أمدها ، وفترة اشتد علينا أثرها ، وبعد حين من الدهر أتى على العرب لم يعودوا فيه شيئا مذكورا "
" ولكن بالرغم من ذلك فأن فجر العروبة من جديد قد طلع وان شمسها عما قريب تؤذن بالأشراق فوجب علينا أن نجند لذلك أنفسنا فى كل مكان ، وان نحشد لها امكانياتنا على الدوام وان نطهر نفوسنا من عناصر الضعف ، وان نزيل منها جراثيم التردد ، وان نزودها بالأيمان الذى لايتزعزع ذلك الأيمان الذى تنهزم أمامه المكائد والشهوات وترسخ به أقدام العروبة ليكون أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء " . (٣)

---

١ ـ اذا يخرج الأسلام من مآثر العرب وآثارهم ، وقد أفصح الشهابى عن هذا بعد ثلاثة أسطر بقوله : " ولاترتكز على الدين وان يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين ... الخ .
٢ ـ الأمير مصطفى الشهابى ، القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها ، ص ٣٥٩ .
٣ ـ الدكتور محمد معروف الدواليبى ، دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الانسانية ، ص ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، وحكم الدواليبى بأن العرب قبل القومية فى حين من الدهر لم يعودوا فيه شيئا مذكورا غير مسلم ، فأن العرب كانوا ضمن الخلافة الأسلامية أرفع ذكرا منهم بعد الغائها بظهور القومية . والتى أصلها ثابت وفرعها فى السماء هي الكلمة الطيبة "لااله الا الله" التى ضربها الله مثلا أعلى وليست العروبة ولا أقدامها كما يريده الدواليبى .

والد واليبى في هذا يسير على نهج الحصرى أيضا كما سار الشهابى ، ويقول الد واليبى :
" لقد دعيت أثناء مروري بالقاهرة فى شهر كانون الثانى من سنة (١٩٥٠م) الى سماع محاضرة لصديقنا الكريم والمالم الجليل المرحوم الأمير مصطفى الشهابى ، وقد ألقاها فى جمعية الوحدة العربية فى القاهرة " (١)

ويذكر الد واليبى أنه شهد فى هذه المحاضرة عدم الاتفاق على مفهوم واحد "لمعنى القومية العربية لدى المؤمنين بها ، فضلا عن الجاحدين الكافرين " (٢)

قال الد واليبى : " وهذا ما استدعى بعد بضعة عشر يوما محاضرة أخرى لصديقنا العربى الكبير المرحوم أبى خلدون ساطع الحصرى فى نفس النادى ، وتساءل لماذا يختلف المفكرون فى هذه البلاد بوجه خاص ، وفى سائر أنحاء العالم العربي بوجه عام ، كل هذا الاختلاف فى مثل هذه المسائل الأساسية التى تمس كيان الامة وتتصل بصميم حياتها ؟ " (٣)

ثم ذكر الد واليبى أنه شهد اختلافا فى دمشق على اثر محاضرة لبعض الشباب القوميين فى معنى القومية العربية التى آمنوا بها لم يكن أقل مما شهده فى مصر ، ولكن الأهم لدى الد واليبى هو سؤال فتحي رضوان : من أنا ومن أنت؟" ، " وجهه ... فى محاضرة ألقاها فى نادى نقابة الصحفيين فى القاهرة عام ١٩٥٣م ونشرها فى جريدة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٩٥٣/٣/٢١م " (٤)

قال الد واليبى : " وهاكم خلاصة الأجوبة كما نقلها العربي الكبير أبو خلدون السيد ساطع الحصرى فى كتابه " العروبة أولا " (٥)

ثم استمر الد واليبي فى روايتها ، وأخيرا يختم ببيان " المفهوم البسيط للقومية " الذى ينبغى أن تستقر عليه مفاهيم المؤمنين بالقومية العربية حسبما يقرره كبارهم فيقول :

" وهي الرابطة بين أبناء هذا القوم " (وهي العروبة فى العرب) " وما العرب الا الذين وحدت بينهم اللغة العربية " ، " وما وحدة اللغة الا أثر من وحدة التاريخ " (٦)

١ــ المصدر السابق ، ص ٩٤ ،
٢ ــ = = = ، ص ٩٥ ،
٣ ــ = = = ، ص ٩٦ ،
٤ ــ = = = ، ص ٩٧ ،
٥ ــ = = = ، ص ٩٨ ،
٦ ــ = = = ، ص ١٠٣ ، ويلاحظ: أن اختلاف جميع المؤمنين بالقومية العربية على أساس العروبة فحسب ليس اختلافهم على وجوب الأيمان بها كمبدأ يعتقد ويلتزم وغاية يضحى فى سبيلها ويدعى اليها ، وانما اختلافهم على مفهوم العروبة ، ماهو؟ أكما يقول الألمان : انها اللغة ؟ أو كما يقول الفرنسيون: انها الأرادة؟ أوكما يقول غيرهم مما هو مشترك بين الأمة الا الدين فيرون أنه يفرق بين العرب فأسقطوه من حسابهم القومي . هذا جوهر اتفاقهم واختلافهم كله .

ويستعرض الدواليبي خلافات أوربا الدولية وآثارها في نظريات القومية وخاصة مابين الفرنسيين وبين الألمان وينقل عن الحصري فيقول : " ويقول الاستاذ ساطع الحصري في ذلك: وكان الالمان يقولون منذ أوائل القرن التاسع عشر ان أساس القومية ومعيارها الصحيح هو اللغة " (ولما) "كان القول بالنظرية الالمانية يحول دون تثبيت فرنسا لأطماعها ، ويعرض ما حققته من توسيع في أراضيها الى الأنفصال ... كان من مصلحة الفرنسيين أن يعارضوا نظرية اللغة بنظرية الأرادة ، وقالوا في ذلك: ان القومية ليست باللغة بل هي بالأرادة والمشيئة " (١)

ثم أخذ الدواليبي يناقش هذه النظريات وقد بدأ بنظرية الأرادة فقال : "ولو تقبلنا النظرية الفرنسية كما هي لجردنا معظم الأقطار العربية من قوميتها العربية ، لالسبب الا لان حكامها لايريدون ولايشاءون هذه الوحدة ، وكان من الخطأ الكبير أن نأخذ بما جنح اليه بعض أصدقائنا في هذا الموضوع وقال فيه :ان الأرادة فوق اللغة " ... ولهذا فالدواليبي يطرح "ومن غير تردد ، النظرية الفرنسية " وكما تركها من قبله الحصري ، ويقصي نظرية الدم ونظرية التقاليد والعادات، ويبطل نظرية وحدة الأرض ويحكم على نظرية المصالح المشتركة بأنها من أوهى النظريات أما وحدة الدين فيقول الدواليبي فيها : " ولعل من أهم النظريات التي يجب أن نقف عندها قليلا هي نظرية وحدة الدين واقامة القومية عليها ، ولهذه النظرية عندنا معشر العرب أهمية خاصة لما كان للأسلام من أثر عظيم في تاريخ وحدة العرب ، وفي تاريخ وحدة لغتهم ، وفي تضخيم قاعدة هرم العروبة في الأرض وفي السكان وفي بعثهم بعثا جديدا خالدا ، مما جعل الأسلام جزءا من تاريخ العروبة منذ البعث الأسلامي ، وهذا مما لاينكره أحد . غير أن هذا الأثر العظيم للاسلام في تاريخ العروبة لاينبغي له أن يخرجنا من موضوعنا وهو القومية ورابطتها ، الى الدين ورابطته ، ولاينبغي معه أن يلتبس علينا الأمر مابين دائرة القومية ، ومابين دائرة الدين ...

" فالعرب كانوا عربا في الجاهلية ولم يكونوا مسلمين ولا ينكر ذلك أحد من المتنافسين ، وكان العرب في الجملة حينذاك وثنيين ، ولم يكونوا بذلك غير عرب ، بل ولم تكن الوثنية شرطا لعروبتهم . بل كان في العرب منذ ذلك العهد الجاهلي :يهود ونصارى ، ولم يخرجوا بذلك عن عروبتهم لدى أحد من الباحثين. ...

" وبناء على هذه الوقائع الواضحة لايمكن أن نعتبر الدين بصورة مطلقة عنصرا أساسيا من عناصر القومية العربية " (٢)

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

٢ــ = = = من ص ١٠٦ ، الى ص ١١٤ . هكذا يقول الدواليبي وهكذا يرى أن أهمية الأسلام انما لما له من أثر عظيم في توسيع نطاق العروبة ، كما يرى الحصري وتقدم ذكره في ص ١٨ من هذا البحث ، ولذا حكم بأن الأسلام جزء من تاريخ العروبة فهي الأصل التي يريد أن تكون أقدامها ثابتة في الأرض وفرعها في السماء بدلا من الكلمة الطيبة التي ضربها الله مثلا وهي قول: "لااله الا الله " ، انظر ص ٢٠ من هذا البحث.

ثم يحدد الدواليبي بدقة المفهوم اللائق بالقومية العربية وبأسلوب تخصصه فيقول :

" ولعلنا في أسلوبنا وسلوكنا طريقة التقسيم والسبر في الاستدلال المعروفة عند علماء أصول الفقه ، أو طريقة الاطراح المعروفة عند العلماء اليوم ، أو طريقة حصر الأدلة ثم فحصها واحدة فواحدة ، وحذف غير الصالح منها أولا كما فعلنا ، يسهل علينا دفعة واحدة أن نقول الآن بالجملة : ان الابحاث العلمية ، والأحداث السياسية ، والوقائع التاريخية ، برهنت كلها على ان اللغة والتاريخ هما العنصران الاساسيان للقومية لدى كل أمة .

"ولكننا لابد لنا من استعراضهما استعراضا دقيقا وسريعا كما فعلنا من قبل في بقية النظريات التي طرحناها .

"اذا كانت الامة هي التي تجمعها قومية تشد أبناءها بعضهم الى بعض برابط الوحدة التي لاانفصام لها ، فان هذا الرابط لن يكون اذن من الروابط القائمة على الارادة التي قد تفصمها ارادة أخرى كما أشرنا اليه من قبل .

"بل ان هذا الرابط هو شيء آخر فوق الأرادة وأقوى منها ، وهو التاريخ الخلاق للجماعة ، ذلك التاريخ الذي بلغ من قوة فعله في تكوين الجماعة أن وحد لغتها ليوحد طريقة التعبير عن أفكارها ، وأن وحدة طريقة التعبير في الأفكار لدى الجماعة هي عنوان على وحدة الأفكار نفسها جملة فيما يتعلق بالنظرة الخاصة بهذه الجماعة الى الحياة التي تجمعهم في آلامها وآمالها ، واعظم بها من رابطة تعتبر الاساس الذي لامراء فيه في تكوين القومية واقامتها على وحدة اللغة . ونحن نرى من ذلك : أن وحدة اللغة ماهي الا أثر من وحدة التاريخ ، وماكل تاريخ اذن يستطيع أن يكون قومية ، ويوحد لغة ، ويوحد بين جماعة ، مالم يبلغ من القوة ما يوحد بها أولا فيما بين الجماعة في طريقة التعبير عن تفكيرها ، وبذلك توجد الوحدة في اللغة الى جانب الوحدة في التاريخ .

" وان الوحدة السياسية للجماعة قد تنفصل عن الوحدة اللغوية ، ويصبح لدينا في أمة من الامم كالعرب اليوم مثلا وحدات سياسية متعددة ضمن وحدة واحدة لغوية ، وذلك أثر لاشك فيه من آثار قوة القومية لا فقدانها ، لأن القومية الواحدة تظل في ذاتها موجودة مادامت اللغة قائمة فيما بين الجماعة ما ، ومادام اللغة فيما بين الجماعة الواحدة الا التعبير الصحيح عن وحدة الأفكار لديهم في الجملة فيما يتعلق بنظرتهم الخاصة الى الحياة التي تجمعهم كما قلنا في آلامها وآمالها ، وتلك جامعة لاانفصام لها ، وكذلك ماكان من صنع التاريخ وارادته فهو فوق

صنع الساسة ، وأقوى من ارادتهم ، (١) ولا بد للقومية من أن تهب يوما من رقادها ، ويومئذ تحدث أخبارها وتقول لك ان ربك أوحى لها (٢)

وفى الخاتمة يقول الدواليبي :

" ونستطيع+ الآن ، وعلى ضوء ما شرحنا واستعرضنا ، أن نقول فيما يتعلق بعناصر قوميتنا : انها اللغة العربية ، وتاريخ قومها ..

" وأن نقول أيضا على ضوء ذلك : ان العربي هو كل من يتكلم اللغة العربية ، ويكون كيانه حصيلة تاريخ قومها ، دون أن يحد من ذلك قطر ، أو تقف دونه ارادة شخص ، فمن مراكش الى العراق ، ومن السودان واليمن الى أقصى شبه الجزيرة فى شمالي الشام أمة عربية واحدة ذات قومية واحدة ، لانهم يتكلمون لغة واحدة ، ويجمع بينهم تاريخ واحد ، وآلام واحدة وآمال واحدة ، فهم جميعهم عرب شاءوا أم أبوا ، وما تنكر أحد لقوميته الا جاهلا فعلموه ، أو غافلا فأيقظوه ، أو عاقا فاقد الضمير فأدبوه . (٣)

---

١ ـ يصف الدواليبي فى تحديده لمفهوم القومية هنا التاريخ بأنه خلاق وله ارادة فوق الأرادة وبلغ من قوة فعله فى تكوين الجماعة أن وحد لغتها ليوحد طريقة التعبير عن أفكارها فكيف يصح هذا والتاريخ لايقوم بنفسه ؟ ثم ان لكل قوم تاريخ كما أنه لكل قوم ارادة والارادة قد تخصمها ارادة أخرى كما يقول الدواليبي ، أفليس كذلك التاريخ ؟ قد يفوقه تاريخ آخر؟ ثم يستدل الدواليبي بدوام اللغة فيما بين الجماعة الواحدة على أنه التعبير الصحيح عن وحدة الأفكار لديهم فى الجملة فيما يتعلق بنظرتهم الخاصة الى الحياة التى تجمعهم فى آلامها وآمالها . فهل دوام اللغة العربية وهي أفضل اللغات فيما بين العرب وكلهم عرب تعبير صحيح عن وحدة أفكارهم فيما يتعلق بنظرتهم الخاصة الى الحياة الدنيا التى جمعتهم فى آلامها وآمالها ، وهم مابين مؤمن بالله ورسوله والحياة الآخرة وبين كافر لايرى سوى الدنيا ؟ ، أين وحدة الافكار ولو فى الجملة بين مسلم وكافر؟ وكيف يصح وصف اللغة بأنها جامعة رابطة لانفصام لها وقد انفصم المتكلمون باللغة العربية الى خصمين اختصموا فى ربهم؟ وهذا شاهد من التاريخ فيما رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب المغازى باب قتل أبي جهل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال أنا أول من يجثوا بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة . وقال : فينا أنزلت هذه الاية : (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) . وهم الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلي وعبيدة أو أبوعبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة والوليد بن عتبة (٥/٦٣) وهؤلاء الستة ممثلي فريقين متفارقين ولغتهم واحدة وتاريخهم واحد ووطنهم واحد ، وشهد شاهد آخر حي معاصر من أهلها ذلك القتال الواقع بين العرب فى بيروت بؤرة القومية العربية فلم لم تمنعه اللغة والتاريخ والوطن المشتركة ؟ .

انما الذى لانفصام له : العروة الوثقى ، الكفر بالطاغوت والأيمان بالله . وليس اللغة ـ والخلاق الفعال لما يريد القوى الذى لاغالب له ولاحال لما ربط ولا رابط لماحل هو الله السميع العليم وليس التاريخ .

٢ ـ التى تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها هي الأرض اذا زلزلت زلزالها ، وليست القومية .

٣ ـ المصدر السابق من ص ١١٨ ، الى ص ١٢٠ .

د ـ فكرة القومية العربية فى مناهج التعليم بالمدارس الاولية

يمثل ذلك كتاب عنوانه : " القومية العربية " للصف الثالث الثانوى ومافى مستواه تأليف على عبد الله ، صلاح العرب عبد الجواد ، سمير باقى يوسف ، اشراف ومراجعة الدكتور صوفى حسن أبوطالب ، الدكتورة عائشة راتب ، حقوق الطبع محفوظة لوزارة التربية والتعليم المصرية وفى آعلا غلافه صدر بالكتابة التالية : جمهورية مصر العربية ، وزارة التربية والتعليم ، الفلسفة والتربية القومية ، وشعار الجمهورية المصرية ، وفى قائمة المراجع ذكروا : ساطع الحصرى من مراجعهم ، وطبع بمطابع دار الهلال بالقاهرة عام (١٩٧٤م) وبعدد (٣١٥٠٠) نسخة ، وأودع بدار الكتب برقم ١٩٣٤/٤٩٢٤ .

وفى مقدمة هذا الكتاب يقول المؤلفون :

" نقدم كتابنا هذا عن القومية العربية الى أبنائنا من طلبة الثانوية العامة ومافى مستواها ، لنتيح لهم أن يشيدوا صرح ايمانهم بالأيديولوجية العربية على نسيج من المفاهيم الاساسية اللصيقة بظاهرة القومية ، وأن يبلغوا من وعيهم بهذه المفاهيم الى مستوى العقيدة المستبصرة آننا نتقدم الى الطالب العربي بأفكار موجزة عن القومية فى النطاق العلمي البحت ، وقد حرصنا فى عرض المعلومات على ابراز الجوانب النظرية والافكار الفلسفية التى استندت اليها الحركات القومية " (١)

ويعرفون القومية بأنها رابطة تربط الأنسان بكائن هو الأمة يتحد أفراده فى اللغة والتاريخ والأقليم ويقولون عن هذه الثلاثة أنها تكون الأمة ، وهذا نص قولهم :

"فوحدة الأقليم هي العلامة المميزة للأمة عن القبيلة ، والبيئة لها أثرها الواضح فى تكوين عادات وسلوك وأخلاق السكان بل الصفات الجسمانية لها أيضا .

"ووحدة اللغة تمثل روح الأمة وكيانها وتكشف عن طباعها وعاداتها وطرق تفكيرها ، فضلا عن وحدة الثقافة .

"ووحدة التاريخ تؤدى الى وحدة المشاعر ، ووحدة الآلام والآمال ، ثم وحدة المصير .

" هذه العناصر الثلاثة تتضافر فى خلق الكيان الذاتى للجماعة ، مما يظهر أفرادها فى وحدة نفسية متميزة ، ويخلق فيهم الشعور بأنهم أبناء أمة واحدة ." (٢)

وقد أوضحوا مظاهر هذا الشعور فقالوا :

" للشعور القومي عدة مظاهر يمكن التعرف عليها كالتفاخر بفضائل الأمة والتنديد بمساوئ أعدائها ، والتباهي بما أسهمت به الأمة فى تطور حضارة البشرية ، وتخليد أعمال الأبطال والموهوبين من أبنائها وتفضيل ماهو قومي عما عداه ، والتحيز لابناء الامة ضد الأجانب عنها

---

١ ـ القومية العربية ، للصف الثالث الثانوى ومافى مستواه ، تأليف : علي عبد الله وزملائه ، ص٣ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ وانظر من ص ١٤ ، الى ص ١٧ .

والولاء التام لكل القضايا القومية والتضحية فى سبيلها بصرف النظر عن مطابقتها أو مخالفتها للمصالح الفردية أو الطبقية أو المحلية أوالأقليمية " (١)

وقالوا عن أصول القومية الفكرية :

" استمدت القومية بمفهومها السياسي أصولها الفكرية من كتابات المفكرين ذوى النزعة الأنسانية التى طغت على الفكر الأوربي فى القرنين السابع عشروالثامن عشر ...

"أهم هذه التيارات الفكرية تتمثل فى فكرتين أساسيتين هما : القانون الطبيعى ، والعقد الاجتماعي ...

"فكرة القانون الطبيعى من نتاج الفلسفة الأغريقية الرومانية ...

" هذا القانون أوجدته الطبيعة .....

"هذا القانون يمنح الانسان مجموعة من الحقوق تثبتله وهو فى حالته الطبيعية ...

" ومبادئ القانون الطبيعى هي التى تحدد أيضا العلاقة بين الدول بعضها بالبعض الآخر ...

"ومضمون نظرية التعاقد أن انضمام الأنسان الى جماعة بشرية معينة يقوم على الأرادة والاختيار فهو قبل انضمامه كان يعيش متمتعا بحقوق منحته اياها الطبيعة . ثم وجد أنه من مصلحته أن يعيش مع غيره من بنى جنسه فيتكون منهم اتحاد له كيانه الذاتى بالنسبة لغيره من الجماعات البشرية الأخرى "

" أسهمت النظريتان فى نشر الوعي القومي وابراز المقومات الذاتية للشعوب ، وأصبحتا عماد الحركة القومية خلال القرن التاسع عشر " (٢)

ويقررون أول تطبيق عملي للمبدأ القومي فيقولون :

"تعتبر الثورة الفرنسية أول تطبيق عملي للمبدأ القومي ولذلك يعتبر قيامها بداية ظهور المبدأ القومي الى حيز الوجود .

" وقد قامت الثورة عام (١٧٨٩م) على أساس المبادئ الفكرية والفلسفية ذات الصبغة الأنسانية التى سادت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر والتى أدت الى ظهور الفلسفة والمذهب الفردى ولذلك ارتبطت القومية بالديمقراطية بل تلازمت الفكرتان ، فالثورة الفرنسية مزجت بين ثلاثة مبادئ يكمل بعضها البعض الآخر وهي :

١ــ المصدر السابق ، ص٣١ .

٢ــ = = = ، ص ص ٣٦ــ٤٢ . وهذه الصفات المنسوبة للطبيعة من ايجاد وعطاء وتكوين انما هي من خصائص الله وحده ، أما الطبيعة فلها طابع وهي مخلوقة محتاجة .

١ ــ الحكم الشعبى ، حيث الأمة مصدر السلطات وصاحبة السيادة وليس الحكام .
٢ ــ تقرير الحرية والمساواة بين الفرنسيين جميعا .
٣ ــ اعتبار الدولة أداة لحماية النشاط الفردى وعدم جواز تدخلها فى المجال الاقتصادى .
وهذه الفلسفة هي ملخصها شعارا لثورة الثلاثي : الحرية ــ المساواة ــ الأخاء . (١)

وقالوا عن تأثر القومية بالرومانسية :

" دخلت الشعوب فى صراع مرير ضد ملوكها وأمرائها انتهى بقيام عدة ثورات عام (١٨٤٨م) فى أوربا تهدف الى تحقيق الوحدة القومية ، وصارت الدولة القومية هي المثل الأعلى ...

" اعتمدت (هذه الثورات) الى حد كبير على أفكار الحركة الرومانسية التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر واشتد ساعدها فى القرن التاسع عشر

" ظهرت هذه الحركة (الرومانسية) فى صورة حركة أدبية وفكرية وفنية ، ثم اتخذت طابعا سياسيا ذا اتجاهات متعددة ، منها اتجاه يهاجم الديمقراطية السياسية ويمجد المذاهب الجماعية مما أدى الى عبادة الدولة والتضحية بالفرد فى سبيلها ويهتم بماضى الأمة وتراثها بقصد ابراز شخصية الأمة وعراقتها .

والرومانسية ــ وتسمى أيضا الابتداعية ــ ساهمت فى نمو الروح القومية ووجهتها وجهة جماعية وجعلت الغلبة فى الطابع القومي لماضى الأمة وأمجادها . فهي كحركة أدبية ركزت اهتمامها على الرجل العادى والأشياء المادية ، فاتجهت الى دراسة الأدب الشعبى والأساطير والموسيقى الشعبية بما يظهر خصائص كل شعب . وتأثرت المشاعر القومية بهذا الاتجاه فأخذت طابعا ثقافيا فى المقام الاول . فأبرز دعاة القومية الطابع الثقافي لكل أمة ، وعمقوا هذا الفهم بتسجيل التاريخ القومي الخاص بها بقصد اظهار شخصيتها وعراقتها .

وكان من أهم آثار هذا الاتجاه أن القوميين اتخذوا من ماضى الأمة مثلا أعلى يحتذونه فى مستقبل حياتهم . وتعتبر القومية الألمانية وحركة القومية الايطالية تطبيقا عمليا للرومانسية فى المجال القومي . " (٢)

وعن القومية العربية قالوا :

" مبدأ الوحدة العربية التى تنادى به القومية العربية هو تطبيق للأفكار القومية التى سادت أوربا ولكنه يتفق مع تاريخ الحضارة العربية . (٣)

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ، ص ٥٢ ، ٥٣ .
٢ ــ = = = ، ص ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
٣ ــ = = = ، ص ١١٢ .

تزعم المثقفون ـ الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الأوربية ـ الحركة القومية ، فنشروا الأفكار القومية بين الناس .

" وكان أكثر أنصار فكرة الوحدة العربية فى الشام ، حيث توجد أقلية مسيحية نشطة وقوية تشربت الثقافة الاوربية والعربية فى مدارس الارساليات " (١)

أما عن الأسلام وصلة القومية العربية به ، فيرى المؤلفون : أن الأسلام كتاريخ وحضارة هو عربي ولأنه مازال يمثل الجانب الثقافي والروحي للأمة العربية فهو ركن أساسي فى القومية العربية وليس شرطا للأنتماء اليها باجماع القوميين لأن من العرب المسيحي (النصراني) والوثني واليهودى ويقولون ماخلاصته :

ان الأسلام دين الأكثرية من العرب لكن منهم المسيحيين ومنهم اليهود ومنهم الوثنيين ، والجدل حتى الان يثور حول الأسلام والقومية ، فبعضهم يقول : ان الاسلام من تاريخ العرب ، والتاريخ العربي مشترك بين الجميع فهو من مقومات القومية العربية ، وهوكتاريخ ركن أساسي ، وهو الذى خلق الأمة العربية (٢) وهو دين ودولة لكن المقصود بالاسلام هو الجانب الحضارى التاريخي منه وليس الجانب الدينى لان أمور الحياة الدنيا أي الدولة وهي حركة سياسية من خصوص جميع العرب ، أما الجانب الديني فيقصد به العبادات وهي تخص المسلمين وحدهم (٣) ولذا فأن اعتناق الأسلام ليس شرطا فى الانتماء الى القومية العربية ، وان قيل انه ركن أساسي فيها فذلك على اعتبار أنه جزء من تاريخ العرب .

وبعضهم الآخر فهو يذهب الى استبعاد الأسلام من القومية العربية ، اما لأنه يصفه بأنه أفيون الشعوب ، واما لأنه يرى ضرورة فصل الاسلام عن القومية كما فعلت أوربا . (٤)

وأخيرا يقررون : " ضرورة الوحدة العربية " لانها كما يزعمون : " حقيقة اجتماعية " ، " تستجيب لدواعي القومية من ناحية ، وتتمشى مع ظروف العصر من ناحية ثانية " ، " ضرورة اقتصادية تفرض نفسها على الدول العربية جميعها " . ، " ضرورة سياسية " ، " ضرورة ثقافية وعلمية ، " هي الأطار المناسب لتحقيق التقدم وملاحقة الركب العلمي واتاحة الفرصة أمام العقول العربية لصقل الحضارة العربية وتطويرها " ، " هي السبيل الوحيد أمام العرب للحاق بركب الحضارة والتقدم وتبوء المكانة الدولية اللائقة بتاريخهم المجيد " (٥)

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

٢ ـ هكذا يقولون نبينا الخالق هو الله وحده .

٣ ـ ليس للأسلام الطوعي مجال سوى أمور الحياة الدنيا فأذا انتهت لاينفع نفسا ايمانها ، وانما فى الآخرة جزاء ما عمل فى الدنيا ، والأسلام شامل لجميع أمور الحياة الدنيا ، وأمر من الله لايسع أى حكومة وشعب أو شخص أن يخرج عنه على الأطلاق . ، لايسعهم يوم القيامة خروجهم عنه فى الدنيا .

٤ ـ المصدر السابق ، انظر : من ص ١٢٨ ، الى ص ١٣٩ .

٥ ـ = = = = ، انظر : من ص ١٩٦ ، الى ص ٢٠٦ . والمجيد لايسمى به الا الله .

هـ ـ فكرة القومية العربية فيما ينشر للعامة من ثقافة أدبية

فى مجلة العربي الشهيرة كتب صاحبها الدكتور أحمد زكي فى أول عدد منها يقول:

" والمجلة العربي " لاتصل معنى العروبة بدين ، فكل الناس عباد الله وكل سالك اليه سبيلا ، والسبل اختلفت والغاية واحدة ، والحي يسعى لتأمين الحياة ، وبالدين هو يسعى لتأمين مابعد الحياة ، والتجربة الأنسانية عبر القرون الدامية دلت على أن الدين ـ وهو سبيل الناس لتأمين مابعد الحياة ـ ذهب بأمن الحياة ذاتها ، فلم يبق عاقل مفكر ، يتمسك بحرية الفكر التى هي هبة من هبات الله الايقول : دعوا الناس لتسلك الى الله أى طريق تشاء ، وحتى غير السالك عليه وحده تبعة أنه لايسلك ، لاعلى الناس" (١)

ويقول عبد الله التل بعد أن أورد هذا النص عن افتتاحية أول عدد من مجلة العربي لديسمبر سنة ١٩٥٨م :

" وحين وجهت للدكتور بعض الملاحظات عن هذا الكلام العجيب يصدر عن أستاذ جليل وعالم نحرير ، رد فى افتتاحية العدد الثانى بمايزيد الطين بلة فقال :

" وأما سلوك أهل الأديان جميعا لنصرة أديانهم عبر القرون فقد كان وبالا على الأنسانية ذهب بسلام الحياة ذاتها ... " (٢)

وواضح من كلام أحمد زكي هذا عدم الأيمان بالحياة الأخرى بعد الموت . وكلامه كلام قومي عربي يتحدث عن القومية العربية ويصدر لها مجلته التى يسميها " العربي " وقد جاء فيها فى عدد يناير ١٩٥٩م هذا القول :

" والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين " .

وتنشر مجلة العربى للدكتور محمد أحمد خلف الله قوله تحت عنوان " القومية العربية كما ينبغى أن نفهمها " :

" ان الساسة اليوم ينادون بالقومية العربية ، وتحقيق الوحدة العربية أقرب منالا من تحقيق الوحدة الأسلامية ، ان مصلحتنا اليوم فى تحقيق هذا الهدف القريب ، ثم ان الفكرة العربية أكثر انتشارا وأوسع نفوذا من الفكرة الأسلامية انها تشمل سكان العالم العربى جميعا ، أما الأسلام فلا يشمل هؤلاء السكان ، لقد تعرب سكان هذه البلدان أجمعين ولم يسلموا أجمعين انه لايزال منهم النصارى ولايزال منهم اليهود " (٣)

وسائر ماتنشره مجلة "العربي "على الناس معروف لايخرج عن اطار الفكرة القومية المعاصرة ،

---

١ ـ نقلا عن أبى الحسن الندوى من كتابه : العرب وما والأسلام ، ص٦ .
٢ ـ عبد الله التل ، جذور البلاء ، قسم١ ، ص٢٦٢ .
٣ ـ نقلا عن أبى الحسن الندوى من كتابه : العرب ... والأسلام ، ص٣ .

ويقول الكاتب المشهور محمود تيمور في مجلة العالم العربي في عدد (١٧١) تحت عنوان:
النثر والقومية العربية:

"لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ... ان القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي. ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة. وأن كتاب العرب في أعناقهم أمانة هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار" (١)

ويقول علي ناصر الدين في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه: "قضية العرب":

"القضية العربية لن تكون أبدا عند الحربي المؤمن الحر العاقل الشريف الصالح الخير الأبي المترفع الا قضية ايمان، ايمان بالوطن للوطن، كقضية الأيمان بالله لله ليس غير"

ويتكلم عن مهمة قضية العرب وأهدافها فيقول:

"وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم وكل عصبية الا العصبية القومية، وتفصل الدين عن السياسة، وتحرم على رجال الدين الاشتغال بها، وتعلم العربي أينما كان أن يتعصب بعنف لأمرين: قوميته والحق"

وفي شرحه لمعنى العروبة يقول:

"العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العربقين من مسلمين ومسيحيين لأنها وجدت قبل الأسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها الى أسمى ما في هذه الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات" (٢)

وعن محمد المبارك في كتابه "الامة العربية في معركة تحقيق الذات": أن عمر الفاخوري قديما قال في كتاب له سماه: "كيف ينهض العرب؟" ما نصه:

"لاينهض العرب الا اذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم والمسيحيون والكاثوليك على انجيل المسيح الرحيم والبروتستانت على تعاليم لوثر الأصلاحية، وثوريو فرانسا في عهد الرعب على مبادئ روسو الديمقراطية، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك" (٣)

---

١ ـ نقلا عن أبي الحسن الندوي، من كتابه: "العرب ... والاسلام"، ص٣ في الهامش

٢ ـ المصدر السابق، ص، ص ٢، ٣.

٣ ـ راجعت الأستاذ محمد المبارك فأقر ثبوت النص في كتابه ونسبته الى صاحبه.

وفى كتاب ينشر للمواطنين بعنوان : " القومية العربية " تأليف الدكتور أبو الفتوح رضوان وذكر مؤلفات للحصرى من مزاجمه ، يقول أبو الفتوح فى مقدمته :

" اذا عددنا القوى التى يزخر بها العالم فى عصرنا هذا وتؤثر فيه وتوجه سياسته وتشكل أحداث تاريخه فأن القومية العربية تأتي فى مقدمة هذه القوى .

" وليست القومية العربية قوة أى قوة ، ولكنها قوة هائلة أصبح يحسب لها ألف حساب ...

" فقد ركع الاستعمار أمام قوة القومية العربية . ركع أكثر من مرة ...

" ومع ذلك فأذا كانت القومية العربية واضحة من حيث هي قوة ، فأنها ليست بهذ الوضوح من حيث هي فكرة . واذا كانت جياشة من حيث هي عاطفة ، فأنها أقل سيطرة من حيث هي معنى . واذا كان مسلما بها من حيث هي ماضية فأنها موضع نقاش من حيث هي حاضر . واذا كانت مرئية من حيث هي وجود عام فأنها خافية من حيث هي تفاصيل . واذا كانت حقيقة ثابتة عند أصحاب الوعي ، فأنها مرض فى قلوب أصحاب المصالح "

"ولقد تقدمت ثورة ٢٣ /يوليو / سنة ١٩٥٢م الصف العربي وقادته فى معركة نضال القومية العربية فكريا ضد المفاهيم الخاطئة ، وماديا ضد الاستعمار وعملائه . وكسبت هذه الثورة تلك المعارك للقومية العربية ، حتى علت كلمتها ، وتقررت حقيقتها ، وأصبحت من أهم معالم العصر التى يتأثر بها ويعيش المواطن العربى .

" ومن أجل هذا كله حق على هذا المواطن أن يدرس القومية العربية ، ليعرف أسسها وحقيقتها والقوى المؤثرة فيها وما تتعرض له من جانب الأصدقاء والأعداء على السواء حتى تصح أفكاره عنها وتثبت عواطفه نحوها .

"وهذا كتاب وضعناه فى القومية العربية جلوناها فيه على حقيقتها ، مرتبطة بأصولها ، قائمة على مقوماتها الفكرية والمادية ، مقترنة بفلسفتها ، مشيرة الى نتائجها الحتمية " (١)

ويتحدث أبو الفتوح عن مفهوم القومية العربية فيقول : ان مفهومها لم يكن واحدا وقد ضعف أو اختلط بغيره ومع ذلك "فأن العرب دائما يعودون الى الأحساس بها ... وأمام المحن والكوارث التى كانت تثبتلهم دائما أن موئلهم الوحيد هو القومية العربية للتخلص من كل محنة وكارثة "

ويجعل أبو الفتوح لتطور مفهوم القومية العربية أربع مراحل :

١ـ "مرحلة العروبة": "من ظهور الاسلام الى سيطرة الاستعمار العثمانى (عام ١٥١٧م) . "

"لما ظهر الأسلام ووحد النبى صلى الله عليه وسلم الجزيرة العربية ووحد العرب تحت راية العروبة ... بدأ العرب يشعرون بكيانهم كأمة واحدة ...

"ولقد وجههم الاسلام نحو هذه الغاية الواضحة وفرض عليهم الشعور بوحدة العروبة والسير تحت

١ـ أبو الفتوح رضوان ، القومية العربية ، تقديم ، ص ج ، د ، هـ .

رايتها ".

ويستدل على هذا بآيات من القرآن الكريم لاتدل له وهي قوله الله تعالى :"ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) الآية: ١٢٠ من سورة التوبة ، وقوله تعالى : (سيقول لك المخلفون من الأعراب) الآية : ١١ من سورة الفتح ، وقوله تعالى : (قل للمخلفين من الأعراب) الآية: ١٦ من سورة الفتح ، وقوله تعالى : (انا أنزلناه قرآناعربيا) الآية: ٢ ، من سورة يوسف ، وقوله تعالى : (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) الآية: ٣٧ من سورة الرعد ، وقوله تعالى : (انا جعلناه قرآنا عربيا) الاية: ٣ ، .

ويقول أبو الفتوح : " فعندما خرج العرب للفتح خرجوا كأمة عربية تحارب أقواما من الفرس والروم "كانوا يشعرون شعورا قويا برابطة الدم العربي الذى كان يربطهم بأهل البلاد المفتوحة التى كان يحتلها الروم والفرس" (١)

ثم يقول :

" المرحلة الثانية : الجامعة الأسلامية

" تغير مفهوم القومية العربية تحت الحكم العثمانى فتنازل العرب عن عروبتهم حين استكانوا الى أن يكونوا جزءا من دولة اسلامية كبيرة هي الدولة العثمانية " (٢)

"وبذلك تحول مفهوم قوميتهم العربية عندهم الى شيء آخر كلية هو الجامعة الاسلامية . وكلها أوهام تردى فيها العرب بعامل الغفلة والجهل " (٣)

" وهكذا غلبت الفكرة الأسلامية على فكرة العروبة حتى عند العرب أنفسهم تحت ضغط التهديد الاستعمارى ...

"وأسهم العرب مع الأتراك فى اسقاط عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩م وكان سقوطه آخر مراحل الخلط بين القومية العربية وبين فكرة الجامعة الأسلامية " (٤)

ثم يقول :

"المرحلة الثالثة : العودة الى المفهوم العربى للقومية العربية :

١ــ المصدر السابق، ص٣٣٦. والملاحظ أن الدكتور أبا الفتوح رضوان لم يذكر غزوات بدر وأحد والأحزاب والفتح وحنين وهي من أكبر المعارك العربية على حد تسميته لهذه المرحلة لان هذه المعارك [illegible] تنقض تأسيسه وتبطل دعواه : [illegible] أن الأسلام وجههم نحو القومية العربية وفرض الشعور بوحدة العروبة عليهم والسير تحت رايتها . ولو كان الأمر كما يدعي لما وقعت هذه المعارك بينهم وهم عرب لم يخرج واحد منهم عن العروبة.

٢ــ المصدر السابق، ص ، ص ٣٤٠، ٣٤٢ .

٣ــ = = = ، ص ٣٤٤.

٤ــ = = = ، ص ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠.

ويشيد أبو الفتوح بالذين أحيوا هذا المفهوم فى سوريا فيقول :

" وكانت سوريا هي مهد الحركة القومية العربية بمفهومها العربى ، وقد ظهر فيها هذا الاتجاه من سنة ١٨٥٧م حين تأسست الجمعية العلمية السورية ... وقد اتخذت ... شكلا أدبيا ...

" وانتقلت الحركة من الأدب الى العمل السياسي عند ماقامت جمعية سرية فى بيروت .. (١)

" وظهرت الجمعيات العربية التى نسجت سياستها من خيوط العروبة النقيـة "

ثم أخذ أبو الفتوح يتحدث عنها : اللامركزية ، والقحطانية أو العهد ، والعربية الفتاة ، ويقول : انه بواسطة هذه الجمعيات " انجابت الغشاوة عن أعين العرب" (٢)

وسيأتي ذكر هذه الجمعيات فى دورى اليهود والنصارى فى مكانها أن شاء الله تعالى . وكذلك مايشيد به أبو الفتوح بقوله :

"واستجابة لهذا المفهوم العربى للقومية العربية تحالف العرب مع الدول الاستعمارية ضد الدولة العثمانية فى ابان الحرب العالمية الاولى ، وهذا يتضح من محادثات الشريف حسين مع مكماهون المندوب السامي البريطانى فى مصر (١٩١٥م ـ ١٩١٦م) . كما يتضح من اتصال الجمعيات العربية الوطنية فى بلاد الشام بجورج بيكو قنصل فرنسا فى بيروت ، ومن اتصال حزب اللامركزية بكتشنر المعتمد البريطانى بالقاهرة "(٣)

والمرحلة الرابعة عند أبى الفتوح ،هي : بعد ثورة مصر فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م ومن نصوص كلامه قوله :

"فالقومية العربية هنا فى فلسفة الثورة غاية فى حد ذاتها ، ...

" أتى جمال عبد الناصر فمذهب القومية العربية ووضع أصولها الفكرية وعمق مفهومها وجعلها نظاما متكاملا من الفكر ، وأحالها بكل ماصنع الى عقائدية واضحة " (٤)

ويتنبأ أبو الفتوح لمستقبل القومية العربية فيقول :انها " مضمونة المستقبل " ، " ضرورية للعرب لان لها وظيفة أساسية فى حياتهم " ، " ضرورة من ضرورات المعيشة فى العالم المعاصر "

" فالمستقبل للقومية العربية لأنها حتمية تاريخية كما قلنا ولابد للعملية التاريخية من أن تتم " (٥)

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ، ص ٣٥١ ، ٣٥٣ .

٢ ـ = = = ، ص ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

٣ ـ = = = ، ص ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

٤ ـ = = = ، ص ، ص ٣٦٧ ، ٣٧٣ .

٥ ـ = = = ، صفحات: ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

الفصـــل الثـاني

دور اليهود في نشوء فكرة القومية ... وأهدافهم

يوجب الفصل الرابع من الرسالة الرابعة من التلمود الذي يسمى سنهدرين على اليهود اقامة مجمع قومي عظيم يسمى سنهدرين .

والفصل العاشر من نفس الرسالة يسمى العقاب ويتضمن وسائل العقاب والردع ضد اليهـــود الخارجين على السنهدرين .

ويقول اسرائيل ابرهامز :

"بقي اليهود بسبب التلمود بينما بقي التلمود في اليهودي".(١)

ويقول ابرهامز أيضا :

"لقد أجمع يهود العالم على أن قوميتنا اليهودية المشتركة لن يكتسحها قصيرو النظر المتعصبون من دعـاة الوطنية المحلية . فجميعنا اذن صهيونيون بحكم أن الصهيونية هي التي تقوي فينا روح التضامن وتشعرنا بقوميتنا اليهودية المشتركة" . (٢)

ويقول برنارد لويس وهو يهودي ورئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن ومتخصص في مفاهيم الامم والقوميات(٣) :

"وهناك قومية من نوع آخر ... وهي القومية اليهودية وهي احدى العناصر التي أسهمت في نمو الحـركة السياسية الصهيونية ، ووعي اليهود لرابطتهم الذاتية مثل وعي العرب لذاتهم قديم قدم وجودهم ، وهذا الوعي مثل وعي العرب أيضا مر بمراحل القبلية العرقية والثقافية ، وتبلور بشكله المتميز الدائم على صعيده الديني . (٤)

١ــ نقلا عن ظفر خان من كتابه : التلمود ، ص ، ص ٢٩ ، ٣٤ .

٢ ــ نقلا عن عبد الله التل من كتابه : جذور البلاء ، ص١٤٢ .

٣ ــ انظر النص على يهوديته في كتاب الأستاذ ماجد كيلاني ، الخطر الصهيوني على العالم الاسلامي ، ص ٧١ ، وفي بحث من اعداد الشيخ أحمد صالح محايري في المجلد الخامس من بحوث مؤتمر توجيه الدعوة واعداد الدعاة العالمي المنعقد في الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة (٢٤ــ ٢٩/ ٢/ ١٣٩٧هـ ، ص ١٤ . وسألت الدكتور ناصر بن سعد الرشيد : هل برنارد لويس يهودي ؟ فقال نعم ، على ما هو مشهور عنه "ــ

٤ ــ برنارد لويس ، العرب والشرق الأوسط ، تعريب الدكتور نبيل صبحي ، ص ١٣٧ .

" ولقد بدأت حركة القومية اليهودية فى وسط وشرق أوربا حيث كانت تميز الأقلية اليهودية المحافظة منعزلة لم تتمثلها المجتمعات الأوربية فلم تذب هذه الاقلية فيها .

" وكان لهذه الأقلية جميع متطلبات الدولة القومية عدا شيئين :

(١) اللغة القومية الواحدة .

(٢) الأرض القومية الواحدة .

فكانت حركتا البعث العبرى والصهيونية تهدفان الى تأمين هذين الشيئين المفقودين .

" واليهود شعب قادر على استنباط الأشياء الجديدة ، ولقد شهد لهم بذلك أصدقاؤهم وأعداؤهم على السواء فهم الذين اخترعوا الرأسمالية والشيوعية ، ولقد قال البعض أنهم هم جاءوا بالمسيحية والاسلام . (١)

" ثم تركزت الأحلام الصهيونية على شيئين بصورة خاصة : على اللغة العبرية .. وعلى فلسطين أى على لغة لم يكونوا يتكلمون بها وعلى أرض لم يكونوا يعيشون فيها ، ومع ذلك كان الشيئان بالنسبة لهم لغة مقدسة وأرضا مقدسة . فلقد قدست اللغة العبرية بالتوراة وقدست الأرض بظهور اليهودية فيها .

" وليس مهما بالنسبة لاسرائيل وجود القومية العلمانية . أى ليس مهما أن يكون رعاياها علمانيين أو حتى ملحدين ...

ومن يدرى فقد تتحول اسرائيل ـ اذا قدر لها أن تعيش ـ الى مجتمع علماني طبيعي " (٢)

من هذه النقولات عن يهود يتضح أن القومية من هدى اليهود اتخذوها كوسيلة للنهوض من واقعهم الأسوأ فى الأنحطاط والتمزق والكراهية ، وليس عندهم ما هو أحسن من القومية . فكانت الصهيونية مفيدة لهم بل منقذا لهم مما هم فيه لأنها دعوة لتجمعهم حول جبل صهيون بفلسطين التى يرون جميعا أنها أرض الميعاد فاذا احتلوها فهو بداية قيام دولتهم وتسلطهم على العالم حتى غيرهم من غير المسلمين يساعدهم على هجرتهم الى فلسطين وعلى اقامة دولة لهم فيها .. ودخل فى الصهيونية من ليس من اليهود لمصلحة اليهود .

وليس خافيا على شياطين اليهود امكان استغلال فكرة القومية لتقويض دول غيرهم وتجزئتها ، وأن فكرة القومية ما صلحت لهم الا وسيلة للتخلص من تمزقهم فى الأرض وما يتبعه من ذل . أما دولة قوية عزيزة جمعت أقواما عديدة فى وحدة متينة على أساس الدين وحده فأن فكرة القومية تشتت وحدتها وتمزق قوتها بذهاب كل قوم بقوميتهم وبهذه الفرقة يسهل على اليهود احتواؤهم وضرب بعضهم ببعض أى جعلهم شيعا يذيق بعضهم بأس بعض ، ولذلك كان لليهود دور كبير فى تفتيت وحدة الدولة العثمانية بنشر الافكار القومية بدلا من الفكرة

---

١ ، ٢ ـ برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، تعريب الدكتور نبيل صبحي ، ص ـ ص ١٣٧ ـ ١٤١ .

الاسلامية الواحدة النابعة من كلمة (لااله الا الله) ، وتمديد الولاءات للقوميات بدلا من توحيدها ولاءا واحدا للأسلام وللقائمين عليه .

واليهود ينظرون الى الدولة العثمانية منذ تأسيسها الى زمن سقوطها أنها حامية الأسلام وناشرته فها هو ذا برنارد لويس اليهودي الغربي يتحدث عن تاريخها فيقول :

" كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها في سبيل تقدم شوكة الأسلام وحمايته ضد اعتداء خارجي وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون تقريبا في حرب مستمرة ضد الغرب المسيحي ، أولا لمحاولة فرض حكم اسلامي على جزء كبير من أوربا ، وهي محاولة رافقها النجاح . وثانيا : لشن حرب دفاعية تأخيرية مديدة تقف في وجه الهجوم المعاكس الذي قام به الغرب. وكانت الامبراطورية العثمانية في نظر الرجل العثماني التركي بمثابة الأسلام ذاته . وفي التواريخ العثمانية ، وعند ما يتكلم المؤرخون عن ولايات الامبراطورية يشيرون اليها بقولهم انها دار اسلام ، وعند ما يذكرون جيوشها يقولون عنها انها جيوش الاسلام ، ورئيسها الديني " شيخ الاسلام " ، وكانت الشعوب التي تتألف منها الأمبراطورية العثمانية تعتبر ذاتها أولا وآخرا شعوبا اسلامية ، وكانت لفظة عثمانية تعني اسم السلالة المالكة . ولم تصطبغ لفظة عثمانية بصبغة قومية ذات مدلول قومي الافي القرن التاسع عشر ، وذلك تحت تأثير الفكرة الليبرالية الأوربية " (١)

نعم " لم تصطبغ لفظة عثمانية بصبغة قومية ذات مدلول قومي الا في القرن التاسع عشر وذلك تحت تأثير الفكرة الليبرالية الأوربية " ، هذه الفكرة الليبرالية الأوربية هي التي غزا بها اليهود وأعوانهم عقول العثمانيين فأخرجوهم عن الشريعة الربانية وتطبيقها الى القوانين (العلمانية) الألحادية تدريجيا حتى تهيأ مسلك أدمغتهم بلوثة :(الفكرة الليبراليةا لأوربية) عند ذلك نبتت فيها فكرة القوميات واستيقضت فيهم روح الفرقة والفشل لأنهم في غمرة وغيبوبة عن وحدتهم القوية بالأسلام وعن الأسلام ذاته وهو مبرر وجودهم وعظمتهم وعزهم وفضلهم على العالمين .

وعن طريق اليهود تم دخول الفكرة الليبرالية الأوربية والعلمانية الغربية والألحادية في الامبراطورية العثمانية الخلافة الأسلامية ، ذلك أنه ديدن اليهود منذ انبثق نور الأسلام كما قال الله تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (المائدة ٨٢) ولأن الأسلام صلاح واليهود انما يسعون في الأرض فسادا كما قال الله تعالى : (ويسعون في الأرض فسادا) (المائدة :٦٤) . ولقد حاولوا فتنة الرسول صلى الله وسلم عن بعض

١ــ نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، ص ٢٨ .

مـا أنزل الله اليه فحذره الله تعالى بقوله : (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض مـا أنزل الله اليك) (المـائدة : ٤٩) . قال ابن كثير في تفسيره : " أي واحذره أعـداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه اليك من الأمـور فلا تغتر بهم فانهم كذبة كفرة خونة . . .

"وقال محمد بن اسحاق (وساق سنده) عن ابن عباس قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله ابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يامحمد انك قد عرفت انا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وانا ان اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وان بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل فيهم (وان احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض مـا أنزل الله اليك) الى قوله (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم "(١)

ولأن اليهود بطبيعتهم لايطيب لهم العمل بالفتنة الاعن طريق الخفاء والدس فانهم ركزوا على الخطط السرية والعمل من وراء المحافل الماسونية والقوميات التي دبر اليهود مسارها الى وجهة يريدونها حينما ثارت على دينها وملوكها كالأمـة الفرنسية لمـا ثارت على قيصرها وحامي نصرانيتها بتوجيه وتخطيط من اليهود يقول الدكتور محمد محمد حسين : " أكثر الناس يجهلون أن شعار الثورة الفرنسية اليهودية : " الحرية ـ والاخاء ـ والمساواة " ، هو من وضع مجمع بورد و المـاسوني "(٢) ويتأكد ذلك من قول وليام غاي كار :

"واذا كان يخامر البعض شك في حقيقة الدور الذي لعبته الماسونية في الثورة الفرنسية فسنثبت هنا مناقشة جرت حول هذا الموضوع في مجلس النواب الفرنسي عام ١٩٠٤م بعد بضعة أسئلة استجوابية تقدم بها المركيز روزانبو حول ماإذا كانت الماسونية الحرة هي صانعة الثورة الفرنسية قال : " اننا متفقون اذن بصورة كاملة على هذه النقطة بالتحديد ، وهي أن الماسونية كانت الصانع الوحيد للثورة الفرنسية ، وهذه التصفيقات التي أسمعها الآن في المجلس تبرهن على أن بعض الموجودين يعلمون بذلك مثلي تماما "

" وعندئذ نهض النائب جومل وهو أحد الأعضاء المعروفين لمحفل الشرق الاكبر وقال : نحن لانعلم ذلك فحسب ، بل اننا نعلنه على الملأ "(٣)

---

١ ـ اسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٦٧ .

٢ ـ محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، ٨٣ .

٣ ـ وليام غاي كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ، ١١٢ .

ويقول وليام غاى كار أيضا :

" وعام ١٩٢٣م أقيمت حفلة عشاء كبرى ... وفى هذه الحفلة اقترح رئيس محفل الشرق الأكبر فى فرنسا على الحاضرين أن يشربوا نخب الجمهورية الفرنسية وليدة الماسونية الحرة الفرنسية ونخبا لجمهورية العالمية التى ستولد من الماسونية العالمية " (١)

ويقول كار أيضا :

" عام ١٩٢٣م أيضا طالبت المحافل بتطبيق فكرة العلمنة (٢) وقد أدلى هيريو ببيان وزارى تأييدا لهذه الفكرة فى السابع عشر من حزيران ١٩٢٤م " (٣)

هذه نقول تثبت دور اليهود فى افساد فرنسا وتحويلها من قيصرية دينية على ما يشعر به أهل أوربا الى جمهورية قومية علمانية . ثم الركوب على ظهر شعبها واستغلاله لتحقيق أهدافهم .

وفيما يلي بيان كيفية استغلال اليهود للفرنسيين وغيرهم فى فتنة الباب العالي فى الخلافة العثمانية عن الحكم بما أنزل الله ليحطموها ويزيحوها عن طريقهم الى فلسطين ، والتسلط على العالم .

ومما يبين نوايا اليهود هذه ماورد فى خطاب لأحد حكمائهم فى عام ١٧٩٨م أى بعد الثورة القومية فى فرنسا بتسع سنوات وقد أثبت هذا الخطاب المؤرخ اليهودى ليفي أبو عسل فى كتابه يقظة العالم اليهودى ، ومما ورد فيه قوله :

" فهيا بنا أيها الأخوان لتجديد هيكل أورشليم ...

" انه يجب العمل بالوسائل التالية لتحقيق هذا المشروع المقدس وهي اقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى الاربعة عشر بلدا التالية وهي ايطاليا ، وسويسرة ، والمجر ، وبولونيا ، وروسيا ، وبلاد الشمال ، وبريطانيا العظمى ، وأسبانيا ، وبلاد ولس ، والسويد ، وألمانيا ، وتركيا ، وآسيا ، وأفريقيا ...

" أما البلاد التى ننوى قبولها باتفاق مع فرنسا فهي اقليم الوجه البحرى من مصر مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا الى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر الى البحر الأحمر فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشمالية والجنوبية ...

" ثم ان مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا ، وموقع بلادنا على المتوسط يمكننا من اقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وايطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوربا ...

" أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى باقتراحاتنا على الباب العالي فلا يجوز نشرها علنا وعلى رؤوس الاشهاد . وسنكون مضطرين لأبقاء هذه المسألة منوطة بحسن ادارة الأمة الفرنسية (٤)

١ــ وليام غاى كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ، ١١٢ .

٢ ــ وفكرة العلمنة هي الألحاد وهي الفكرة الرئيسة التى يعتمد عليها النورانيون فى القومية .

٣ــ المصدر السابق ، ١١٢ .

٤ــ نقلا عن عبد الله التل ، من كتابه : جذور البلاء ، ١٤٢ وما بعدها .

وتوصلت الأمة الفرنسية مركوبة الماسونية اليهودية تجبر تركيا على منح امتيازات لمدارسها في داخل تركيا كما يقول سرجي نيلوس تعقيبا على مقررات (بروتوكولات) حكماء صهيون (١٨٩٧م)

" ان هذه الوثائق ... وقد وجدها صديقي (أليكس نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية القيصرية) في مكاتب بمركز قيادة جمعية صهيون القائم الآن في فرنسا .

" ان فرنسا قد أجبرت تركيا على منح امتيازات لجميع المدارس والمؤسسات الكاثوليكية التي طردتها من فرنسا حكوماتها السابقة . هذه الحقيقة تثبت بلا ريب أن دبلوماسية المدارس الدريفوسية (نسبة الى دريفوس ضابط يهودي في الجيش الفرنسي) لاتهتم الا بحماية مصالح وأنها تعمل على استعمار آسيا الصغرى باليهود الفرنسيين . ان صهيون تعرف دائما كيف تحرز النفوذ لنفسها عن طريق مايسميهم التلمود البهائم العاملة التي يشير بها الى جميع الأمميين " (١)

وهذه الامتيازات التي نفذت منها فرنسا الماسونية واستطاعت أن تجبر تركيا عليها لمصلحة اليهود ترجع الى ثغرات قد فتحها العثمانيون على أنفسهم في الداخل وفي الخارج :

أما في الداخل : فكان السلاطين كما يقول زين نور الدين زين : " لايطبقون الشرع الأسلامي على الجاليات غير المسلمة الافي حالات نادرة ...

" وفسروا هذا المبدأ بأن على السلطان الفاتح أن يلتزم بما منح الأباطرة البيزنطيون هذه الجاليات من امتيازات وضمانات بل للسلطان أن يضع لهم أحكاما خاصة بهم توفر لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة ...

" فنشأ ما يسمى نظام الامتيازات وهو نظام كانت تتبعه الدولة البيزنطية والصليبيون في الدويلات التي أنشأوها في الشرق الأدنى ... " (٢)

ومن هذه الجاليات في الدولة العثمانية وعلى الخصوص في القسطنطينية جالية يهودية كبيرة وقد ذكر شيريب سبير يد وفيتش في كتابه : حكومة العالم الخفية نرسالة نشرتها سنة ١٨٨٠م مجلة البحوث اليهودية الفرنسية ، والواردة مع بعض الاختلاف في النص في كتاب : اليهود ، اعداد زهدي الفاتح ص ٤ ١١ مأخوذة عن كتاب صدر سنة ١٦٠٨م بعنوان : "La silva Curiosa"

وقالت مجلة البحوث الفرنسية اليهودية عن هذه الرسالة : " في ١٤٨٩/١/١٣م كتب شامور حاخام مدينة ارل ــ من اعمال مقاطعة بروفانس ــ الى المجمع اليهودي القائم في الأستانة يستشيره في بعض الحالات الحرجة . ومما جاء في الكتاب: ان الفرنسيين في اكس وارل ومرسيليا يهددون

---

١ ــ محمد خليفة التونسي ، الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) ص ١٨٧ .
٢ ــ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ص ٣١ ، ٣٢ .

مقابدنا فماذا نفعل؟ » فجاءه الجواب التالي :

« أيها الأخوة الأعزاء ، ... (...) ... والبلايا ... أبأس؟ تلقينا كتابكم ، وفيه تطلمونا على ما تقاسونه من الهموم ... فكان وقع هذا الخبر شديد الوطأة علينا ، واليكم رأي المزازية والحاخامات :

ـ بمقتضى قولكم : ان ملك فرنسا يجبركم ان تعتنقوا الدين المسيحي ، اعتنقوه لأنه لا يسعكم ان ... وأن تقاوموا غير انه يجب عليكم ان تبقوا شريعة موسى راسخة في قلوبكم .

ـ بمقتضى قولكم انهم يأمرونكم بالتجرد من أملاككم ، فاجعلوا أولادكم تجارا ليتمكنوا رويدا رويدا من تجريد المسيحيين من أملاكهم ... (لتجتن أشد ...

ـ بمقتضى قولكم انهم يعتدون على حياتكم ، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين ... حياتهم .

ـ ... للدولة العثمانية من ... المستشارين ... الباب العالي

ـ بمقتضى قولكم : انهم يهدمون معابدكم ، فاجعلوا أولادكم كهنة واكليريين ليهدموا كنائسهم .

ـ بمقتضى قولكم : انهم يسومونكم تعديات أخرى كثيرة ، فاجعلوا أولادكم وكلاء دعاوى ، وكتبة وعدول ، وليتداخلوا دائما في مسائل الحكومة ، ليخضعوا المسيحيين لنيركم ـ فتستولوا على ... أزمة السلطة العالمية ، وبذلك يتسنى لكم الانتقام ... العثمانية ...

سيروا بموجب أمرنا هذا ، فتتملكوا بالاختبار انكم بهذا الذل وهذه الضعة التي أنتم ستصلون الى ذروة القوة والسلطة الحقيقية » في ١٢ كانون (ت٢) ١٤٨٩ م ... التوقيع ... (١)

... الملك الفرنسي كان ... أمير يهود القسطنطينية

فهؤلاء اليهود من ضمن الذين تمتعوا بتساهل السلطان العثماني وتركهم على وضعهم وامتيازاتهم التي منحتها لهم جاهلية القانون الروماني الأغريقي والبيزنطي المدني والتجارات المالية بل ان السلطان الاسلامي ضمن لليهود في بلاده العثمانية تلك الامتيازات وسن لهم أحكاما خاصة بهم وفرت لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة ، وتنفيذ أحكامهم الجاهلية على الأرض الاسلامية ووجود اليهود داخل الخلافة الاسلامية على هذا الوضع الامتيازي الخارج عن الشرع ورط الخلفاء بتعيين مستشارين يهود في بلاط الخلافة ومجالس الحكم ومرافق أخرى ، وما كان اليهود في موقفهم من الاسلام منذ بعثة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الا أشد الناس عداوة فهل يخرجون عن هذا الموقف من الاسلام وقد وجدوا لهم من حملته معاونا ؟

ـ وقد قرأنا قبل قليل في جواب أمير يهود القسطنطينية الى حاخام مدينة ارل في فرنسا أسس مخطط اليهود لتحطيم العالم النصراني والسيطرة عليه والذي قد نفذوه بالفعل حتى استولوا

---

١ ـ شيريب سبيريد وفيتش ، الحكومة العالمية الخفية ، ترجمة مأمون سعيدا ، تحرير وتقديم أحمد راتب عرموش ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

مدحت باشا هذه جزءا من قانون الولاية الذى صدر سنة (١٨٦٤م) وعدل سنة (١٨٧١م)(١)

" وقد كانت محاولة تنمية الوجدان القومي عند الأتراك تقليدا واتباعا للحركات القومية فى أوربا ، وكان الى حد ما استجابة للظروف والأحوال ذاتها التى كانت سائدة فى تركيا "(١)

وتلك الظروف والأحوال السائدة هي ظروف حلول القوانين العلمانية الأوربية ، وما انتشر بين الناس من عقائد يسمونها "عقائد سياسية أوحت بها الثورة الفرنسية" وورود هذه الأفكار الغربية الوثنية وما استحدثوا من أزياء وأساليب فى المعيش ، ومن وفد الى تركيا من الأجانب كما يفيد أحمد أمين فى كتابه (تركيا أثناء الحرب العالمية ، ص ٢٦) فيقول : " فى سنة ١٨٤٨م ، فترة الثورات فى أوربا وصل الى تركيا جملة صالحة من الرجال الأفاضل الأقوياء " ـ ويتابع الدكتور أمين كلامه فيقول : " انهم جاؤا لاجئين ورفضت تركيا تسليمهم بالرغم من أن النمسا وروسيا هددتا بالحرب فى حالة (عدم) تسليمهم وكثيرون منهم تجنسوا بالجنسية التركية والتحقوا كموظفين فى الحكومة التركية "(٢)

قال زين : " وهكذا ازداد نقاط التماس مع العالم الغربي "(٣) حتى قال زين عن مدحت باشا ورشيد باشا : "كانا يطالبان بتبنى النظام الدستورى الغربي فى الحكم ، ذلك النظام الذى يقول مدحت باشا فيه : انه العامل الأول فى تقدم الشعوب ورقيها . ويضيف قائلا : ولان تركيا تعتبر فى مصاف الدول العظمى ، عليها اذا أرادت أن تحتفظ بهذه المكانة واذا رغبت فى مواكبة سائر الدول على قدم المساواة فعليها فى مضمار التقدم العلمي أن تتبع الأنظمة ذاتها التى تتبعها الدول العظيمة "(٤)

ومدحت باشا قد أصبح صدرا أعظم فى الدولة العثمانية أى رئيس مجلس الوزراء فى مفهوم اليوم ، وهكذا اذا افتتن حكام المسلمين بشيء من ما لم يأذن به الله فى دائرة الأسلام التطوعي ومنهجه الشرعي فحكموا به صاروا ممن حكم بغير ما أنزل الله وتجارى بهم هذا الاتجاه حتى يخرجوا من دائرة الحكم بما أنزل الله كليا ، وتسند الأمور الى غير أهلها وتضيع الأمانة على رغم ندمهم آخر الأمر.

لقد استحوذ اليهود على مدحت باشا عن طريق الماسونية التى ينتمي اليها وهو الصدر الأعظم . فصار مدحت أبا الدستور المنقذ وزعيم الاصلاح على حد وهم العامة والخاصة من الاتراك واهل الغرب ، واستحوذت اليهود على تركيا الفتاة الماسونية فتسلمت مقاليد الحكم بعد أن اتحدت معها جمعية الاتحاد والترقي ، وكانوا خير أمل لليهود فى تمزيق وحدة المسلمين وتفتيت أوصال خلافتهم لتزول عن طريقهم الى فلسطين وتدمير العالم ـ لاسمح الله ـ ومن الأدلة على نفوذ اليهود فى حكم الخلفاء العثمانيين ما ينقله زين نور الدين زين : عن كتاب : «Hand books»

---

١ ـ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٣٧ ، وص ٤٠ .
٢ ـ المصدر السابق ، هامش ص ١٨٦ .
٣ ـ نشوء القومية العربية ، ص ١٨٦ .
٤ ـ = = = = ، ص ١٨٦ .

هذا النص : " ان قادة جمعية الاتحاد والترقي وزعماءها كانوا جميعا وبدون استثناء من البنائين الأحرار (أي الماسونيين) .

" وان يهود سالونيكا كانوا جزءا لايتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي . (١)

ويقول زين : "والحقيقة هي أننا لانعرف أن أحدا من السلاطين الذين أصدروا "الخط الهمايوني" كان يفكر جديا في أن يصبح هو نفسه ذات يوم سلطانا دستوريا ، أو كان يرضى بأن يرى الدول الغربية تتدخل في شؤونه الداخلية . فكيف كان للسلطان أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته وهو أمر يتنافى مع مركزه السامي ... (٢)

جاء السلطان عبد العزيز وماأعجبه الأصلاح الغربي وحكمه النيابي فخلعه دعاة الأصلاح الغربي ثم قتلوه وعينوا بدلا منه "مرادا" ثم اختل عقل مراد فخلعوه ، ثم عينوا السلطان عبد الحميد ، وقيض الله لعبد الحميد أن يتنبه على الخطر المحدق بالدولة العثمانية والنكسة التي وقعت فيها وهي نكسة الى الجاهلية ، فأخذ يدعو الى الوحدة الاسلامية ولم شعث الخلافة ، وعطل دستور مدحت باشا وقال ان مدحت باشا : " عميل للأنجليز ، وكان الأنجليز يعرفون الأصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تغرق الدولة العثمانية سريعا تماما مثل ماأعرف أنا . فهل ياترى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة ؟ "

وقال : " لابد للتاريخ يوما أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الاتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن [illegible] ماسونيتهم ، استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريبا من الماسون وأنهم منتسبون الى المحفل الماسوني الأنجليزي ...

وقد صرح السلطان عبد الحميد بماسونية مدحت باشا وماسونية أخيه السلطان مراد وهذه الأقوال للسلطان عبد الحميد في مذكراته التي نشرت في مجلة المجتمع (عدد ٢٧٠ في ١٠/ ١٠/ ١٣٩٥هـ)

وكان لليهود أمل في السلطان عبد الحميد وهو على رأس السلطة أن يعطيهم وطنا قوميا لهم وأن يخدعوه ، فرحل هرتزل الى الشرق حيث اتصل بالسلطان عبد الحميد ليقدم له عروض اليهود المغرية :

١ــ مساعدة السلطان على انشاء أسطول بحري .

٢ــ معاضدته في سياسته الأوربية .

٣ــ انشاء جامعة عثمانية في القدس تغني عن الذهاب الى جامعات أوربا وبذلك لايتعرض الطلبة الى تشرب النزعات الجديدة .

٤ ــ تحسين أوضاع السلطنة العمرانية .

٥ــ عقد قرض مالي لتغطية تكاليف المشروعات المقررة .

١ــ انظر : زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ص ٨٦ ، ٢٠٧ ــ

٢ــ المصدر السابق ، ص ٤٢ .

مقابل منح اليهود حق استيطان فلسطين واقطاعهم جزءا من أرضها المهملة .
تمت المقابلة الأولى مع السلطان فى مايو ١٨٩٦م والثانية فى أغسطس ١٩٠٢م وفى كليهما أخفق هرتزل فى اقناع السلطان رغم ما اعترف به من رشوة قدمها للوزراء وللحاشية ومن وساطات كثيرة توسل بها (١)

و ورد فى يوميات هرتزل ص٣٥ ، منشورات مركز الأبحاث ، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية و عن صديقه نيولنسكي :

"قال السلطان لي :اذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه أن لا يسير أبدا فى هذا الأمر ، لأقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد ...

" وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ...

" ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل . انما لن تقسم الا جثثا ولن أقبل بتشريحنا لأى غرض كان " (٢)

ثم لما يئس اليهود من السلطان عبد الحميد سعوا فى اسقاطه فأرغموه أولا على اعادة دستور مدحت باشا سنة ١٩٠٨م بثورة الاتحاديين ثم دبروا خلعه سنة ١٩٠٩م وبلغه قرار الخلع أربعة ومنهم بشكل سافر اليهودى قرة صو والأرمنى آدام ، وأفتاهم بخلعه عالم السوء الباطنى المرق موسى كاظم (٣) وكلهم بتدبير اليهود " ويعترف الكاتب اليهودى برنارد لويس بهذه الجريمة فى كتابه (نشوء تركيا الحديثة) قائلا : " لقد تعاون الأخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على ازالة السلطان عبد الحميد لأنه كان معارضا قويا لليهود ، وذلك لأنه رفض بشدة اعطاء أى شبر من أرض فلسطين لليهود " (٤)

وبعد خلعه أبعدوه الى سلانيك مقر اليهود ليحبسوه ، ثم أعادوا بدله أخاه مرادا مرة أخرى والذى سبق أن خلعوه لاختلال عقله غير أنه فى هذه المرة ماسونيا ضعيفا ليستغله اليهود خليفة للمسلمين و من آل عثمان نسبا وهكذا سيطروا على الخلافة الأسلامية من داخلها "والشجرة تقطع بأحد أغصانها " .

عند هذا الحد وفى هذا الجو عمل اليهود بلا تستر ولا وجل على تحويل ولاء المسلمين فى الدولة العثمانية للأسلام الى الولاء القومي حتى يجزئوهم تبعا لجزئيات جنسياتهم المتعددة والتى ما وحدها الا الأسلام ، فيسهل على اليهود احتواؤهم شيئا فشيئا ، والسيطرة عليهم بالفرقة القومية و ظهرت القومية التركية على حقيقتها فى جمعية الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة التى تسلمت حكم المسلمين وهم كما يقول فيهم هنرى مورغنتو سفير أمريكا فى الخلافة : " انهم لم يكونوا دولة

١ــ نقلا عن عبد الله التل من كتابه ، جذور البلاء ، ص ١٥٠ .
٢ــ نقلا عن مقدمة أحمد راتب عرموش لترجمة مأمون سعيد كتاب : حكومة العالم الخفية تأليف شيربب سبيريد و فيتش ، ص ٣٥ .
٣ــ مجلة المجتمع ٢٥ / ٨ / ١٣٩٥هـ عدد ٢٦٥ ، ص ١٧ .
٤ــ أحمد صالح محايرى من بحثه الذى قدمه للمؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة ص١٤ .

بالمعنى الصحيح ، بل كانوا حزبا غير مسؤول ، أو نوعا من الجمعيات السرية التى تسلمت الوظائف الحكومية العالية عن طريق الدسائس والترويع والاغتيال " (١)

هؤلاء هم الذين ظهرت فيهم القومية التركية على حقيقتها كما يقوله زين نر " وأصبحت تعرف بالاتحاد الطوراني وهو حركة تهدف الى توثيق الروابط بين جميع الشعوب التى تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية " (٢)

" ويعتقد أن الفكرة مستمدة من كتاب لافرنسي اسمه (M. Leon Cahun)

حيث يرى فيه كاهون أن الطورانيين كانوا فيما مضى من الزمن شعبا ذكيا ممتازا لكنه أخذ بالتقهقر والانحلال عند ماتخلى عن الخصائص التى كان يتميز بها فى صحارى آسيا الوسطى واعتنق الأسلام دينا وحضارة .

" ويقال ان الدكتور ناظم ، وكان عضوا بارزا فى جمعية الاتحاد والترقى ، واعتنق "الطورانية" مذهبا بعد اطلاعه على هذا الكتاب الذى أعاره اياه القنصل الأفرنسي العام فى سالونيكا "(٣)

" وقد يجد القارئ أفضل عرض للحركة الطورانية فى كتاب : " التركية والنزعة الى الاتحاد التركي " لمؤلفه تكين ألب ، وهواسم مستعار يخفي وراءه اسم كاتب يهودى من سالونيكا : ألبرت كوهين .(٤)

"وفى مؤلفات : يوسف بك أقجورا أوغلو ، وضياء كوك ألب ، وكتاب "قوم جديد " لعبيد الله الأفغاني ، وكتاب "تاريخ المستقبل "للكاتب التركي جلال نورى بك .

" هذه المؤلفات نفثت فى نفوس الأتراك روحا جديدة وعزما صادقا لأحياء الروح الوطنية " (٥)

ويروى زين عن توينبي وكركود من مؤلفهما : "تركيا " قولهما فى ص٥٧ :

" ان الدرس الذى تعلمه أعضاء تركيا الفتاة هو أن الرجوع بالشعب التركي الى مؤسساته الاجتماعية قبل دخول الأسلام من شأنه أن يعود بهم الى احياء الروح الوطنية ، وفى الوقت نفسه يكون أساسا للتقارب والتعاون بين الأتراك وبين الشعوب التركية الأخرى خارج الحدود العثمانية .

" يتضح لنا مغزى هذه الدعاية اذا تذكرنا أن ثلثي الشعب الذى يتكلم التركية فى العالم كله لايقطن البلاد التركية بل نجده داخل الحدود الروسية ، فكأن القصد من الحركة الطورانية هو أن أن تكون عاملا فى تقويض الامبراطورية الروسية " (٦)

١ــ نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٦ .
٢ــ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٨٧ .
٣ــ المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .
٤ــ == == ، ص ، ص ٨٧ ، ٢٠٨ .
٥ــ == == ، ص ٨٧ .
٦ــ == == ، ص ٨٧ .

ويقول الأمير شكيب أرسلان عن هذه الحركة الطورانية لدى تركيا الفتاة قبل أن تغتصب الحكم وكان أرسلان عضوا فى مجلس الأمة فى الدولة العثمانية ما نصه :

" وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ... وأشهر دعاتها ضياء كوك ألب، وأحمد أغا ئف ويوسف أقشورا اللذان قدما من روسية، وجلال ساهر، ويحي كمال، وحمد الله صبحي رئيس وجاق "ترك يوردى" ومحمد أمين بك الشاعر الملي، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجدا وأسبقها الى الحضارة وأنهم هم والجنس المغولي واحد فى الأصل، ويلزم أن يعودوا واحدا ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية، ولم يقتصروا منها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملي، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة الى المغول فى الصين، والى المجر والفنلانديين فى أوربا، وكل ما يقال أنه ينمى الى أصل طوراني ...

"وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الأسلامية، الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية، فتكون عندئذ واسطة لاغاية، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا نحن أتراك فكمبتنا طوران، وهم يتفننون بمدائح جنكيز، ويمجهون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئا من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الأعجاب بها . ... (١)

" هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى، اقتداء بالأمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذى قبل، وذلك نظير ما حصل عند الترك، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم، وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة " (٢)

ويروى أبو الحسن علي الندوى عن خالدة أديب فى ضياء كوك ألب، من محاضراتها فى الجامعة الملية بدهلي قولها :

"كان كوك ألب يريد أن ينشىء تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين، ...

" كان ضياء يعتقد ويؤمن بأن الأسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا، ولابد لنا من اصلاح ديني يوافق طبائعنا اذا لم نرجع الى عهدنا الجاهلي " (٣)

١ــ من حواشي الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الأسلامي، ١/ ١٥٨ ــ ١٥٩.

٢ــ نفس المصدر السابق، ١/ ١٦٤.

٣ ــ أبو الحسن الندوى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ١٩٩ــ ٢٠٠.

هذا مايريده اليهود للمسلمين ، اهمال الجامعة الأسلامية وتقويض خلافتها ، وكذا الاتجاه للقومية الطورانية الى تقويض الامبراطورية الروسية هو اتجاه يهودى صرف، يقول عبد الله التل : " كانت نقمة اليهود على روسيا القيصرية عظيمة لأنها كانت فى نظر اليهود الركن المكين للمسيحية ولأن روسيا لم تهضم تغلغل اليهودية فى الكيان الروسي فكانت الثورة البولشفية سنة ١٩١٧م وكان من ورائها قولا وعملا وتمويلا وتخطيطا عتاة اليهود من أمثال تروتسكي ... "(١) وعدد أسماء أخرى من عتاة اليهود .

حقيقة جمعية الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة :

أنهم ليسوا أتراكا كما يزعمون ولا مخلصين للأتراك كما يدعون فضلا عن أن يكونوا مسلمين أو مخلصين للأسلام وهم يكفرون به ويحاربونه فى بلاده — يروى زين عن ستون وتسون من كتابه :

(Seton-Watson, the Rise of Nationality in the Balkans(London, 1917), PP.135-136)

قوله : " ان الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير اسلامية . فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف . فأنور باشا مثلا هو ابن رجل بولندى مرتد . وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة ، وكراسو من اليهود الأسبان القاطنين فى مدينة سالونيكا ، وكان طلعت باشا بلغاريا من أصل غجرى اعتنق الأسلام دينا ، أما أحمد رضا ، أحد زعمائهم فى تلك الفترة ، فكان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا الى جانب كونه من أتباع مدرسة كونت الفلسفية .

" ان أصحاب العقول المحركة وراء الحركة فقد كانوا يهودا أو مسلمين من أصل يهودى ، وأما المون المالي فكان يجيئهم عن طريق " الدونمة " ويهود سالونيكا الأثرياء ، كما أنه كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية أو الشبيهة بالدولية — من فينا وبودابست وبرلين وربما من باريس ولندن .

" كان يهود سالونيكا ، ويعرفون بالدونمة — أى المرتدون — شركاء الثورة التركية الحقيقيين ، وهؤلاء هم من العرق اليهودى ولكن معتقدهم قد لايكون يهوديا أصيلا ، والاعتقاد الشائع بين الناس هو أنهم مسلمون بالاسم أما بالفعل فأنهم من أتباع توراة موسى ... وفى تلك الفترة التى نحن بصددها لم يعرف أحد من الناس شيئا عنهم سوى قلة من العلماء المختصين بدراسة الشرق الأدنى ، ولم يكن أحد من الناس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة "بالدونمة " ستلعب دورا رئيسيا فى ثورة كان لها نتائج خطيرة فى سير التاريخ "(٢)

١ــ عبد الله التل ، جذور البلاء ، ص ١٩٣ــ

٢ــ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٧ .

ويقول الجنرال التركي جواد رفعت آتلخان : " وبدأ قرة صو نشاطه ... وأوقع كثيرا من الوطنيين المتحمسين في شباك الماسونية ، وكان أحد هؤلاء (طلعت باشا) الذى انتخب رئيسا للمشرق الأعظم العثماني .

" ولفظ طلعت أنفاسه الأخيرة غريبا في بلاد أجنبية برصاص الماسونية اليهودية " (١)

ويقول أيضا :

" وكان الماسونية واليهود والدونمة يراقبون هذه التغيرات (بعد الحرب العالمية) عن كثب كي يستغلوها لمآربهم الخاصة ، ويظهروا على مسرح الحوادث بقوة وجلاء ويقودوها لمصالحهم الخاصة فحسب. والدليل على ذلك أنهم بالرغم من تحدثهم بالمثل العليا وبيان استعدادهم للتضحية من أجلها .. الا أن ادعاءهم لم يتجاوز أفواههم وخير مثال لذلك أن الماسونيين لم يشتركوا مطلقا في حرب الاستقلال التركي ولم يقدموا أى مساعدة مالية للمناضلين من أجل الاستقلال وحتى أنه عند ما طلبت مساعدة مالية منهم عن طريق الجنرال الوحيد الذى كان من طائفة الدونمة تلقينا هذا الجواب المحزن من أصحاب المال (اخوان بالجي) : نحن لانملك المال الذى يمكن اعطاؤه للأتراك ...

" لم نتلق أية مساعدة لأنهم السبب في اختلال الوطن وتمزيقه ، وهل من ماسوني في وسعه أن يتحدى الاتحاد الماسوني أو أسياده اليهود ؟ " (٢)

ويقول أيضا :

" وفي الواقع أن جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبد الحميد عن عرشه هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك . وشهدت البلاد من المآسي مالم تشهده خلال ثلاثة وثلاثين عاما من حكم السلطان ولفظ مواطنون مخلصون أنفاسهم الأخيرة على أعواد المشانق التي نصبت في مختلف أنحاء البلاد ، أما المصيبة الحقيقية الكبرى فهي وقوع ادارة الحكم تحت النفوذ الماسوني اليهودى وكأن الأرض قد انشقت مرة واحدة عن مستعمرات يهودية ذات أبنية شاهقة من مناطق حيفا ويافا ورملة وكرمل وهكذا فأن اسرائيل قد أرسيت بأيدينا " (٣)

انتهى ما أردت نقله من كلام هذا الجنرال التركي الخبير بما يقول أكثر من غيره منا ، وأخيرا أختم عن هذه الجمعية كلامي بما نشره الدكتور زين نور الدين زين في كتابه نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، ناقلا عن كتاب :

(Hand books No 96 E & d, PP. 45-47)

وهو وصف مجمل للسياسة التي كانت تتبعها " تركيا الفتاة " لما استولت على الحكم فيقول :

١ــ جواد رفعت آتلخان ، أسرار الماسونية ، ترجمة نور الدين الواعظ وزميله ، ص٢٣١ ، ٢٣٢ .
٢ــ نفس المصدر السابق ، ص ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
٣ــ = = = = ، ص ٢٣٢ .

"أولا : وقع خلاف بين أنصار ضياء بك وبين المسلمين حول قضية اللغة . ويبدو أنهم فكروا فى ترجمة القرآن الى التركية ، لأنهم كانوا يعلمون بأن ترجمة التوراة وطقوس الصلاة الى اللغة الأنكليزية والألمانية بعد حركة الاصلاح الانجيلية أصبحت أساسا لنشوء الأدب الأنكليزى القومي والأدب الألماني القومي .

"ثانيا : أسفرت معارضة علماء الاسلام لترجمة القرآن الى التركية عن قيام حركة (تزعم أنها) تركية وطنية لمهاجمة الأسلام على أنه نظام دينى ، وهذه الحركة العلمانية التى ظهرت فى تركيا جاءت تقليدا للحركة العلمانية فى أوربا . يدل على ذلك اطلاق الكاتب تكين ألب (اليهودى الذى اسمه الحقيقي :ألبرت كوهين) تعبير اكليريكي واكليروس على الكهنة . لكن الحركة العلمانية كانت تستهدف اصلاحات جذرية كعلمنة التربية والقضاء . وقد خطت جمعية الاتحاد والترقى خطوات فى هذا الاتجاه . واذا كان قد وقع خلاف بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقى فى قضية علمنة الدولة فانه خلاف حول أفضل السبل التى من شأنها أن توفر العلمنة بأقل مايكون من المعارضة وبدون أن يشعر الناس أن العلمنة أمر يتعارض مع الأسلام .

" ثالثا : شرع الوطنيون الاتراك فى احياء حركة يمكن أن تسمى حركة جاهلية وهي لها مثيلها فى أوربا فيما يسميه الألمان " الألمانية الأصيلة العريقة " وكما تظهر فى التماثيل الخشبية المعروفة بتماثيل "هند نبورغ" . فقد أحاط الأتراك الفاتحين الطورانيين الوثنيين أمثال جنكيز خان وهولاكو بهالة من التقديس والعبادة . وكان على كل عضو من أعضاء الجمعية المعروفة بجمعية "ترك أوجاقي" — أي التركي الشجاع وكانت جمعية تعنى بالتربية البدنية ربما على نمط الجمعية السلافونية ، سوكول — أن يتخذ له اسما طورانيا بصفته عضوا فى هذه الجمعية عوضا عن اسمه الأسلامي (مثلا أوغوز عن محمد) . كذلك تأسست جمعيات كشفية كان الأولاد فيها يتسمون بأسماء طورانية ، وكان فى هتافهم يستعملون هتافا طورانيا — ليحل خاقان الأتراك عوضا عن لفظ بادشاه — وكانوا يحملون أعلاما عليها صورة الذئب التركي ، مع العلم بأن صور الخلائق الحية أمر محرم فى نظر المسلم الحقيقي .

" ويقال ان أنورباشا هو الذى كان يرعى هذه الجمعيات الكشفية . وقد وقعت صورة أمر تركي صادر الى العساكر التركية فى حوزة وزارة الحرب البريطانية وفيه تعليمات للجنود أن يذكروا فى صلواتهم " الذئب الرمادى " ويبدو أن الطورانية فى شكلها المتطرف تركت أثرا فى نفوس الطبقة التركية الراقية . فقد وجد جيش الملك حسين على جثة أخى القائد التركي فى المدينة منشورا أصدرته احدى الجمعيات التركية الطورانية بجمعية "ترك أوجاقي" أى الموقد التركي جاء فيه : ان هذه البدعة الخيالية المخيفة التى يسمونها "الامة الأسلامية" التى ظلت الى أمد طويل سدا يحول دون التقدم بوجه عام ، ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص ، هي في طريقها الآن الى التفكك فالزوال ، وليس لنا أن نتخوف منها على أنها تشكل خطرا على خططنا فى تحقيق مبادئنا وأهدافنا . يتضح ذلك لنا اتضاحا جليا من مجرى الحوادث بين المسلمين فى الهند ..." (١)

---

١ — زين نورالدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٨٨ وما بعدها .

أثر اليهود فى رد العرب الى القومية

تبينا فيما سبق حقيقة القومية الطورانية ، جاء دور اليهود فيها سافرا ، وقد أصاب قلب الخلافة الأسلامية بالتمزيق والأفساد حيث ردوا العنصر الحاكم عن دينه الى أن أصبح عدوا للأسلام ، وقد دخلوا أيضا فى أهم عنصر آخر يخشى أن تعود الخلافة اليه كما كانت فى نصابها السليم وهم العرب فردوا أنظارهم الى القومية كما فعلوا بالاتراك بطرق منها :

١ــ اثارة ردود الفعل حين حملوا أداتهم "تركيا الفتاة" على تعمد تتريك العرب وتحديهم حتى فى لغتهم وعاداتهم ومشخصاتهم الذاتية كي تثور بهم العاطفة العمياء الى الأعتزاز ، بقوميتهم كما فعل الأتراك والدعوة الى العروبة كرد فعل عنيف لسياسة القومية التركيبة الطورانية المتغطرسة المفتخرة بجنكيز خان وهولاكو ، يقول زين نور الدين زين " وبزوال عهد الحميد كان الأتراك قد وصلوا الى نهاية المطاف من تاريخهم ، ذلك التاريخ الذى كان يربطهم بآسيا وبالشعوب الأسلامية قرابة ستمائة سنة "

الى أن قال :

" وهذا الخلف فى الوعود والتمهدات التى أخذتها تركيا الفتاة على نفسها كان من شأنه أن يؤدى حتما الى الانشقاق بين العرب والاتراك " (١)

"فلا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا ان السياسة العرقية التى كانت تتبعها تركيا الفتاة هي التى الهبت شعور القومية فى نفوس العرب.

" فعند ما اتخذت تركيا الفتاة من الوطنية المتطرفة والتفوق العرقي أساسا لبناء تركيا الجديدة ... كانت ردة الفعل عند قادة العرب أنهم راحوا يفكرون بمستقبل أوطانهم بالأسلوب ذاته ...

" وقد أسفر الأمر عن تأسيس عدد من الجمعيات العربية والأحزاب السياسية ...

" وكان مؤسسوها من الشبان العرب ... " (٢)

ولقد سلكت هذه الأداة اليهودية حينما استلمت الحكم فى تركيا اغتصابا مسلكا جنونيا الا أنه يفترق عن الجنون الحقيقي بأنه مفتعل عن قصد واع منهم لما يريدون من ورائه من نبذ الأسلام والفتنة عنه بردود الفعل المتطرفة والتوريطات فى الحمية الجاهلية للقومية بدلا من الأسلام ، فلقد بلغ هذا المسلك بهؤلاء الحكام الى أن صمموا على عسف العرب كي يكونوا أتراكا حتى فى لغتهم ولغة عبادتهم ودينهم فى بلادهم وبين قومهم ورغم الزمن الطويل على التكلم بها بل الأدهى رغم شرفها بالقرآن الكريم ، وعبادة رب العالمين ولسان خاتم المرسلين ، وكل ذلك لم يشفع عندهم تعصبا لطورانية هولاكو وجنكيز خان ، لا ليس الأمر تعصبا للطورانية فى الحقيقة ولكنه عداوة اليهود

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ، ص ٨٠ ، ٨١ .

٢ ــ " " " ص ، ص ٩٠ ، ٩١ .

للذين آمنوا وكيدهم الذى لم يصادف صبرا وتقوى ، كتب السير ادوين بيرز عن جمعية الاتحاد والترقي يقول : "انها لاتتسامح بقضية اللغة التى يجب أن تكون التركية ، والتركية فقط .
" ولذا فرض على الناس تعلم التركية ، بحيث أصبحت لغة مقررة فى كل مدرسة . وصدرت الأوامر بتغيير أسماء الشوارع غير التركية الى أسماء تركية ، هذا مع العلم أن أقل من جزء واحد على عشرين من السكان فى معظم المدن التركية يستطيع أن يقرأ التركية " . انتهى ماكتبه :
(١)
(Pears, Sir Edwin, Forty Years in Constantinople, P.211)

ويذكر الدكتور شهبندر فى مذكراته المنشورة تحت عنوان الثورة الوطنية (دمشق ١٩٣٣م ص ٢ ــ ٣) ماحصل له سنة ١٩١٠م فيقول :"أن كامل بك الصلح أخبره الخبر التالي : عند ماكنت فى طريقي من مونستير الى دمشق لأتسلم منصبى الجديد فى محكمة النقض والأبرام ، عرجت على الاستانه بطلب من وزير العدل آنذاك ، ... نجم الدين منلا بك ، الذى نبهنى الى أن لغة المحكمة التى سأتسلم رئاستها يجب أن تكون التركية من الآن وصاعدا . وذلك لأنهم كما قال لى : سيتخلون عن العرب . " ويتابع الدكتور عبد الرحمن شهبندر كلامه فى مذكراته فيقول :
" عند ماكنا أعضاء فى جمعية الاتحاد والترقى فى سوريا تبلغنا شفهيا تعليمات من المكتب الرئيسي للجمعية بواسطة الدكتور مسحرم بك مؤداها أنه ينبغي لنا أن نستعمل اللغة التركية فى مراسلتنا الرسمية مع الجمعية " ــ وهكذا ، كما يقول الدكتور شهبندر ، كانت هناك محاولة عن عمد وتصميم لجعل اللغة التركية تحل محل العربية فى البلدان العربية . (٢)
حتى فى مكة المكرمة يقول أحمد السباعي فى كتابه :"تاريخ مكة" ما نصه :
" وتألف فى مكة كما تألف فى سائر بلاد العرب فرع الاتحاد والترقى وأنشئت لتتريك العرب فيها مدارس كانت تدرس العلوم العربية باللغة التركية " (٣)
فالتهبت مشاعر العرب فى كل مكان وثارت ثائرة القومية فى نفوس بعضهم وراحوا يتزعمون للعرب من غير بصيرة ويفكرون بمستقبل أوطانهم بالاسلوب القومي دون اجماع من العرب عليه ومن هنا دخل اليهود مباشرة فى شؤون العرب واحتضنوا ردة الفعل لديهم وأطفوا حماسهم للعروبة حتى أغرقوهم بالقومية عن طريق جمعياتهم السرية الماسونية فى باريس وتركيا والقاهرة ودمشق ولبنان تلك التى كانت معملا قديما للقومية لازالت تؤتي ثمارها وتبلور لكل جنس نصيبه . وهذه هي الخطوة ٢ ــ الثانية والطريق الآخر لليهود فى اذكاء الروح القومية للعروبة وفى العرب هذه المرة وكانت قد نسيت وا لتحم العرب مع غيرهم على أساس الاسلام حتى صاروا فى واقعهم وحدة تركبت من أجناس متباينة

---

١ ــ نقلا عن زين نور الدين زين ، من كتابه : نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٩ .
٢ ــ = = = = = = ، = = : = = = ، ص ٩٥ ــ ٩٦ .
٣ ــ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ٢١٨/٢ .

ومن أوطان مختلفة يستخدمون العربية لفهم القرآن والسنة وعقلهما كي يعملون بما فيهما على بصيرة ، وحينما تستطيع يهود أن تثير في العرب روح التعصب للعروبة كغاية فسوف تكون الفتنة عن الاسلام أشد لأنها تحمل على تعطيل الوسيلة وانكار أن الله تعالى جعلها سببا للعقل والفكر ألا وهي العروبة ، فاذا جعلها العرب غاية وكغاية أدخلوا فيهم من اكتفى بها دون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوا منهم من لم يستكملها وان كان قد اتصل بالعروة الوثقى وشهد ألا اله الا الله التي هي أصل الكتاب والسنة ، ناهيك عن الاختلاف العظيم فيما هو أساس العروبة ؟ فذاك الاختلاف الأول من شأنه أن يفرق المسلمين أيما تفريق ، وهذا الاختلاف الثاني من شأنه أن يفرق العرب أنفسهم أيما تفريق أيضا ، وماذا يريد اليهود أكثر من هذا ؟ لذا نشطوا في اذكاء روح القومية في العرب لينبذوا اخوانهم في الأسلام أولا ثم لايتفقوا مع أنفسهم ثانيا وهذا يؤدي الى خراب البلاد الاسلامية وانشغال حرسها بأنفسهم وعلى الخصوص بلاد العرب كأرز للأسلام ومحضن للخلافة ، الخلافة التي كانت مرسى للبشرية أن تميد ومنارا لها أن تضطرب ، وسدا منيعا يحول دون اليهود والفساد الذي يشتهون وبه يعيشون ويسعون : (ويسعون في الأرض فسادا) (المائدة : ٦٤) وفيما يلي وثيقة بلسان أحد المنتمين الى ما تروجه الماسونية وهو فارس نمر باشا الذي يقول فيما يقول :

" فالعروبة كشعار ، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعورا بالقومية ، وعلى هذا الأساس اقتنع الاعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك . ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون الى خطة أخرى هي ادخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت . وكان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضم الى عضوية هذه المحافل الماسونية ، وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين بعد أن يكونوا قد انضموا الى عضوية هذه المحافل الماسونية للأنتماء الى الجمعية السرية .

" كانت (الجمعية) تضم في بادئ الأمر حوالي سبعين عضوا ...

" كان الياس حبالين مارونيا ثم انضم الى محفل ماسوني . وكان قد قرأ فولتير وأصبح تقدميا وثوريا في أفكاره .

"وكان بعد أن يختصر درس الفرنسية في صفوفه (في الكلية السورية الأنجيلية في بيروت) يعود الى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة . وهكذا أصبح طلابه ، وجميعهم نصارى ، من أشد أتباعه اخلاصا وولاءا فكان كل واحد منهم يطمح أن يكون "حبالينيا" يبز أستاذه . وراحو ينشرون أفكاره بين الطلاب . وكان رجل آخر شديد الحماسة : سليم عمون قد قرأ رواية ديماس الأفرنسي الموسومة "بالفرسان

ومن أوطان مختلفة يستخدمون العربية لفهم القرآن والسنة وعقلهما كي يعملون بما فيهما على بصيرة ، وحينما تستطيع يهود أن تثير في العرب روح التعصب للعروبة كغاية فسوف تكون الفتنة عن الاسلام أشد لأنها تحمل على تعطيل الوسيلة وانكار أن الله تعالى جعلها سببا للعقل والفكر ألا وهي العروبة ، فاذا جعلها العرب غاية وكغاية أدخلوا فيهم من اكتفى بها دون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوا منهم من لم يستكملها وإن كان قد اتصل بالعروة الوثقى وشهد ألا اله الا الله التي هي أصل الكتاب والسنة ، ناهيك عن الاختلاف العظيم فيما هو أساس العروبة ؟ فذاك الاختلاف الأول من شأنه أن يفرق المسلمين أيما تفريق ، وهذا الاختلاف الثاني من شأنه أن يفرق العرب أنفسهم أيما تفريق أيضا ، وماذا يريد اليهود أكثر من هذا ؟ لذا نشطوا في اذكاء روح القومية في العرب لينبذوا اخوانهم في الأسلام أولا ثم لايتفقوا مع أنفسهم ثانيا وهذا يؤدي الى خراب البلاد الأسلامية وانشغال حرسها بأنفسهم وعلى الخصوص بلاد العرب كأرز للأسلام ومحضن للخلافة ، الخلافة التي كانت مرسى للبشرية أن تميد ومنارا لها أن تضطرب ، وسدا منيعا يحول دون اليهود والفساد الذي يشتهون وبه يعيشون ويسعون : (ويسعون في الأرض فسادا) (المائده : ٦٤) وفيما يلي وثيقة بلسان أحد المنتمين الى ما تروجه الماسونية وهو فارس نمر باشا الذي يقول فيما يقول :

" فالعروبة كشعار ، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعورا بالقومية ، وعلى هذا الأساس اقتنع الاعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك . ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون الى خطة أخرى هي ادخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت . وكان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضم الى عضوية هذه المحافل الماسونية ، وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين بعد أن يكونوا قد انضموا الى عضوية هذه المحافل الماسونية للأنتماء الى الجمعية السرية .

" كانت (الجمعية) تضم في بادئ الأمر حوالي سبعين عضوا ...

" كان الياس حبالين مارونيا ثم انضم الى محفل ماسوني . وكان قد قرأ فولتير وأصبح تقدميا وثوريا في أفكاره .

"وكان بعد أن يختصر درس الفرنسية في صفوفه (في الكلية السورية الأنجيلية في بيروت) يعود الى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة . وهكذا أصبح طلابه ، وجميعهم نصارى ، من أشد أتباعه اخلاصا وولاءا فكان كل واحد منهم يطمح أن يكون "حبالينيا" يزر أستاذه . وراحو ينشرون أفكاره بين الطلاب . وكان رجل آخر شديد الحماسة : سليم عمون قد قرأ رواية ديماس الأفرنسي الموسومة "بالفرسان

الثلاثة " فراح مع اثنين من أصدقائه يؤلف جمعية الفرسان الثلاثة السرية وغايتها تحرير لبنان من الحكم التركي . ويعتقد فارس نمر باشا أن الأفكار الثورية التي كان يأخذ بها عمون وأصحابه عندما كانوا في الكلية السورية الأنجيلية كانت أفكارا افرنسية المصدر ، وقد جاءتهم عن طريق الياس حبالين " (١)

وكتب فارس نمر في المقتطف ج ٣٦ /مارس / ١٩١٠م ، ص ٢٥٠ـ٢٧٠ . يقول: "على أن كثيرين من أحرار سورية النابغين يعترفون بالفضل في خدمة الحرية للـ ... الياس بك حبالين . كان ... يدرس شبان سورية اللغة الفرنسوية ولكنه وقف جهده على ارضاعهم لبان الحرية واضرام نار البغض بين ضلوعهم للسلطة الاستبدادية سياسية كانت أو طائفية . وشاركه في هذا الفضل رجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين و مسيحيين . فياطالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لأعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية " (٢)

ولقد تمخضت هذه الجمعيات الماسونية اليهودية عن اظهار مناشير ثورية تدعو الناس لقلب نظام الحكم وتهدف الى اثارة روح الوطنية في نفوس العرب بمناشدتهم أن يذكروا " أمجادهم الغابرة " وأن يثوروا على الاتراك فيطردوهم من الأراضي العربية ويتحرروا من حكمهم الفاسد . وكانت هذه المناشير تعلق على الجدران بعد منتصف الليل بالقرب من مقر القنصليات الأجنبية في بعض المدن السورية ، ولاسيما في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا .

وقد اعترف فارس نمر ... أن جمعيتهم السرية كانت مسؤولة عن كتابة عدد من هذه المناشير (٣)

وقد تقدم قبل قليل قول فارس نمر أنهم يأملون أن يستميلوا المسلمين الى جمعيتهم السرية هذه بعد أن يكون هؤلاء المستمالون ماسونيين ، قد انضموا الى عضوية المحافل الماسونية أولا ثم تسهل استمالتهم الى أن ينتموا الى هذه الجمعية السرية .

وقد جرت المخابرات عن هذه الحركات بين دول طامعة ومن ذلك مخابرات جرت بين قنصل الأنكليز في بيروت وقنصلهم في حلب وقنصل فرنسا في بيروت وبين رؤسائهم منها تقرير بعث به ج . هـ . اسكين قنصل بريطانيا في حلب الى السفير البريطاني في الأستانه في ٣١ تموز سنة ١٨٥٨م ، يقول اسكين : "... يظهر أن السكان المسلمين في شمال سوريا تدغدغ أفئدتهم أحلام جميلة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، أو باقامة دولة عربية على رأسها

١ـ نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ، ص ١١٥ ، ١١٦ .
٢ـ = = = = = = ، = = = ، ص ١٩٧ .
٣ـ = = = = = = ، = = = ، ص ٦٢ . وقد اعترف أيضا أن عددا منها كان بخط يده ، نفس المصدر .

شريف من أشراف مكة ... " (١)

- ومنها رسالة وكيل القنصل العام الأنكليزى فى بيروت ، جون ديكسون الى السفير الأنكليزى فى الأستانة ، ج ، ت . غوشن مؤرخة فى ٣ تموز سنة ١٨٨٠م يقول فيها :ان مناشير ثورية قد ظهرت على جدران بيروت مرارا وهي تناشد الأهلين أن يثوروا على الاتراك ، ولست أشك فى أن هناك جمعية سرية فى سوريا تعمل منذ خمس سنوات وأن لها فروعا فى بغداد وفى الاستانة ... وقد تكون هذه الجمعية هي التى تصدر هذه المناشير"

كذلك بعث القنصل الافرنسي العام فى بيروت سينكفتس برسالة مؤرخة فى ٢حزيران ١٨٨٠م الى فريسينه وزير الخارجية الأفرنسية ذكر فيها شيئا عن ظهور هذه المناشير فى بيروت ودمشق ، وفى رسائله التالية الى وزارة الخارجية الافرنسية أشار الى المناشير التى أشار اليها البريطاني ديكسون " (٢)

ومن جانب الحكام العثمانيين فان لهم يدا مباشرة خفية فى هذه الروح الثورية الماسونية كما قرره ديكسون القنصل البريطاني فى ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٨١م فيقول: " ان الرأى السائد الآن بشأن مصدر هذه المناشير الثورية التى ظهرت أخيرا فى أنحاء عديدة من سوريا هو أنها صادرة عن جمعية المقاصد الخيرية . ومع أن هذه الجمعية تأسست منذ سنة ونصف برعاية مدحت باشا ، وتحت هذا الاسم بالذات ، فأن بعض الناس قد أكد لي أن النقمة على الحكم والمطالبة باصلاح الحال تعودان الى حقبة تسبق ظهور المناشير بزمن طويل . ويبدو أن بعض هذا المجتمع الناقم انضم الى جمعية المقاصد الخيرية عند تأسيسها . وتحت هذا الأسم الحسن الوقع فى النفس تستطيع الجمعية أن تقوم خفية بنشاط لبلوغ أهدافها دون أن تخشى اكتشاف حقيقتها . ومن جهة أخرى فقد أخبرت بأن الجمعية الثورية هي التى تسببت فى تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ، وأن مدحت باشا كان سرا أحد أعضائها ، وأنه هو الذي أسسها ورعاها لكي يعزز نشاط الجمعية الثورية ويعضدها . ويقال فضلا عن هذا ، ان مدحت باشا لايزال على اتصال وثيق بالجمعية بالرغم من أنه الآن فى أزمير . ويقال أيضا أن له ضلعا فى توزيع هذه المناشير فى سوريا بواسطة عملائه السريين ... (٣)

وفى تركيا قامت جمعية الاتحاد والترقي وهي على مبادئ مدحت باشا من تطبيق دستوره وتنفيذ اصلاحاته الغربية كما زعم قامت هذه الجمعية خلال الحرب العالمية الأولى باهانة هؤلاء العرب المطالبين بالأصلاح كما هو مبدؤهم لتثير سائر العرب ضد العثمانيين وتفسد ذات بينهم وهم

١ــ نفس المصدر السابق، ص ١٩٨ .

٢ــ = = = ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

٣ــ = = = = ، ص ٦٥ .

في حالة حرب مع عدو للأسلام دينهم جميعا بصفة رسمية تحت اسم الخلافة المتبقى ..
ومن هذه الاهانات محاولة تتريكهم وما فعله جمال باشا في الشام من ظلم وترويع وقتل ونفي بدلا من مصالحتهم وترضيتهم واستمالتهم للجهاد معهم عدوهم المشترك ، فزادت الفتنة ، وتحركت روح الانفصال والنزاع وثارا لعرب هؤلاء ضد الأتراك بل ضد الدولة العثمانية باسم العرب فحسب (١) وفي الواقع أن الأتراك قد أسيء اليهم من قبل الطورانيين .

٣ـ وهنا تأتي خطوة يهود الثالثة عن طريق الحرب والتحريش بين الناس وتوجيه نيران الحرب ضد القيم الصالحة كما يقولون :

" فنحن نثير حملة حقد ضخمة في الشرق ضد الغرب ، وفي الغرب ضد الشرق ، وسوف نحارب الأمم التي تقف على الحياد ، فنجبرها على الانضمام لهذا المعسكر أو ذاك ، ولن ندع أحدا يقف في وجهنا اذا أراد التخفيف من شدة النزاع ... " (٢)

كيف صارت حروب التحرير القومية لمصلحة اليهود في الحرب العالمية ؟

مر بنا أن هرتزل أخفق في اقناع السلطان عبد الحميد بأن يكون حبلا لليهود يصلهم بفلسطين ومر بنا كيف عمل اليهود على اثارة جمعية الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة على الارتداد عن دين الخلافة باعتناق الطورانية والشرائع العلمانية الالحادية الاوربية وتسور الحكم واغتصابه وخلع السلطان عبد الحميد لانه يمثل السلطنة العثمانية الاسلامية ولم يبق فيه أمل لليهود يصلهم بفلسطين كسلطان للمسلمين ، ومر بنا عمل الماسون واليهود على اثارة ردود الفعل لدى العرب للقومية الطورانية المغولية بصفة متطرفة ورطتهم بمعالجة الوضع بالأسلوب القومي ذاته دون الاسلامي ، وفي نفس الوقت يتجه اليهود الى الدول الأستعمارية الكبرى والتي سبق لهم أن أغرقوها بخططهم السرية ودينونهم الربوية الاحتكارية فوجدوا في بريطانيا وهي أعظم القوى الاستعمارية الصليبية بغيتهم ، وألفوها خير حليف لهم ، ارتبطت مصالحها بمصالحهم ، وأعلن زعيمهم وايزمان ذلك الارتباط ، وانضم صراحة الى معسكرهم ، ويبين هذا تقرير بترمان سنة ١٩٠٧م المقدم الى وزارة الخارجية البريطانية والمحال الى وزارة المستعمرات من عدة دول استعمارية هي مجموعة الحلفاء في الحرب العالمية الاولى ، وهذا التقرير عن أهمية منطقة الشام وفلسطين وتخوف الاستعمار من يقظة شعب هذه المنطقة بالأسلام وهي يقظة تهدد أطماعه وتقضي على افساده حتى في دياره وقد جاء في هذا التقرير مانصه :

" ماذا سيكون عليه الحال اذا تحررت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها "عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتما بالامبراطوريات الاستعمارية وعندها تتبخر أحلام الاستعمار

١ـ أنظر زين ، في المصدر السابق ، ١١٩ ، وانظر : أحمد السباعي ، تاريخ مكة ج ٢ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، وجورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٩٤ـ٢٠٣ وهامش ص ١٨٤ـ١٨٧

٢ـ من آخر صفحة للغلاف الاخير لكتاب وليام غاي كار أحجار على رقعة الشطرنج ، وانظر : قول اليهودي الدكتور اوسكار ليفي : "نحن اليهود لسنا الاسادة العالم ومفسديه ، ومحركي الفتن فيه وجلاديه " في ص ٣ من بروتوكولات حكماء صهيون لمحمد خليفه التونسي بتقديم العقاد .

بالخلود فتنقطع أوصاله ثم يضمحل وينهار كما انهارت امبراطوريات الأغريق والرومان .

" وبناء على ذلك فان التقرير أوصى بما يلي :

١ـ أن تعمل الدول ذات المصالح الاستعمارية المشتركة على استمرار تجزؤ هذه المنطقة ... وتأخرها ، وعلى ابقاء شعبها على ماهو عليه من تفكك وجهل وتأخر وتنافر .

٢ـ وبشكل خاص أوصى التقرير "بمحاربة اتحاد هذه الجماهير أو ارتباطها بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحي أو التاريخي وبضرورة اتخاذ الوسائل العلمية القوية لفصلها عن بعضها ما أمكن .

٣ ـ وكوسيلة عاجلة أساسية لدرء الخطر نبه التقرير الى ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى . وتقترح اللجنة لذلك "اقامة حاجز بشرى قوى وغريب يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقية ويربطهما بالبحر المتوسط بحيث تشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للأستعمار وعدوة لسكان المنطقة " (١)

" ولقد انضمت أمريكا الى هذا الاتجاه بدافع من الصهيونية أيضا التى لها نفوذ فى البيت الأبيض " (٢)

فجاءت الحرب العالمية عام ١٩١٤م يوقدها اليهود من الداخل ومن الخارج بين ألمانيا ومعها تركيا ومن انحاز اليهما وبين بريطانيا ومن تحالف معها من الحلفاء . يقول السلطان عبد الحميد فى مذكراته : " أسقطنى اتحاديوا سلانيك عن العرش ، وتوصلوا الى اتفاقية مع الانجليز ، ودخلوا الحرب كحليف مع دولة البحار (ألمانيا) ، وكأن المسألة حلم " .(٣)

واستهوت انجلترا الشريف حسين ونفخت له فى صورة المروءة حتى أصبحت فى عينيه مهوى الفؤاد ووعدته بوصلها وأن تعترف له بزعامة العرب وأن يكون خليفة عربيا على المسلمين ، فقد كان مختار الاتحاديين لأمارة مكة رغم علمهم بكراهية السلطان عبد الحميد لذلك لأنه تفرس فيه نوايا انفصالية عن السلطنة (٤)

وقد كان عمه الحسين بن محمد بن عون كما يقول السباعي المكي مشتركا فى الثورة الاتحادية وأنه كان على رأيهم فى هيمنة الدستور وامتداد نفوذه ويعتنق مبادئهم الدستورية وأنه مختار الاتحاديين لامارة مكة على اثر انقلابهم على السلطان عبد العزيز عم السلطان عبد الحميد (٥)

١ـ دكتور أحمد شلبى ، مقارنة الأديان ، اليهودية ، ص ٩٩ وما بعدها ، وعلي عبدالله وزملاه ، القومية العربية للصف الثالث الثانوى ، ص١٥٦ ومابعدها .

٢ـ دكتور شلبى ، المصدر السابق ، ص ١٠١ .

٣ـ مذكرات السلطان عبد الحميد ، المجتمع ، ٢١ /من ذى الحجة/ ١٣٩٥هـ عدد ٢٧٩ ص٣٨ .

٤ـ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص١٧٨ .

٥ـ أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ج ٢ / ١٦٨ ، ١٦٩ . وانظر مذكرات السلطان عبد الحميد ، مجلة المجتمع ، عدد ٢٧٩ ، ٢١ /من ذى الحجة/ ١٣٩٥هـ ص ٣٧ .

وكانت محادثات بريطانيا المخادعة ترمي الى فل جمع المسلمين وتخاذلهم عن الجهاد في سبيل الله كما يشهد : جورج أنطونيوس بذلك في كتابه : " يقظة العرب " ومن هذه الشهادة قوله بالحرف الواحد : "لعل كتشنر كان أكثر ساسة الحلفاء ادراكا للأخطار الناجمة عن الموقف في البلاد العربية ، وسيبقى له ولرونالد ستورز الفضل في أنهما أول من فكر في مواجهة هذه الأخطار بخطوتهما الجريئة بعقد حلف مع مكة ...

" وكانت خطوة كتشنر لضمان تأييد الشريف قبل فوات الفرصة ، ضربة معلم ، تدل على الذكاء وبعد النظر . (١)

" فهو (الشريف) حفيد النبي ـ والقيم على الأماكن المقدسة ....

" ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصم أذنيه عن ندائه وخاصة اذا كان عربيا .

" وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس أن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر . وهكذا فأن مؤازرته في أمر كالدعوة للجهاد كانت عاملا مهما بل عاملا حاسما .

"لم يكن ثمة شخص غيره يستطيع أن يجرد الدعوة الى الجهاد من قوتها الأساسية حينما يمتنع عن تأييدها " (٢)

" بذلت السلطات البريطانية في مصر كل مافي وسعها لتفادي مخاطر الدعوة الى الجهاد . وكان الرجلان القائمان بالجهود الرئيسية في بداية الأمر ، هما : السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني مستر رونالد ستورز ، ومدير المخابرات العسكرية في القاهرة المقدم : ج . ف . كلايتون ، وفي كانون الثاني يناير ١٩١٥م تسلم سير هنري مكماهون عمله مندوبا ساميا في مصر والسودان . وكان سير ريجنالد ونجت ـ كما مرينا ـ حاكما عاما للسودان ومقر قيادته في الخرطوم . وحمل هؤلاء الرجال الاربعة العبء الاكبر من هذا العمل الشاق " (٣)

فجرت المراسلات والاتصالات والعروض والوعود بين كتشنر وبين الشريف حسين ثم بين الشريف حسين وبين مكماهون ومن أمثلتها : مذكرة الشريف حسين الأولى الى مكماهون من مكة في الثاني من رمضان ١٣٣٣هـ ، ١٤ يوليه ١٩١٥م يبين فيها بيانه أن العرب بأجمعهم دون استثناء قرروا في الأعوام الاخيرة أن يعيشوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بأيديهم ، وأن مصلحة بريطانيا العظمى أن تعاونهم ، ومن مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى ، وأن الشعب العربي يسأل الحكومة البريطانية أن تصادق على الاقتراحات الأساسية وعددها ومنها :

---

١ ـ ص ٢٢٠ .
٢ ـ ص ٢٢١ .
٣ ـ ص ٢٤٥ .

١ــ أن تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية ماعدا عدن فتبقى على حالها .
٢ــ أن توافق انكلترا على اعلان خليفة عربي على المسلمين .
٣ــ تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية .
٤ــ تتعاون الحكومتان في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين بالقوة العسكرية برا وبحرا وجوا .(١)

ثم ورد الرد وهو مذكرة المندوب مكماهون الأولى من القاهرة في ١٩ شوال ١٣٣٣هـ ، ٣٠ من أغسطس ١٩١٥م مفتتحا بما يلي :

"الى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الاشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد بن السيد ، والشريف بن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتيلو الشريف حسين سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائفين عمت بركاته الناس أجمعين "(٢)

وورد في هذه المذكرة أن مكماهون يستصوب "الخلافة العربية عند اعلانها " .

"ان جلالة الملك بريطانية العظمى يرحب باسترداد الخلافة الى عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة " (٣)

واستمرت المراسلات بين الشريف حسين وبين مكماهون الى أن تم الاتفاق بين الطرفين على عدم تلبية الشريف دعوة الجهاد من تركيا بل والثورة عليها وخوض الحرب في سبيل العرب

وقد أورد جورج أنطونيوس هذه المراسلات في كتابه : يقظة العرب ، وهي الملحق (أ) من ص٥٤٣ ــ ٥٧٧ ، معتمدا كتاب " الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين " المجموعة الأولى (١٩١٥م ــ ١٩٤٦م) الذي أصدرته الامانة العامة لجامعة الدول العربية " ، وقد أيد نسبتها وقابلها بأصلها المترجم : الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عباس ، أنظر : هامش ص ٢٥٥ــ٢٥٧ ، وهوامش الملحق (أ) المذكور .

واتصلت بالشريف حسين أيضا الجمعيات السرية في الشام تؤيده قائدا للثورة العربية ضد العثمانيين ، واليهود من وراء بريطانيا تدفعها للحرب وتمولها ومن وراء جمعيات العرب والترك القومية بماسونيتها توجهها وتسيرها بفكرها الشيطاني حتى ثوروا الشريف باسم العرب على مسمى الخلافة فشطروا معنوية الجامعة الأسلامية ومزقوا ولاء المسلمين للخلافة الواحدة وأبطلوا مفعول الدعوة الى الجهاد في سبيل الله باغواء هؤلاء القادة فالأتراك ينضمون الى ألمانيا يقاتلون في صفها وتحت رايتها وهي راية قومية عمية جاهلية ، والشريف ومن معه من العرب ينضمون الى انجلترا يحاربون في صفها وتحت رايتها في سبيل القومية العربية واليهود

١ــ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٥٤٥ــ ٥٤٧ .
٢ ــ المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .
٣ــ = = = ، ص ٥٤٩ .

من وراء راية بريطانيا ومن وراء راية ألمانيا وفى داخل القومية العربية والشيطان قد استحوذ على اليهود فصاروا يحركون هذه الكتل البشرية المستجيبة لهم كلاعب الشطرنج ، وحار المسلمون بين هذه الفتن التى كقطع الليل المظلم ، يقول ليمان ساندرز فى كتابه " خمس سنوات فى تركيا " :

"ان الجهاد الذى أعلنته تركيا كان أمرا بعيدا عن الواقع ، ذلك لأن الأتراك كانوا حلفاء دول مسيحية ، وكان ضباط ألمانيون ونمساويون يعملون فى الجيش التركي "(١)

وكذلك تقول خالدة أديب ولها محاضرات فى الجامعة الملية (٢) وعلى مايظهر من قولها الآتي أنها تركية وهذا نص قولها :

"من مهازل القدر أنه كان فى الجيش الفرنسي جنود مسلمون يحاربوننا وكذلك كان فى الجيش الروسي ، فى حين أن رعايا تركيا المسلمين ، خصوصا العرب ، كانوا مرتبطين بالمعسكر المعادى لنا " (٣)

وكانت النهاية أن "اقتحم الجنرال اللنبى مدينة القدس من باب الخليل وقال عبارته المشهورة : الآن انتهت الحروب الصليبية .. " (٤)

والتقى الجنرال اللنبى بلورانس العرب الذى يسير على خطى هرتزل فى سوريا وأيده على اجراءته بجيش فيصل العربي الفاتح لدمشق. يقول لورانس :

بصفتى مندوبا لفيصل فاجأت الحاضرين بأعلان عزل حكومة دمشق المحلية التى شكلها الجزائريان بالأمس وبتعيين شكرى باشا الايوبى حاكما عسكريا ونورى السعيد قائدا عاما للقوات المسلحة ، وعزمي باشا نائبا له وجميل مديرا للأمن العام " (٥)

" ولما عدت الى الفندق وجدته محاطا بجماهير غفيرة وأمامه سيارة (رولز) طحينية اللون سرعان ماتعرفت بأنها سيارة الجنرال اللنبى . فأسرعت الى الداخل لأجده فى انتظارى مع كلايتون ، وكورنواليس وغيرهم . وبكلمات قليلة أعلن اللنبى موافقته على مااتخذته من اجراءات فى درعا ، ودمشق ، وأقرني على تعيين شكرى باشا الايوبى حاكما عسكريا لدمشق تحت امرة فيصل القائد العام للقوات العربية . ثم حدد الدائرة العربية ، ودائرة نفوذ (شوفيل) كما وافق على

١ــ نقلا عن زين نورالدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص١٢٢ .
٢ــ أبوالحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، هامش ص ٢٠٠ .
٣ــ نقلا عن زين ، المصدر المذكور ، ص ١٢٢ .
٤ــ عبد الله التل ، خطر اليهودية العالمية على الأسلام والمسيحية ، ص٢٣١ .
٥ــ ت٠ ٠ لورنس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ص٢٩٦ .

أن يأخذ على عاتقه مهمة تسيير سكة الحديد وادارة المستشفى وفى لحظات معدودات ذللت كل العقبات التى كانت تقلقنى فقرت عينى أخيرا بالنجاح الذى أحرزته رغم كل الصعوبات" (١)

ورفع الجنرال اللنبى الى وزارة الحربية البريطانية شهادة عن أعمال الجيش العربى بتاريخ ١٩١٨/٧/٢٨م جاء فيها قوله: "أشكر لجلالة الحسين بن علي ملك الحجاز اخلاصه العظيم لقضية الحلفاء . ولاأملك نفسي من توجيه عاطر الثناء الى سمو الامير فيصل لما أظهره من براعة فى القيادة ولأخلاصه القلبى ولما أبداه من بسالة ومهارة فى الأعمال الحربية التي قام بها الجيش العربي . وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة فى الحصول على نتائج فاصلة فى الحرب" (٢)

حقيقة الثورة العربية!

يكشف لورنس حقيقة الثورة العربية وهوالموجه لسيرها من جدة حتى دمشق ويحدد علاقته فيقول: "لقد طلب منى أن أعيش مع هؤلاء العرب كرجل غريب ، لايقدر أن يجاريهم فى معتقداتهم وتفكيرهم ، وكنت مضطرا لتدريبهم وتوجيههم فى الاتجاه الذى ينسجم وسياسة بريطانيا المحاربة ... (٣)

"لم أجد لدى العرب سوى أثر ضعيف للتعصب الدينى . فقد رفض الشريف مرات عديدة أن يصبغ ثورته بالطابع الدينى فحقيقة ثورته كانت قومية.

"والعشائر كانت تدرك أن الأتراك من المسلمين وأن الأنكليز مسيحيون ولكن بالرغم من ذلك فقد ثاروا على الأتراك وارتضوا صداقة المسيحيين ومحالفتهم . فالعرب يريدون حكومة مستقلة تدافع عنهم وعن حقوقهم وقوميتهم وتفسح لهم مجال العيش بسلام" (٤)

وهذا ماكان يؤمن به لورانس وبريطانيا من قبل بعد أن اكتشفوه عن طريق تجسساتهم ولولاه ماهموا بفتنة العرب يقول لورانس:

"لقد كنت مؤمنا بالحركة العربية ايمان عميقا ، وكنت متأكدا قبل أن آتي الى الحجاز أن هذه الفكرة ستمزق تركيا وتقضي على امبراطوريتها" (٥)

ولورانس هذا هوالذى قال فيه وايزمان فى مذكراته ص ٤٥-٤٦ما نصه:

" ويقضى علي الواجب وأنا أبحث تاريخ الملاقات بين العرب واليهود ، أن أثنى هنا الثناء العظيم على الخدمات التى قدمها "لورانس" للقضية اليهودية ، لقد عرفت لورانس وقابلته مرات عديدة فى مصر، وقد كان يتردد بعد ذلك على منزلي فى لندن من غير رسميات ولاكلفة

" وكان موقف لورانس من الصهيونية موقفا ايجابيا ، لاشك فيه ، وكان من الخطأ البالغ أن الكثيرين كانوا يتصورون أن لورانس عد وللصهيونية بحكم أنه كان صديقا للعرب" (٦)

١- ت.ا. لورانس، أعمدة الحكمة السبعة ، ص ٢٩٩ ومابعدها .

٢- عبد الله التل ، خطر اليهودية .. ، ص ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

٣- ت.ا. لورانس، أعمدة الحكمة السبعة ، ص ٩.

٤ ، ٥ - المصدر السابق، ص ، ص ، ٤٨ ، ٤٩ .

٦- نقلا عن الدكتور أحمد شلبى ، من كتابه: اليهودية ، ص ١٠٦ .

وتلك الصداقة التى يذكرها وايزمان للعرب من لورانس يحددها لورانس بنفسه بقوله السابق ذكره هنا : " لقد طلب منى أن أعيش مع هؤلاء العرب ... الخ الى قوله : " لقد نجحت على الأقل فى اخفاء شخصيتى عنهم ... " (١)

أما وايزمان فيذكر الدكتور أحمد شلبى أنه يشرح فى مذكراته نقطة خطيرة هي اجتماعه بالأمير فيصل بن الملك حسين سنة ١٩١٨م وتأثيره فيه "

ويردف شلبى بقوله :

"وفى ٣ يناير سنة ١٩١٩م حصل وايزمان على اتفاق مع فيصل يعترف فيه بوعد بلفور، ويمد بأحسن العلاقات بين الدول العربية التى ستنشأ فى الشرق وبين فلسطين ، وبعد شهرين عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله الى القاضى الصهيونى "فيلكس فرانكفورتر" عضو الوفد الصهيوني الى مؤتمر فرساى بفرنسا " (٢)

وقد نشر نص اتفاقية فيصل ـ وايزمن جورج انطونيوس، فى كتابه : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد ، الدكتور احسان عباس ، وهي الملحق (و) ، ص ٥٩٢ ـ ٥٩٥ ، ويقول المترجمان ، فى الهامش : " اعتمدنا الترجمة الواردة فى كتاب "الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين " (المجموعة الأولى ١٩١٥م ـ ١٩٤٦م) ص٢٧٦ . "

وفيها التزام المملكة العربية الحجازية بتمثيل فيصل بن حسين والقائم بالعمل نيابة عنها للمنظمة الصهيونية بتمثيل حاييم وايزمن والقائم بالعمل نيابة عنها باتخاذ جميع الأجراءات التى من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ فى اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧م . واتخاذ جميع الأجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على مدى واسع وبأقصى مايمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين عن طريق الأسكان الواسع والزراعة الكثيفة .

واحالة كل نزاع قد يثار بين الفريقين الى الحكومة البريطانية للتحكيم . ووقع فى لندن ، انجلترا .

وفاء الحلفاء :

بعد أن انتصرت انجلترا وحليفاتها وحصلت على مساعدة الجيش العربى العظيمة بابطال الدعوة الى الجهاد فى سبيل الله أو عدم الاستجابة لها أولا وبقطع مواصلات العثمانيين قبل القتال ومعا ونتها فى أثناء الزحف على دمشق ، والمرابطة على الطريق الذى تقهقر منه الجيش العثماني شمال درعا فحال دون فرار جانب منه وانزال الخسائر الفادحة بالدولة العثمانية ، كما هو تقرير الجنرال اللنبى الأخير النهائى الذى رفعه الى وزارة الحربية البريطانية فى اكتوبر ١٩١٨م (٣) بعد أن حصل الحلفاء على هذا أسفرت الحقيقة عن عداوتهم التى ألبسوها ثياب الصداقة وأردية الوفاء واذا حقيقتهم أعداء يمكرون ومستعمرون طامعون ، فقد نبذت

---

١ ـ ت . ١٠ . لورانس، أعمدة الحكمة السبعة ، ص٩

٢ ـ الدكتور أحمد شلبى ، اليهودية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣م، ص ، ص ١٠٥، ١٠٦ .

٣ ـ انظر: عبدالله التل ، خطر اليهودية ... ص ٢٣٨ .

بريطانيا العظمى الشريف حسين بعد أن استوفت فائدته واستغلت مكانته ومقامه في هدم الخلافة وتخذيل المسلمين عن الجهاد رغم ما كانت تضفيه عليه من ألقاب الفخار وصفات المجد ، ورغم ظهورها له بمظهر المشفق الناصح المخلص ، كما تدل عليه مراسلات مكماهون له ، وهذه افتتاحية الرسالة الثانية من مكماهون اليه في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣هـ

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الى فرع الدولة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزاً منيعاً للأسلام والمسلمين بمنه تعالى آمين وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه ... الخ (١)

وهذا الاسلوب المضحك يذكرنا بما ينهجه الماسونيون في حالة اصطيادهم وحالة تمام الاصطياد وقد رسمه حكماء صهيون السفهاء في بروتوكولاتهم ففي البروتوكول الخامس عشر مانصه :

"والأمميون يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان ونحن نوزعها جزافا بلا تحفظ ... لكي نوجه لخدمة مصالحنا من تتملكهم مشاعر الفرور ، ومن يتشربون أفكارنا عن غفلة واثقين بصدق عصمتهم الشخصية ، وأنهم وحدهم أصحاب الآراء وأنهم غير خاضعين فيما يرون لتأثير الآخرين . وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمهر الاميين الى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بأثارة غروره واعجابه بنفسه ، وكيف يسهل ـ من ناحية أخرى ـ أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له ..." (٢)

لقد لقي حسين من بريطانيا العظمى تهليلات النجاح واستقلال بلاد العرب تحت خلافته على المسلمين فلما انجزت به مرادها أصدرت وعد بلفور بمنح اليهود فلسطين سنة (١٩١٧م) بل حققته بالقوة ، ووقعت قبل ذلك بعد وعدها لحسين اتفاقية سايكس ـ بيكو بينها وبين فرنسا لاقتسام بلاد العرب . وكانت بريطانيا العظمى أقدر الدول الاستعمارية على تنفيذ تقرير بترمان رئيس وزرائها (١٩٠٧م) ، وظهرت بريطانيا العظمى أقوى سند للصهيونية حتى أن الصهيونية وسيلة الوصول الى رئاسة وزرائها يقول وليام غاى كار :

"بعد عام ١٩٥٤م ... أعلن رئيس الوزراء تشرشل (خلال اجتماعه ببرنارد باروخ) وصرح قائلا : " أنا صهيوني وقد عملت من أجل تقدم الصهيونية " (٣)

وبذلت بريطانيا ومثيلاتها من دول استعمارية كثيرا في بث أفكار الفرقة والتناحر بين العرب وبين أنفسهم وقد كانوا بالأمس حلفاء فاذاهم دعاة الى الوثنية الجاهلية باسم الاهتمام بالآثار وتعظيمها وبعث التراث . وعن طريق المستشرقين وعلماء الآثار والمبشرين وغيرهم تحشد الجهود لبعث الدوارس الجاهلية ونبش القبور وحفر المدافن تنقيبا عن الفوارق في المادات واللغات والأوطان

١ـ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية ، الملحق (أ) ص ٥٥٥ .
٢ـ محمد خليفة التونسي ، الخطر اليهودي ، الطبعة الخامسة ، ص ١٥٣ .
٣ـ وليام غاى كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ، هامش ص ٢٢٣ .

والاجناس بغية تعميق الأحساس وتضخيمه بالفوارق الشخصية حتى يطغى هذا الاحساس الى حد التفريق بين المتماثلات والتسوية بين المختلفات من غير اعتدال فى كتاب : التبشير والاستعمار للدكتورين : مصطفى خالدى وعمر فروخ وفى آخر الفصل السابع منه قالا :

" عمدوا فى كل بلد الى أقلية غير مسلمة فى الأكثر وحاولوا أن يضموا اليها أحيانا نفرا بارزا من المسلمين ... ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية جديدة ، لقد أرادوا أن يبعثوا "الفرعونية" من خلال حجارة الاهرام فى مصر ، و"الفينيقية" من خرائب الساحل الممتد من يافا الى اللاذقية على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ... " (١)

ويقول الدكتور محمد محمد حسين بعد أن ذكر اهتمام الامريكيين ببحث الآثار الجاهلية وانشاء المتاحف الوطنية :

"هذا الاهتمام الشديد بالآثار يذكرنا بالنشاط المفاجىء لبعوث الآثار الأجنبية عقب الحرب العالمية الأولى ، وماصحب هذا النشاط من عرض روكفلر المغرى المريب ، فقد أعلن هذا الثرى الأمريكي وقتذاك تبرعه بعشرة ملايين دولار لأنشاء متحف للآثار الفرعونية يلحق به معهد لتخريج المتخصصين فى هذا الفن ، ويذكرنا هذا الاهتمام الأمريكي الجديد أيضا بالمادة (٢١) من صك الانتداب بريطانيا على فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو الصك الذى أصدرته العصابة التى كانت تسمى وقتذاك بعصبة الأمم .

" تنص المادة الحادية والعشرون منه على "أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ فى السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانونا خاصا بالآثار والماديات" (٢)

هكذا تعمل الصهيونية بعد استفادتها من الدعوة الى القومية العربية وانتهاء الغرض منها تركلها بكل قواها وتبذل كل جهدها لمنع الاتحاد ولوعلى أساسها رغم علمها بماهيتها ، حتى اذا عاد العرب الى ذكرى الاسلام سرعان ماينفخ الصهاينة فى العروبة ويذكوا روح القومية العربية يقول مؤلفا التبشير والأستعمار :

"لقد أريد من العروبة أن تكون رابطة قومية مناقضة للأسلام ، سياسة العروبة لاصلة لها بالأسلام والمسلمون من غير العرب لاصلة لهم بالعروبة" (٣)

ولايزال الصهاينة يوقدون حرب الاسلام بالعرب ونسبهم القومي يقول الاستاذ ساجد كيلاني فى كتابه : "الخطر اليهودى على العالم الأسلامي" :

١ــ ص ١٧٤ .

٢ــ حصوننا مهددة من داخلها ، (فى أوكار الهدامين) ، ص ، ص ٣٣ ، ٣٤ وماقبلها .

٣ــ ص ١٧٥ ، وتتمة قولهما : " ومما يؤسف له أن نفرا من الشبان العرب قد اعتنقوا فكرة العروبة المجردة من الأسلام ، ثم أخذوا وهم يدعون للعروبة يقاومون الحركات الأسلامية "

" فى الشهر الأخير لعام ١٩٦٧م عند ماكان أباايبان وزيرخارجية اسرائيل يحضر جلسات الأمم المتحدة التى تناقش العدوان الصهيوني ، ألقى هذا الصهيوني الأفاك محاضرة فى جامعة برنستون الامريكية ومما قاله فيها : " يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف على نسبه الأسلامي بعد الهزيمة ، وفى ذلك الخطر الحقيقي على اسرائيل ، ولذا كان من أول واجباتنا أن نبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لاالأسلامي " (١)

ويتابع الأستاذ كيلاني بيانه عن خوف الصهيونية الحق من الاسلام فيقول :

" وقد كتبت جريدة الديلي تلغراف الصادرة في ١٩٦٧/١١/١٤م : " ان الأمر الذى يخشاه مؤيدوا الحكومة المصرية والثوريون المتطرفون على السواء هو محاولة احياء جماعة الاخوان المسلمين المتصلبة نظرا لانها ستخلق ردا عاطفيا اسلاميا ضد الصهيونية " (٢)

لاشك أن اليهود حاربوا الأسلام فكريا بالقومية ... فى الشعوب الاسلامية ، لتتفرق ، فتكون شيعا يذيق بعضها بأس بعض ، وفى العرب خاصة ليحاربوا عزهم ومبرر نصرهم .

وكما فعل اليهود فعل النصارى فقد تظافرت جهود الغرب الصليبية مع شاترا لصليبيين على ذلك خدمة للصهيونية التى اشتبكت بمصالحهم الاستعمارية واستحوذت على وجودهم الصليبى والمبشرين جهود عاونت الاستعمار الغربي أيما عون فى بعث القومية العربية ، وفى الفصل التالي وهو دور النصارى بيان عن جهود الأرساليات التبشيرية المتواصلة ومعاهدها وكلياتها ومابذلت من أموال وتضحيات ، وما اعتمدت عليه من المغالطات والتغريرات لترويج فكرة القومية العربية وتخريج أفواج القوميين العرب ، وانشاء الجمعيات السرية والعلنية والتوسل بالماسونية لتنفيذ الفكرة القومية العربية فى الحياة بعد اخراجها عن الاسلام الطوعي ، لتحل القومية فى الحياة بدلا من الاسلام .

... ...

١ــ ص ٣٢٨ .

٢ــ نفس الصفحة .

الفصل الثالث

دور النصارى فى نشوء الفكرة القومية عند العرب ... وأهدافهم

فى مطلع هذا الفصل أثبت وثيقة لنمهد له بما نعرفه منها وهو مدى ماوصلت اليه مشاعر الأمم النصرانية منذ القدم نحو العثمانيين فى حالة عزهم بالأسلام ، وأنهم يسمونهم بالأتراك نفورا من صبغة الأسلام ، ولما يحصل من ايحاء ظهر أثره فى نفوس معتنقي القومية حين تاهوا بها وأوهموا أنها سر شجاعتهم وسيادتهم ، ومن هذه الوثيقة نتبين سر هوى النصارى فى بث فكرة الانفصال عن العثمانيين بالولاء القومي لا الأسلامي ، وخاصة فى العرب.

يقول زين نور الدين زين :

" كان لاحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، وما تلاه من توسع فى الفتوحات العثمانية المذهلة فى أوربا ، وفى منطقة الشرق الأدنى ، فى أثناء النصف الثاني من القرن الخامس عشر والربع الاول من القرن السادس عشر وقع عميق فى كل العالم المسيحي ... البابا ومجمع الكرادلة ، والامراء المسيحيين ، اذ ظهر هول الخطر الذى كان يتهددهم . ولذا تتالى عقد المؤتمرات فى روما لبحث الخطر ... ولاقتراح "القيام بعمل ما" ...

" فى ١٦ نيسان ١٥٢٣ م بعث شارل الخامس الى سفيره فى انكلترا برسالة يقول فيها :

"نبعث اليك بكتاب اعتماد خاص مرسل الى هنرى وولز ترفعه اليهما أولا ... وعليك أن توضح للملك وللكاردينال مبلغ الخطر الذى يتعرض له العالم المسيحي والذى نشأ عن سقوط جزيرة رودس بيد الأتراك . ونكاد نعتقد أن الأتراك سينوون مهاجمة العالم المسيحي هذه السنة وستكون أرض المعركة اما فى ايطاليا أو فى هنغاريا أو فى البلدين معا وفى الوقت ذاته . ومن الراجح لدينا أن ضربتهم ستكون موجهة ضد ايطاليا ، وسينقضون علينا وعلى مملكتنا من ناحية نابولي وصقلية ، وبالتالي سيهاجمون ممتلكات الكنيسة واماراة الحكام المسيحيين ولكن أنى هاجم الأتراك فى العالم المسيحي فأن ذلك من شأنه أن يعرض كرامتنا بصفتنا امبراطورا وحاميا للكنيسة ، الى الأمتهان كما أنه يعرض كرامة أخينا حامي الأيمان اذا نحن تغاضينا عن مثل هذا التعدى فى حياتنا واذا سمحنا للمعتدو بأن يقوم بمثل هذا العمل العدائي فأنه سيكون بمثابة وصمة عار تلحق بنا الى الأبد ، هذا فضلا عما سنتعرض اليه من بؤس وشقاء . أما من جهتنا فأننا نتردد كثيرا فى أمر ايقاف الحرب التى أعددنا لها ضد فرنسا ، ولكن الآن ، وبالنظر الى الضرورة القصوى للوقوف فى وجه الأتراك ، ذلك الخطر الذى نشعر بأن مسؤوليته تقع على عاتقنا ، فأننا سنسأل الفرنسيين اذا كانوا يرون رأينا فى أن الحكمة تقضى الآن بعقد هدنة لمدة سنوات عديدة ... أما فيما يتعلق

بعقد هذه الهدنة فيجب اعداد معاهدة ، اذا كان الأمر ميسورا ، للدفاع عن القسطنطينية ضد هجمات الأتراك ... (١)

البدايـــة :

تبدأ فكرة القومية العربية ببداية فترة المدارس التبشيرية والجمعيات الأدبية والعلمية النصرانية سنة (١٨٣٤م) الى سنة (١٨٦٨م) على أيدى النصارى ، ونصارى العرب هم أول من حمل فكرة القومية العربية ونشرها لمصلحتهم ، ولغبن المسلمين ومضرتهم ، وينصف من استشهد على القوم بشاهد منهم ، وهذا جورج أنطونيوس ، ولد فى لبنان (١٨٩٢م) وتخرج من جامعة كمبردج بأنجلترة وعمل فى بلدية الأسكندرية وانتقل الى فلسطين والتحق بدائرة المعارف ، وتوصل الى منصب مساعد مديرها العام ، أسهم بعد تركه العمل الحكومي فى خدمة القضايا العربية وفى الدفاع عن القضية الفلسطينية كتابة وتأليفا واشتراكا فى المؤتمرات والمباحثات التى كانت تعقد آنذاك ـ هذا على حد التعريف به المرسوم على صفحة ٧ من مؤلفه الذى نعتمد شهادته منه وهو كتاب: " يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية قدم له الدكتور : نبيه أمين فارس وترجمه الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عباس ، وطبع بدار العلم للملايين الطبعة الثانية ، ونشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت ـ نيويورك ١٩٦٦م ، وفيه أن جورج أنطونيوس توفي فى القدس سنة ١٩٤٢م .

ومما يذكر أنطونيوس فى مقدمته : أنه فحص مصادر موضوعه جميعها سنوات عدة قضاها فى البحث فى المكتبات الاوروبية والامريكية ، وبذل جهدا كبيرا فى الرحلة والتقصى الشخصي فى البلاد العربية . وعني عناية خاصة بالحصول على معلومات من الأشخاص الذين كانوا ذوى دور عملي فى توجيه الحركة أو بعض حوادثها البارزة . (٢)

يقول جورج أنطونيوس عن بداية حركة القومية العربية مانصه :

" بدأت قصة الحركة القومية للعرب فى بلاد الشام سنة ١٨٤٧م بانشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء فى بيروت ، فى ظل رعاية أمريكية " (٣)

وهذه الحركة القومية هي نتيجة من نتائج البعثات التبشيرية الغربية ، التى يرجع وجودها فى بلاد الشام الى مطلع القرن السابع عشر الميلادى (٤) والتى فتح لها الباب تسوية ابراهيم باشا ١٨٣٣م بين النصارى والمسلمين والغائه جميع ماكان يسرى على النصارى وحدهم ، ولكنه بعمله هذا نفر المسلمين عنه وأتاح لهم عوامل جديدة للثورة عليه (٥)

ويقول جورج مانصه : " كان من نتائج التسامح الذى تميز به حكم ابراهيم نتيجة لم تخطر

١ـ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص١٤ .

٢ـ ص٦٨ . ، ٣ـ ص ١٧٠ ، ٤ـ ص ٩٧ ، ٥ـ ص ٨٨ ، ٩٥ .

على الهال من قبل : فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية ، وبذلك أتاح العمل لقوتين : احداهما فرنسية والأخرى أمريكية ، قدر لهما أن تحضنا البعث العربي وترعيناه " (١)

"وقد بلغت العوائق التى اعترضت طريق البعثات التبشيرية الأجنبية قبل الفتح المصرى ، (بقيادة ابراهيم) لبلاد الشام مبلغا ـ ان لم يعطل جهودها تعطيلا كاملا ـ فقد حصرها فى أضيق نطاق"

" فلما جاء ابراهيم ، أحدثت سياسته فى الحكم كثيرا من التغييرات ، فتح المجال بذلك أمام البعثات التبشيرية الأجنبية . فتقاطر المبشرون على بيروت ومنها انطلقوا الى جميع أنحاء الشام وكانت سنة ١٨٣٤م سنة تحول ، ففيها عاد اليسوعيون ، ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا الى الفئة القليلة التى سبقتهم ، وبدأ التنافس على النفوذ والغلبة ... " (٢)

التعليم التبشيرى :

يقول جورج عن المبشرين الأمريكان : " وكان لجهودهم أينع الثمرات ...

" وأدركوا ما كانت تحتاج اليه البلاد ، قبل كل شيء هو نظام تعليمي يلائم تراثها ...

"وكان أولى الأمور بالتقديم تأليف كتب العربية وكتب مدرسية مختصرة ، فعزم ايلي سميث وزملاؤه على أن يتولوا ذلك ، وانكبوا على تعلم اللغة العربية خلال الزمن الذى استغرقه نقل مطبعتهم من مالطة الى بيروت . ولم سوى سنوات قليلة حتى استطاعوا أن يسدوا بما طبعوا من كتب حاجة المدارس التى أنشأوها ، بل لقد زودوا المدارس الأخرى بهذه الكتب ...

" أصبحت المطبعة الأمريكية ... تستطيع أن تقوم بأعباء مشروعات واسعة فى الطباعة العربية وخاصة اخراج الترجمة الجديدة للتوراة ... "

" واستثمر المبشرون الأمريكان جهود اثنين من العلماء هما : ناصيف اليازجي وبطرس البستاني فعهدوا اليهما بتأليف كتب مدرسية مختصرة فى شتى الموضوعات ، وما كاد يتم تأليف هذه الكتب واقرارها حتى طبعوها فى مؤسستهم ووزعوها على جميع أنحاء البلاد . (٣)

"وفى الوقت نفسه كان المبشرون جادين فى افتتاح المدارس فى أنحاء متعددة من بلاد الشام وكانت أولى منشآتهم فى بيروت والقدس وجبل لبنان ...

١ـ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٩٧ .
٢ـ المصدر السابق ، ص ٩٩ .
٣ـ المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

" وبعد أن حلوا مشكلة الكتب المدرسية ، اعترضتهم مشكلة أخرى هي تخريج المعلمين المؤهلين فوجدوا لها حلا في تحويل المدرسة العالية التي أسسوها في بلدة عبية بجبل لبنان الى كلية لأعداد المعلمين وتدريبهم . وما أن وافت سنة ١٨٦٠م حتى كانوا قد أسسوا ثلاثا وثلاثين مدرسة تضم نحو ألف تلميذ ، خمسهم تقريبا من البنات. وتوجوا أعمالهم في ميدان التربية والتعليم بانشاء الكلية البروتستانتية السورية في بيروت سنة ١٨٦٦م (١)

" وما أن حملوا عبء التدريس بها حتى أخذوا على عاتقهم واجب اصدار الكتب الملائمة . وكانوا في هذه الرواد الأوائل . وبذلك كان لجهودهم أكبر الفضل فيما تميزت به الحركات الأولى للنهضة العربية من جيشان فكري .

" ولم تكن البعثات التبشيرية الكاثوليكية أقل نشاطا من منافستها البعثات المشيخية ... (٢)

" وكان اليسوعيون أكثر هذه البعثات التبشيرية الكاثوليكية الأجنبية الأخرى . فضلا عن اللعازريين الذين أعادوا افتتاح كليتهم في عين طوره وأنشأوا مدرسة في دمشق أسست راهبات المحبة ، والمنظمات الدينية الأخرى مدارس للبنات وصغار البنين في بيروت وبعلبك ودمشق وفي مناطق متعددة من جبل لبنان . (٣)

وأنقل عن الدكتور زين نور الدين زين وهو أستاذ مرضي لتاريخ الشرق الادنى الحديث في الجامعة الأمريكية في بيروت من كتابه : نشوء القومية العربية ، نبذة صغيرة عن المناهج التي كانت تتبعها الأرساليات التبشيرية فيها وفي مدارسها وقد أثبت ذلك كما يقول من برنامج الكلية السورية الأنجيلية في مكتب التسجيل في الجامعة الأمريكية يقول :

" فالتركيز الأول في المناهج كان على اللغة والأدب والرياضيات ...

" وطبيعي أيضا أن يكون هناك تعليم ديني (نصراني) الى جانب هذه المواضيع . ومثال على ذلك منهاج الكلية السورية الانجيلية في سنتها الأولى ١٨٦٦م ـ ١٨٦٧م ، فهو يشمل تدريس اللغات ومنها العربية والانكليزية ... وتاريخ العرب القديم ، وتاريخ الديانات والتوراة ... (٤)

ويقول زين : " وكانت أسئلة التاريخ في الامتحان للسنة الرابعة على هذا النمط :

من هم الهكسوس ؟ (دولة الرعاة) ومتى احتلوا مصر؟ (يعني الفراعنة)

" ماهي الأدلة على أن بلاد بابل كانت أقدم بلد عمره الأنسان ؟ كيف نشأت دولة آشور ؟ وكم من الزمن دام حكمها ؟ . (٥)

١ـ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ١٠٦ .
٢ـ المصدر السابق ، ١٠٧ .
٣ـ == == ، ١٠٨ .
٤ـ زين ... ، نشوء القومية العربية ، ٥٣ .
٥ـ المصدر السابق ، ١٩١ .

ولقد آتى هذا التعليم التبشيرى ثمرته فى تخريج القوميين العرب جاء فى جريدة الديار ، ١٠ تموز ١٩٤٩م السنة الثامنة ، العدد ١٩١١ . مقال افتتاحي عنوانه : " فضل الجامعة الأمريكية علينا " ، " ... ان طلبة الجامعة ليفتخرون بمعهد أيقظ فيهم روح العزة العربية وجميع أبناء البلاد العربية فى حظيرة هذه القومية . ...

" ان مليون حجة تبنى على قومية محلية لاتقنع سوريا أوعراقيا بفساد نظرية القومية السورية ، بل الأقناع يأتى من التطلع الى قومية واسعة ناسخة ، هي القومية العربية . ان هذه المهمة يتبرع بها طلاب الجامعة الأمريكية ، وهم رسل القومية العربية فى أنحاء الشرق العربي ، وحملة أعلام التحرر والاستقلال " (١)

ويقول الدكتورعلي جريشة : " يشير معرب كتاب لعبة الامم الى أن تسعين بالمائة من قادة حركة القومية العربية الأقحاح هم من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت .

" ويشير نفس المؤلف (مايلز كوبلاند) الى أسماء زعماء القومية وكلهم من المسيحيين " (٢)

مبتدعا الدعوة الى فكرة القومية فى العرب:

يحدثنا جورج أنطونيوس عن العربيين النصرانيين اللذين استثمر جهود هما المبشرون الأمريكان وآزروهما حتى أمسكا بأيديهما زمام الحياة الفكرية فى ذلك العصر فى لبنان فيقول :

" كان ناصيف اليازجى أسن الرجلين ولد سنة (١٨٠٠م) فى قرية صغيرة بجبل لبنان من أسرة لبنانية ...

" وقد شحذت عزيمته الدروس التى تلقاها عن كاهن القرية ...

" وقد مكنه ارتياد المكتبات من الوصول الى أعماق الأدب العربى القديم ...

" وقد أيقظ جمال هذا الادب الدفين الوجدان العربى فى نفسه فهام به وكأنه مسحور وأصبح الرسول الداعى الى بعثه واحيائه ...

" وكان من الطبيعى أن يتجه اليه الأمريكان يطلبون منه العون على اصدار كتب فى علوم اللغة العربية ... وكانت هي اللغة الوحيدة التى يعرفها ...

١ــ نقلا عن : الدكتورين مصطفى خالدى وعمر فروخ من مؤلفهما : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، عرض لجهود المبشرين التى ترمي الى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي ، ص ٩٢ .

٢ــ الدكتورعلي جريشة ، " الاساليب التبشيرية فى العصر الحديث " من بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة المنعقد فى الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ٢٤ــ ٢٩/٢ /١٣٩٧هـ ، المجلد الخامس ص ١١ ، ١٧ ، الهامش .

" ولم يكل قط عن احياء دعوته الى احياء الأدب القديم ، حتى نجح فى اقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيدة للنجاة . وكانت طرافة دعوته وجدتها تثيران انتباه الناس لأنه كان يتجه بها الى العرب على اختلاف عقيدتهم : النصارى والمسلمين جميعا ، وكان يهيب بهم ... أن يتذكروا تراثهم المشترك وأن يشيدوا على أسسه مستقبلا يجمعهم اخوانا متآلفين . ونشأ أطفاله الأثني عشر بنين وبنات ، على هذه الآراء ، وأعداهم بحماسته ، حتى بلغ من تأثر أحد أبنائه بتعاليم أبيه ... أن أصبح فيما بعد أول من نادى بالتحرر القومي للعرب "(١)

" وكان الرجل العظيم الثاني بطرس البستاني . ولد سنة (١٨١٩م) وكان أيضا عربيا نصرانيا من جبل لبنان ...

" وتعلم لغات أخرى غير العربية ، التحق وهو ابن عشر سنوات بكلية الدير فى قرية عين ورقة ... وتفوق ... فاختاره الرهبان ليوفدوه الى الكلية المارونية فى روما على نفقتهم (لكن لم يذهب من أجل امه) وشرع فى احتراف التدريس ... وحين ذهب الى بيروت سنة ١٨٤٠م تعرف بايلي سميث وبامريكي آخر جاء الى بلاد الشام مبشرا وطبيبا ، وهو الدكتور نيلوس فان دايك ...

" وقد نمت هذه المعرفة بينهم ولم تقتصر على الصداقة وحدها بل تعدتها الى الامتزاج الروحي فاعتنق البستاني المذهب المشيخي ... ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية ارتباطا وثيقا وفتح أمامه مجال عمل واسع للعمل . وقبل منصب مدرس اللغة العربية فى دار المعلمين بقرية عبية ، وألف كتبا لتستعمل فى المدارس . وحين طلب اليه أن يساعد ايلي سميث فى ترجمة التوراة " تعلم العبرية والآرامية واليونانية القديمة ... وفى السنوات الأولى من تعاونه مع الأمريكان كان يعلم فى كلياتهم ... ويؤلف كتبا مختصرة لتستعمل فى المدارس وكان يلقى المحاضرات والمواعظ فى الجمعية الأدبية التى حث الأمريكان على انشائها كما كان يكتب لهذه الجمعية النشرات . ثم بدأ تعاونه مع ايلي سميث على ترجمة التوراة ... وكان شغله الشاغل مدى عشر سنوات تقريبا وما كاد يتمها حتى بدأ يعمل فى الأثر الأول من أثريه ... وهو تأليف معجم للغة العربية صدر فى سنة ١٨٧٠م ... واختصره بعنوان : " قطر المحيط ...

" وكان أثره العظيم الثاني دائرة معارف عربية ... وظهر منها حتى وفاته سنة ١٨٨٣م ستة أجزاء ...

" كان يصرف فيض نشاطه فى أعمال أخرى يدفعه اليها حبه لبلاده ... فقد كان من آثار فتنة سنة ١٨٦٠م وما صاحبها من مذابح وحشية قتل فيها النصارى فى دمشق وجبل لبنان ...

١ــ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ١٠٩ حتى ١١٢ .

فسعى البستاني الى تخفيف حدتها باصدار صحيفة أسبوعية صغيرة في بيروت في تلك السنة ، بعنوان "نفير سورية" ... وقد وقفت معظم جهدها على الدعوة الى التوفيق بين المقائد المختلفة والى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة لأن المعرفة تؤدي الى الاستنارة المقلية ، والاستنارة المقليةتؤدي الى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين وربما بدا لنا هذا الكلام الآن تافها لاجد فيه ، ولكن بلاد الشام لم تكن سمعت به من قبل وكان يشتمل في طياته على نواة الفكرة القومية .

" وسار خطوات أخرى في هذا السبيل لتحقيق فكرته فأنشأ بعد ثلاث سنوات مدرسة سماها " المدرسة الوطنية " وأسعفه الحظ بتعيين ناصيف اليازجي مدرسا أول للغة العربية فيها وذاعت شهرة المدرسة بسرعة ، وجذبت اليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام ، كان من بينهم من قدم بعد ذلك أعمالا جليلة لبلاده .

" وفي سنة ١٨٧٠م ـ بعد صدور معجمه الكبير ـ أنشأ " الجنان " وهي صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين وكانت الغاية منها كذلك محاربة التعصب والدعوة الى التفاهم والاتحاد لخير الوطن . وكان شعار الصحيفة " حب الوطن من الأيمان " وهوشعور لم يكن يعرفه العالم العربي حتى ذلك الزمن . وكان يحرص على أن يبرز هذا الشعار على الصفحة الأولى مع العنوان في كل عدد . واستمرت ... خلال المدة التي بقيت من عمره . وكان يشارك في الكتابة فيها عدد من الكتاب من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها . وكانت قيمتها الحقيقية في أنها كانت تعنى عناية خاصة بعرض الآراء التي كان يدعو اليها مؤسسها وأنها كانت حافزا قويا وجه الأفكار الى التسامح الديني والنظرة الواسعة الى الأمور "[1] .

ويوافق جورج أنطونيوس في حديثه هذا عن البستاني وجهوده ومن معه لبعث القومية العربية والدعوة الى محبة الوطن من دون اللّه البرت حوراني في كتابه الفكر العربي في عصر النهضة ، فانظر الصفحات ١٢٧ ـ ١٣٠ ، ٣٢٧ ، وكذلك برنارد لويس في كتابه : الغرب والشرق الأوسط ، تعريب الدكتور نبيل صبحي يوئيدهما فانظر صفحة ١٢١ .

الجمعيات العلمية النصرانية :

يقول جورج أنطونيوس : " اتفق اليازجي والبستاني ـ خلال السنوات الأولى من ارتباطهما مع البعثة التبشيرية الامريكية في العمل ـ على أن يقترحا انشاء جمعية علمية ...

" قدما اقتراحهما الى أصدقائهما الجدد في شيء من الالحاح ، وأقنعاهم سنة ١٨٤٢م ، بتعيين لجنة لتنفيذ الاقتراح . ولقد حقق المشروع غايته في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٤٧م

١ـ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ١١٢ حتى ص ١١٥ .

فأنشئت الجمعية العلمية فى بيروت باسم "جمعية الآداب والعلوم" . وكان من أعضائها اليازجي والبستاني ، وكذلك ايلي سميث وكونيليوس فان دايك ، وعدة أعضاء آخرين من الأمريكان ، وانتسب اليها رجل انجليزي كان يقيم فى بلاد الشام هو الكونيل تشرشل المشهور (١) ولم يمض عامان على تأسيسها حتى بلغ أعضاؤها خمسين عضوا ، أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين فى بيروت . ولم يكن فيها عضو مسلم أو درزى . وكانت لها مكتبة صغيرة ولكنها كبيرة النفع وكان اليازجي هو القيم عليها وكان البستاني سكرتير الجمعية . وكانت الاجتماعات تعقد مرة كل أسبوعين ، ثم أصبحت الاجتماعات تقل مع الزمن ، وكان يلقى أحد الأعضاء بحثا فى كل اجتماع واستمرت الجمعية مدة خمس سنوات ، وأصدرت فى عامها الأخير كتابا من أعمالها حرره البستاني ... وكان الكتاب يتضمن عرضا شاملا لما قامت به من أعمالها ، وتلخيصا موجزا لكل بحث ألقي فى اجتماعاتها . كانت هذه الجمعية الأولى من نوعها فى بلاد الشام ، بل فى أية بقعة أخرى من العالم العربي "

" هذه الجمعية الجديدة كانت بدعة ... فتألفت على غرارها جمعيات أخرى كان لها دور مهم فى نمو الحركة العربية القومية . والحقيقة أن أول صوت لهذه الحركة الوليد تصدر من احدى الجمعيات الأولى التى انبثقت عن الجمعية التى دعا الى تأسيسها اليازجي والبستاني .

"كان اليسوعيون أول من احتذى المثال الذى وضعه الأمريكان . فأسسوا فى سنة ١٨٥٠م "الجمعية الشرقية" على الاسس نفسها ، وكان الروح المحرك لها هو الاب النشيط "دوبرونيير" — يسوعي فرنسي ، ولد سنة ١٨٢١م . وصل بيروت سنة ١٨٤٩م وبدأ فور وصوله بتعلم اللغة العربية وقد أكسبه اطلاعه الواسع ونشاطه المتوثب نفوذا كبيرا فى الشام وتبوأ منزلة رفيعة — .

" وآخر الجمعيات التى سنتحدث عنها فى هذا الفصل جمعية أنشئت سنة ١٨٥٧م بعد أن حلت الجمعيتان السابقتان . وهي أكبر من سابقتيها وتختلف عنهما فى أمرين :

أن جميع أعضائها كانوا من العرب ، وأن المسلمين والدروز اشتركوا فيها مع النصارى .

وهذان الأمران يدلان على تغير أكبر فى حقيقته مما بيدوا لأول وهلة . فحينما تألفت الجمعيتان كانت العداوات الدينية هي السائدة ، ولذلك وقف المسلمون والدروز معزل عنهما . وكانت رعاية المبشرين لهاتين الجمعيتين منذ انشائهما من العوامل التى زادت فى نفور العناصر غير المسيحية . ولكن أخذت الآراء تتغير مع مرور الزمن ، وأخذ ضباب العداوة المؤذى ينقشع تدريجيا ... ولم تضع سدى حماسة اليازجي فى مناشدته العرب على اختلاف عقيدتهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم كما لم يضع سدى اخلاص البستاني فى دعوته الى تحطيم السدود والفوارق . فتقدم المسلمون ، باقتراح يتضمن موافقتهم على الاشتراك فى تأليف جمعية جديدة تتحد فيها جهود أهل العقائد الدينية جميعها ... وهكذا أنشئت " الجمعية العلمية السورية " فى سنة ١٨٥٧م ، وبلغ

عـدد أعضائـها (١٥٠) عضوا ، واشترك فيها زعماء العرب من مختلف العقائد . وكان من أعضاء ادارتها : العالم الدرزى الأمير محمد أرسلان الذى بقي عدة سنوات رئيسا لها وحسين بيهم — وهوعميد أسرة مسلمة ذات نفوذ ، ونصارى من جميع الطوائف من بينهم أحد أبناء البستاني ، وكانت غايتها ووسائلها وقانونها وأ نظمتها كلها على غرار الجمعيـة التى أنشئت سنة ١٨٤٧م ...

" ونالت اعتراف الحكومة بها سنة ١٨٦٨م ، وفسحت المجال للأشتراك فيها حتى ضمت أعضاء كثيرين بارزين من الذين كانوا يقطنون خارج البلاد ، وخاصة فى القسطنطينية والقاهرة . وهكذا استطـاعت المثل ... المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة ، وتوحدها فـى رابطة ايجابية فعالة ، تعمل لتحقيق أهداف مشتركة ...

" ومنذ ذلك الحين أصبح الحافز لهم الى العمـ ـل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية ، كما أصبح الرابط الذى يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي .

" أن انشاء هذه الجمعية هوأول مظهر للوعي الوطنى الجماعى ، وترجع قيمتها الحقيقية فى التاريخ الى أنها كانت مهد حركة سياسية جديدة .

" يحق لنا أن نقول ان أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كان فى اجتماع سرى عقده بعض أعضاء " الجمعية العلمية السورية " .

" وكان أحد الأعضاء ، وهو ابراهيم اليازجي ، ابن ناصيف اليازجي ... وممن قد رلهم أن ينالوا شهرة أدبية كبيرة — كان قد نظم قصيدة اتخذت صورة النشيد الوطنى . والقصيدة فى جوهرها ، تحريض للعرب على الثورة : تغنت بأمجاد العرب ، وبمفاخر ادبهم ، وبالمستقبل الذى يستطيعون ان يصنعوه لأنفسهم باستلهام ماضيهم . وأزرت بشرور التفرقة الطائفية ، ونددت بفساد الحكم الذى وقمت البلاد فريسة له ، مفعمة بالألفاظ التى تلهب الحماسة .

" وكان لها الأثر البالغ فى نفوس الطلاب ، فطبعت عقولهم ، وهم فى سـن يسهل فيهـا التأثر بطابع العزة القومية .

" وهكذا أصبح لها نصيب وافر فى تغذية الحركة القومية وهي فى مبدئها .

" فكانت هذه القصيدة أول نشيد لحركة التحرر السياسي . لقد كانت الثمرة المباشرة لأول تكتل اتحدت فيه جميع العقائد لأحياء ثقافتهم القديمة . لقد تحمل ناصيف اليازجي عـبء الدعوة الى ذلك من قبل ، ثم نجح البستاني من بعده فى أن يرى ثمرة الجهود التى بذلها .. طوال حياته " (١)

١ــ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ١١٧ حتى ١٢١ .

ويؤيد هذا التأريخ الدكتور نبيه فارس وهونصراني أيضا وأستاذ في الجامعة الأمريكية في بيروت فيقول في مقدمته لكتاب جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، هذا الذي نستشهد منه مانصه :

" وفي الفصل الثالث يتناول المؤلف (يعني جورج أنطونيوس) بداية اليقظة العربية الصحيحة التي جاءت الى حد بعيد نتيجة للحركة الفكرية التي عقبت أعمال الأرساليات التبشيرية في التربية والتعليم ولاسيما الأرساليات الأنجيلية الأمريكية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . ويؤكد المؤلف على نقطة طالما يغفل عنها الكتاب وهي أن أسس اليقظة العربية أدبية وثقافية وهي مرتبطة بهذه الأسس ارتباطا وثيقا يعزز وحدة العرب الروحية ويقيها من التفتت والانهيار . فلم يكن من قبيل المصادفة أن يعمل رائدا النهضة العربية الفكرية ناصيف اليازجي وبطرس البستاني مع زملائهما الأمريكيين سنة ١٨٤٧م على تأسيس أول جمعية في العالم العربي الحديث هي جمعية الآداب والعلوم ، وأن يعاودا الكرة في سنة ١٨٥٧م بعد أن توقفت هذه الجمعية عن العمل على تأسيس جمعية ثانية أكبر عددا وأوسع نشاطا هي الجمعية العلمية السورية . وقد وقف اليازجي الكبير حياته على احياء العربية والتنقيب عن كنوزها الأدبية الدفينة الفنية . وعمل جاهدا وبنجاح على تنقية اللغة مما قد شابها من عجمة وركاكة ، فأقام بذلك الأساس لمن تبعه من العلماء وأعانهم على الأخذ بأداة الفكر هذه وجعلها لغة طيعة لاستيعاب الآراء الحديثة والتعبير عنها بدقة وجمال . وانصرف البستاني الى التأليف فوهب اليقظة العربية دون مساعدة تقريبا أول معجم حديث ، وأول موسوعة عربية حديثة ، وأول مجلة حديثة هي مجلة الجنان ، نصف الشهرية ، وجعل شعارها "حب الوطن من الأيمان" . وقد عمل هذان الرائدان وتلامذتهما في الجمعية السورية العلمية وخارجها على لأم الجراح التي حلت بالبلاد بسبب من وجود حوادث الستين .

" ودعا البستاني في جريدته " نفيرسورية " التي أسسها بعد تلك الحوادث المؤلمة الى الألفة بين السكان على اختلاف مذاهبهم . وفي الجمعية السورية نفسها أنشد الشيخ ابراهيم اليازجي قصيدته الميمية المشهورة ومطلعها :

سلام أيها العرب الكرام ... وجاد ربوع قطركم الغمام

ومنها :

وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في أجفن العليا مقام

لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنام

ونحن أولو المآثر من قديم ... وان جحدت مآثرنا اللئام

وفي اجتماع سري لنفر من أعضاء الجمعية نفسها أنشد قصيدته التي سبق ذكرها (في ص ١١ وذكر مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب)

قال نبيه أمين فارس : - " وحث فيها العرب على النهوض وهاجم الأتراك (ومنها) :

الله أكبر ما هذا المنام فقد ... شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا ... من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

ومنها :

أقدارکم فی عیون الترك نازلة ... وحقکم بین أیدی الترك مغتصب
فیا لقومي وما قومي سوی عرب ... ولن یضیّع فیهم ذلك النسب

الى أن يقول :

سنطلبن بحد السيف مأربنا ... فلن يخيب لنا في جنبه الأرب
ونتركن علوج الترك تندبنا ... قد قدمته أياديها وتنتخب
ومن يعش ير والأيام مقبلة ... يلوح للمرء في أحداثها العجب

"وللشيخ ابراهيم اليازجي أيضا سينية حمل بها على الأتراك ورجال الدين ، سبب التعصب والتنافر بين أبناء البلد الواحد فيقول :

دع مجلس القيد الأوانس ... وهوى لواحظها النواعس
وأسل الكؤوس يديرها ... رشأ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطا ... عم والمشارب والملابس
أين النعيم لمن يبيـ ... ـت على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائسا ... أبدا لذيل الترك بائس

ومنها :

ما هم رجال الله فيـ ... ـكم بل هم القوم الأبالس
يمشون بين ظهوركم ... تحت الطيالسة الأطالس
في كل يوم بينكم ... يلقى التعصب حرب داحس
يلقون بينكم التبا ... غض والمداوة والوساوس

قال فارس :

" وكان لانتشار هذه القصيدة رنة في البلاد ، وتلتها قصائد أخرى تدعو علانية الى الأصلاح أو الثورة ، منها قصيدة مطلعها :

يا دولة الترك أتركي ... عنك العناد وباشري الأصلاحا
أولا فدونك ثورة ... تفنى الجسوم وتخطف الأرواحا

قال فارس:

" هذا القليل يزكي موقف المؤلف (يعني جورج أنطونيوس) أن في استطاعة المؤرخ أن يحدد بداية اليقظة العربية الحديثة في هذه الفترة ـ فترة الجمعيات الأدبية والعلمية من سنة ١٨٤٧م

والأرتباط السياسي دون الأداري . فما بالنا نحن لانفتكر في أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها ، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفحصاء (هكذا ولعلها الفصحاء) ونتراحم بالأخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهي : فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء أعزاء " (١)

ومما تقدم يتبين لنا أن بداية ايقاظ الفتنة بفكرة القومية العربية عن الأسلام هي كما يقرره جورج أنطونيوس والدكتور نبيه فارس من سنة ١٨٤٧م الى سنة ١٨٦٨م فترة جهود اليازجي والبستاني مع زملائهم مبشري الأمريكان وغيرهم حين أسسوا أول جمعية في العالم العربي الحديث على أساس المبدأ القومي وهي جمعية الآداب والعلوم التي جمعت بين العرب رغم ما يقتضيه الدين من مجانبة الكفر ومفارقة أهله ، ثم تلتها الجمعيات الأخرى التي نسجت على منوالها الى آخر القصة كما تقدم ، وحينما يشير الدكتور نبيه فارس الى موقف الكتاب المعارضين يرجع الى ما قاله زين نورالدين زين في كتابه نشوء القومية العربية وزين من القائلين بهذه المعارضه ومن الناقدين لتحديد جورج أنطونيوس المتقدم ذكره ، ومن يقول بأنه لافرق بين العروبة والأسلام ، " وأن القومية العربية في طورها التكويني والتاريخي وفي أطوار نموها ، لايمكن أن تنفصل عن الأسلام " كما في ص ١٠٦٩ ، ٢٢٦ من كتابه المذكور طبعة بيروت ١٩٦٨م وكما يذكر فارس في ص ١١٧ عن زين في كتابه طبعة بيروت ١٩٥٨م ، أيضا ، وضعف حجة منتقدي أنطونيوس على تحديده ظاهر فكون العرب لم ينسوا يوما أنهم عرب لايعني أنهم لم ينسوا الولاء القومي بالولاء الأسلامي بل انهم حطموه في وقعة بدر وأحد والأحزاب ، وحنين وغيرها حتى مات فلما قامت جمعية اليازجي والبستاني والأمريكان وغيرهم ممن ليسوا من المسلمين أيقظوا روح القومية وبدأوا الفتنة بها عن الأسلام ، وعندما يقول النصارى عن الولاء للقومية بدلا من الولاء الأسلامي أنه يقظة فانه تعبير هم عن رغبتهم ووجهة نظرهم ، وجرت العادة بمدح المرغوب ، ولامنازعة للنصارى في أنهم رواد بعث الولاء للقومية العربية من دون الأسلام والمسلمين ، وفي الواقع أنهم أئمة في ذلك وقادة ، ولا داعي لغبطتهم والغيرة منهم على ذلك السبق كما يلوح من كتابات قوميي العرب من المسلمين ، لأنه لاغبطة فيما عدا الأسلام واذا قالوا: العزة العربية لنا، نقول: الله مولانا ولا مولى لكم .

وأما ادعاء الدكتور نبيه فارس وسائر النصارى بأن لهم "فضل على اللغة العربية بتنقيتها مما لحقها من لكنة ورطانة ، ومالحق تراثها الأدبي حتى كاد أن يدفن في غياهب النسيان " فكيف يسلم له بحضور القرآن الكريم المحفوظ بلسان عربي مبين ؟ وبجانب السنة المطهرة ،

١ــ الدكتور نبيه أمين فارس ، مقدمة لكتاب : يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، تأليف جورج أنطونيوس ، من ص ١١ حتى ١٧ .

رياض باشا من الحكام والمسئولين "

وكان أشهر هذه المجلات اللبنانية المصرية " المقتطف" التي أنشئت في ١٨٧٦م ، و"الهلال" التي ظهرت لأول مرة في ١٨٩٢م . وكان قد أنشأ الاولى في بيروت معلمان شابان من أساتذة الكلية البروتستانتية السورية ، هما يعقوب صروف وفارس نمر ، اللذان انتقلا في ١٨٨٥م الى القاهرة ، حيث بقيت المقتطف تصدر طيلة نصف قرن على قاعدة قلما طرأ عليها تغيير جوهري فاذا أخذنا العدد الصادر في كانون الثاني على سبيل المثال ، لوجدنا أنه يشتمل على مقالات في الأمراض السارية ، والمكروبات في الهواء ، والفروق بين الرجال والنساء ، وتحليل فلسفي لمركز الانسان بين الحيوانات ، ومقال عن الأدارة في جبل لبنان في عهد رستم باشا (١) ، وملخص لتقرير لجنة أميركية عن أسس التربية ، ومجموعة أقوال في اليمامة مستقاة من الأدب العربي ، وأخبار صغيرة عن الأساليب الصناعية والزراعية والاكتشافات العلمية . أما مؤسس الهلال ، فكان جرجي زيدان (١٨٦١م ـ ١٩١٤م) الذي تلقى علومه لفترة في الكلية البروتستانتية السورية أيضا ، لكنه لم يتأثر بها الى الحد الذي تأثر به زملاؤه ، فقد كان ذا تركيب ذهني مختلف فأعار العلوم الطبيعية في مجلته اهتماما أقل ، موجها جل عنايته الى علم الاجتماع وأدب النفس ، والسياسات العالمية والجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب وآثار العرب . وعلى سبيل المثال أيضا نأخذ العدد الصادر في شباط ١٩١٣م فنراه يشتمل على مقالات في تاريخ لبنان والنظام الاجتماعي ، وفي المميسر والشيخوخة ، وفي كيفية معالجة السمنة ، كما تشتمل على وصف زيارة قام بها رئيس التحرير الى فرنسا وانكلترا وسويسرا ، وعلى فصل من قصته التاريخية عن صلاح الدين والحشاشين .

" قد تهدو المواضيع التي كانت تعالجها هاتان المجلتان عديمة المغزى ، خصوصا وأنهما كانتا تتحاشيان كل ما يتعلق مباشرة بالسياسات المحلية أو بالدين أو بما شأنه أن يثير ضدهما العداء . غير أن وراء هذه المواضيع وراء غيرها من هذا النوع كانت تكمن بعض الأفكار المعينة الدائرة حول ما هي الحقيقة وكيفية البحث عنها ، وما على جمهور قراء العربية أن يعرفوه وهو أن المدنية خير بحد ذاتها ، وأن ابتكارها وصيانتها انما هما محك العمل وقاعدة الخلقية ، وأن العلم انما هو أساس المدنية ، وأن للعلوم الأوربية قيمة عالمية ، وأن بامكان العقل العربي وواجبه تحصيلها بواسطة اللغة العربية ، وأنه بالامكان أن نستخرج من الاكتشافات العلمية نظاما للخلقية الاجتماعية التي هي سر القوة الاجتماعية ، وأن أساس هذا النظام الخلقي انما هو التحسس بالمصلحة العامة ، أي الوطنية التي هي حب الوطن والمواطنين الذي يجب أن يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الأخرى حتى الدينية منها . وقد أصبحت مثل هذه الأفكار

---

١ ـ ذكر البرت حوراني أن " رستم باشا : أحد الحكام المعينين وفقا لنظام ١٨٦١م "للبنان وهو نظام المتصرفية والمتصرفين الذي أصدره الباب العالي بناء على ضغط الدول النصرانية بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وبموجبه فصل لبنان وأصبح يحكمه متصرف مسيحي ، انظر زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٣٨ .

مألوفة فيما بعد بفضل هاتين المجلتين على الأخص .

" لقد توقف المقتطف آخر الأمر عن الصدور ، لأنه قد أنهى مهمته ، بينما استمر الهلال لأنه كان موجها لجمهور مختلف من القراء .

" كانت تلقى هذه الآراء لدى نشرها للمرة الأولى بنبرة رسولية ، ولم تكن مقبولة فى كل مكان .

" وقد انقضى بعض الوقت قبل أن أخذت عقائدها فى الانتشار .

" كان هناك بعض الكتاب اللبنانيين والسوريين الذين حاولوا صياغة نظرتهم الى المجتمع بطريقة منظمة . ولعل أولهم كان فرنسيس مراش (١٨٣٦م ـ ١٨٧٣م) وهو من عائلة حلبية درس الطب فى باريس . . . .

" كانت أفكار هذا الكاتب هي الأفكار الأوربية المنتشرة فى ذلك الوقت : فوائد السلم ، وأهمية الحرية والمساواة (وفيه استنكار للرق قد يكون انعكاسا لموضوع الحرب الأهلية الأميركية) ، وحاجة العرب قبل كل شيء الى أمرين : مدارس حديثة وحب للوطن طليق من الاعتبارات الدينية . . . .

"وتنظيف المدن واتقان بنائها . . . " (١)

" ولعل جرجي زيدان كان أكثر الذين عملوا على احياء وعي العرب لماضيهم ، سواء بتواريخه أو بسلسلة رواياته التاريخية التى نهج فيها نهج الكاتب الأنكليزى وولتر سكوت ورسم على غراره لوحة رومنطيقية عن الماضى (٢)

تطورية دارون

يقول البرت حوراني : " كان من نصيب كاتب من الجيل اللاحق ، مسيحي سورى وطبيب أيضا أن يكون أول من أدخل تلك النظريات الى العالم العربي نعنى به شبلي الشميل (١٨٥٠م ـ ١٩١٧م) . الذى كان بين المتخرجين الأول من المعهد الطبى التابع للكلية البروتستانية السورية . ثم تابع دراسة الطب فى باريس قبل أن يستقر فى مصر ، حيث مارس مهنته وكتب مرارا وتكرارا فى المقتطف ومجلات أخرى من هذا النوع .

" كان العلم يعنى عند الشميل النظام الميتافيزيقي الذى بناه هكسلي وسبنسر فى انكلترا وهيجل وبوخنر فى ألمانيا على فرضيات دارون الحذرة وكان مؤلفه الرئيسي ترجمة " شرح بوخنر لأفكار دارون مع ملاحظات واضافات من عنده .

وكان أساس ذلك النظام فكرة وحدة الكائنات فجميع الأشياء تتكون من المادة بحركة عفوية وجدت منذ الأزل وستبقى الى الأبد . والأشكال المتكونه ، أى المعادن والنبات والحيوان والأنسان تكون فى كل مرحلة أكثر تميزا بعضها عن بعض وأكثر تعقدا منها فى المرحلة التى سبقتها بدون

---

١ ـ البرت حوراني ، الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩م ، ترجمه الى العربية كريم عزقول ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

انفصال ، وذلك بفضل قوى ملازمة أصلا للمادة نفسها ، تتخذ أشكالا مختلفة باختلاف المستويات بحيث أن ما يبدأ نورا يصبح حركة ثم جاذبية ثم رغبة ثم حبا . والأنسان هو قمة هذا التطور ، والكائن الأول القادر على السيطرة عليه والمساهمة فيه عن وعي ، وذلك بتغيير ظروفه الخارجية وبالاستعاضة عن الصراع من أجل البقاء بالتعاون وتوزيع العمل . وهذا الأنسان لا يزال ساعيا لبلوغ كماله الذاتي ، وتنمية قواه العقلية ، والاستعاضة عن النزاع بالتعاون ، والاكراه بالتنظيم الأدارى ، والرغبة الأنانية فى سعادته الخاصة بالسعي وراء سعادة الجميع . ان هذه الرؤيا لتسلسل الكائنات ولأساس كل الأشياء ومصدرها ، وللأنسان كغايتها الأخيرة ، قد هزت فى الشميل حس الجمال والجلال كما هزت حس أبناء جيله فى أوربا وأميركا . فهو يتساءل قائلا : هل هناك ما هو أبهج وأنفع من معركة تحول المادة وقواها ، والعلم بأن جميع الأشياء بالحقيقة واحد ؟ ولم يكن من قبيل الصدفة أنه أطلق على وحدة الطبيعة التعبير المستعمل فى علم الكلام الأسلامي للدلالة على وحدة الله : التوحيد .

" يعلن الشميل عقيدته بحرارة ايمان المهتدى والثائر معا . ولا عجب فقد كان لا يزال لتلك النظرية يوم ترجم بوخنر وقع الصاعقة " (١)

في المعقد الثامن

محاربة الدين والسلطان

ويذكر البرت حوراني أن الشميل يقول : " ان دين العلم هو اعلان حرب على الديانات القديمة وما نشأت المسيحية الا عن الأنانية وعن حب السيطرة من قبل رؤساء الدين ، وعن رغبة الأنسان المادى فى البقاء الفردى ، وليس ما يحرر الأنسان من نير الأنانية سوى ادراك فكرة وحدة المادة والأقرار بها . لكن للدين الجديد مستلزمات اجتماعية وسياسية واسعة أيضا . فالعلوم الطبيعية هي أساس العلوم الأنسانية ، ولا تستمد الشرائع السليمة الا من العلوم الأنسانية الصحيحة . أما العلوم الزائفة ، فهي تؤدى الى شرائع وأنظمة حكم زائفة . وليس الحكم الدينى والحكم الاستبدادى فاسدين فحسب ، بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين ، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم ، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشرى نموا صحيحا أما الحكم الاستبدادى فينكر حقوق الافراد . وما مصدر الأثنين الا المبدأ الخاطئ القائم على تفضيل المنفعة الشخصية على المنفعة العامة . وهما يشجعان العقل على البقاء فى حالة الجمود ، وبذلك يعرقلان التقدم التدريجي الذى هو ناموس الكون . لكن بالأمكان تصور نظام للشرائع وللحكم يقوم على نواميس الكون ، ويسمح بالتالي لتطور النمو الكوني أن يستمر وللأنسان أن يعيش وفقا لطبيعته . ومثل هذا النظام ينبثق عن المبادئ ذاتها التى تنبثق عنها نواميس الطبيعة ، وهي أن الأشياء كلها سائرة الى التباين والتغير وان التطور يتحقق بالصراع من

١ــ المصدر السابق ، ص ٢٩٨ . وما قبلها .

أجل البقاء ، وأن البقاء للأصلح .

" والأمم تقوى بمقدار مايضعف الدين . فهذه أوربا فهي لم تصبح قوية ومتمدنة فعلا الا عند ما حطم الأصلاح (اصلاح لوثر) والثورة الفرنسية سلطة الأكليروس على المجتمع . وهذا يصح أيضا على المجتمعات الأسلامية ...

الى أن قال البرت: " ليس من الصعب العثور على أفكار الشميل فى مؤلفات سبنسر وبوخنر لكنها كانت ترمي هنا الى هدف معين فى مجتمع كان لايزال قائما على فكرة الجامعة الدينية ، وكان الكثيرون من الكتاب العرب المسيحيين من معاصرى شميل يبشرون بتلك الأفكار ويستنتجون منها وجوب وجود وحدة قومية تتعدى الفروق الدينية».(١)

الاشـــتراكية

ويقول البرت عن الشميل هذا : " فهو أول من نشر بالعربية فكرة الاشتراكية ، وان لم يكن أول من سماها بهذا الاسم ...

" وقد ذهب أبعد من ذلك فى المنهاج الذى وضعه فى ١٩٠٨م للحزب الاشتراكي فى مصر فقال ان للحزب سياستين: سلبية وايجابية ، الاولى هي السعي الى ازالة جميع الكتب غير النافعة ، ومدرسة الحقوق ، والجامعة الجديدة التى كانت فى مرحلة التأسيس ، والمحاكم المختلطة ، لابل جميع المحاكم الموجودة ، والشركات المحتكرة لتوزيع المياه والصحف التى تبذر الشقاق بالتحدث عن القبطي والمسلم والدخيل (وفى هذا اشارة الى التهجمات المصرية على الجالية اللبنانية فى مصر) .

والثانية هي أن يقيم ، بعد تهديم جميع هذه المؤسسات ، جامعة حقيقية تدرس فيها العلوم ومدرسة تقنية بدلا من مدرسة الحقوق ، ومحاكم محلية بسيطة جدا ، ومؤسسات عامة لتوزيع المياه ، ومدارس ابتدائية فى كل قرية وحي ، وصحف لائقة لتنوير الرأى العام .

" قد يكون من المستحيل تطبيق مثل هذه الأفكار . لكن نشرها بحد ذاته قد ساعد على تخمير الافكار والأفعال التى أطلقت الحركة الدستورية فى مصر وفى الامبراطورية العثمـانية كان شميّل على العموم من أنصار " تركيا الفتاة " فى معارضتها لاستبداد عبد الحميد "(١)

ايهام فصل العلم الصحيح عن الدين الحق

يذكر البرت حوراني أن رائد هذه الدعوة فى العرب هو الصحفي اللبناني فرح أنطون (١٨٧٤م ـ١٩٢٢م) نزح من طرابلس الى القاهرة فى ١٨٩٧م وصرف بقية حياته بين مصر ونيويورك رئيسا لتحرير عدة مجلات عربية وبنوع خاص مجلة " الجامعة " الشهيرة فى زمانها .

١ـ المصدر السابق ، ٢٩٩ ـ ٣٠٢ .

وقد عبر فى هذه المجلات وفى قصصه عن الفكر الأوربى "المتقدم" فى عصره ، نشر دراسة طويلة عن حياة ابن رشد وفلسفته فى مجلته الجامعة ، ويدل اختيار هذا الموضوع على تأثير رينان عليه . فهو الذى ترجم " حياة يسوع " لرينان وها هو الآن ينهج فى كتابته عن ابن رشد النهج الذى رسمه معلمه . فالآراء العامة التى أدلى بها كانت آراء رينان نفسها تقريبا .

" من ذلك قوله أن بالأمكان حل النزاع بين العلم والدين ، وذلك بتحديد المستحقل الخاص بكل منهما . فهناك قوتان انسانيتان مستقلتان : العقل والقلب ، ولكل منهما قواعد عمله ونطاق نشاطه وطرق اثبات حقائقه . فالعقل يستند الى الملاحظة والاختبار . وحقله هو العالم المخلوق ، أما القلب ، فيسلك طريق القبول بما تحويه الكتب المنزلة بدون أن يتفحص أساساتها ومواضيعه الخاصة انما هي الفضائل والرذائل والحياة الأخرى . وما يتوصل اليه الواحد منهما لا يمكن للآخر دحضه ، لذلك يجب أن يحترم الواحد الآخر ، وأن لا يتجاوز الواحد حدود الآخر " (١)

فصل الدنيا عن الدين

كذلك يرى فرح أنطون كما يذكر عنه البرت حوراني أنه أهدى كتابه الى " النبتا لجديد فى الشرق " أى أولئك العقلاء فى كل ملة وكل دين فى الشرق ، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين فى عصر كهذا العصر ، فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانبا فى مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الأوربى الجديد لمزاحمة أهله ، والا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم " (٢)

الأعتياص بالفلسفة

ويقول البرت عن فرح أنطون : " ثم يشرح السبب الذى من أجله يكتب عن ابن رشد ، فيقول: "ان غرضه انما هو تقريب الأبعاد بين عناصر الشرق وغسل القلوب وجمع الكلمة ... لا بأن يبرهن الفريق الواحد للفريق الثاني أن دينه أفضل من دينه ، فهذا أمر قد مضى زمانه ...

" ان ما جذب فرح أنطون الى ابن رشد هو بالضبط ما كان قد جذب رينان الى هذا الفيلسوف المسلم ، أى تأكيده على أن النبوة نوع من الأدراك ، وأن الأنبياء فلاسفة ، وأن الحقيقة واحدة يسربلها الأنبياء بالرموز الدينية من أجل العامة ، بينما تفقهها النخبة مباشرة (٣) .

١ــ المصدر السابق ، ٣٠٣ــ ٣٠٤ .
٢ــ = = = ، ٣٠٤ .
٣ــ = = = ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

فصل الدولة عن الدين

يقول البرت حوراني عن فرح أنطون : " كان هدفه السياسي شبيها بهدف الشميل وسواه من كتاب عصره اللبنانيين . ذلك أنه توخى وضع أسس دولة علمانية يشترك فيها المسلمون والمسيحيون على قدم المساواة التامة . . . .

" فالطبيعة البشرية واحدة أساسيا في نظر جميع الأديان ، والحقوق والواجبات البشرية واحدة أيضا . حتى ان الذين لادين لهم لايختلفون عن غيرهم في الطبيعة والحقوق "

" ويذكر البرت قول فرح أنطون : "بأن العالم قد تغير فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين ، بل على أمرين : الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث .

" أما في العصر الحديث ، فالوحدة تتم بخلق الولاء القومي والفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية "

ثم يقول البرت حوراني : " اننا نسمع ، من وقت الى وقت من خلال صفحات فرح أنطون ، نغمة هي أكثر من مجرد صدى لمعلميه الأوربيين . انها التعبير عن وعي سياسي ايجابي عند المسيحيين العرب ، لقد بقوا مدة طويلة مكتفين بأن لايتدخل أحد في شؤونهم ، مكرسين مواهبهم السياسية لمعالجة شؤون بطريركياتهم المعقدة ، لكن فرح أنطون الآن بمطالبته بدولة علمانية ، لم يطالب بعدم اضطهاد المسيحيين ومنحهم حقوقا متساوية فحسب ، بل طالب بمجتمع يتسنى لهم فيه القيام بدور ايجابي ، لابل بمجتمع يتمكنون فيه من ممارسة شطر من المسؤولية السياسية .

" ومع ذلك فقد تردد معظم الكتاب المسيحيين في دفع هذا التفكير الى نتائجه السياسية وفي التحدث عن أمة عربية اذ أنهم تخوفوا من أن تتكشف القومية العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الأسلامي . ولم يكن بامكانهم ازالة هذا التخوف الا باحدى طريقتين : الأولى أن يجاروا الأكثرية شأن الأقليات أحيانا ، ولو أثار بعض الالتباس .

والثانية أن يصبوا في قالب مفهومهم للعروبة محتوى مفهومهم للبنان أو لسوريا فيحلموا بأمة عربية تكون منفصلة عن أساسها الديني ، وتضم بدون أي وجه من وجوه التفريق ، المسلمين والمسيحيين جميعا وتتمتع بحماية رؤوفة من قبل أوربا الليبرالية .

" ولهذا حدثت حركة تؤيد الطريقة الثانية ، التي اختارها نجيب العازوري ، الكاثوليكي السوري ، والمربي تربية فرنسية كمعظم رفاقه . كان لفترة من الزمن موظفا عثمانيا في القدس ثم تخلى عن منصبه هذا لأسباب غامضة ، وذهب الى باريس ، ثم الى القاهرة ، حيث أقام حتى وفاته في ١٩١٦م ، وقد أسس في ١٩٠٤م " عصبة الوطن العربي " التي يذكر اسمها بوضوح باسم " عصبة الوطن الفرنسي " المعادية لدريفوس ، فاقتصر نشاطها ، هذا اذا كانت قد وجدت بالفعل ، على اصدار النشرات . ثم أصدر ، في ١٩٠٧م في باريس

في بغداد (١٩٥٧م)، وفي جامعة اكسفورد (١٩٥٨ ـ ١٩٥٩م)، وفي معهد الدراسات العليا في تونس (١٩٥٩م). فأشكر الذين سهلوا لي القاء هذه المحاضرات، كما أشكر الطلاب الذين، بأسئلتهم أو بصمتهم، ساعدوني على اكتشاف ما كان فيها واضحا أو ما لم يكن.» (١)

والمؤلف نصراني من الشام وبكتابه هذا فهو أوثق من يستشهد به على النصارى من أنفسهم،

أهداف النصارى من نشرهم فكرة القومية في العرب

أولا: تقوية النصارى وتمكينهم من السيطرة على المسلمين، وتمكين النصرانية من الظهور. انهم اذا قطعوا العرب عن صلة الأخوة الأسلامية، وروجوا لهم فكرة القومية العربية فأن النصارى من العرب والمسلمين من العرب يتساوون في العروبة، واذا اتفقوا على القومة على أساسها فأنه لا يبقى فارق بينهم في الحقوق والامتيازات بل ان النصارى يمتازون بقوة دولهم المنتصرة الأوربية على دولة الخلافة الأسلامية العثمانية، وهذا هو الذي استقر في نفوسهم كامنا وقصدوا اليه.

يقول فارس نمر باشا، أبرز مؤسسي جمعية بيروت السرية، وهو نصراني عربي ما نصه:

" كان في لبنان جماعة صغيرة من الشبان الذين ينتمون الى هذه النخبة المفكرة وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الأنجيلية. تطالب بتحرير لبنان أولا من الحكم التركي وأنشأوا لهم حوالي ١٨٧٦م " جمعية ثورية سرية " وراحوا يجتمعون مساء عند الشاطىء الصخري في مكان اسمه الروشة في رأس بيروت للتداول والتشاور في أنجع الوسائل لتحقيق أهدافهم. وكان أخطر ما أقلق نفوس أولئك الشبان هو احتقارا لأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأنا منهم مما جعلهم يشعرون بالأهانة.

" غير أن العربي المسلم عند ما يتكلم عن الامبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول انها امبراطوريته، لانها كانت امبراطورية اسلامية. والواقع أن المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب في غريب عنه، بل كان الأمر على نقيض ذلك. وأما المسيحي فكان يشعر دوما بأنه واحد من رعايا السلطان وأن الحكومة لا يمكن أن تكون حكومته.

" لكن لم ينقض زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى أنهم اذا أرادوا بلوغ هدفهم، ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يكونوا لهم سندا وعونا فقد كان من المحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك كجبهة واحدة متراصة.

"ولم يكن قاسم مشترك بين المسلمين والمسيحيين العرب سوى "العروبة" فالعروبة كشعار

١ـ المصدر السابق، ١٠٥٩.

كان فى وسعها أن تثير فى نفوس العرب شعورا بالقومية ، وأن توحد أيضا بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك .

" وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون فى الجمعية السرية الثورية أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركي والسبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف فى وجه الأتراك " (١)

ويقول برنارد لويس وهو أستاذ ورئيس قسم التاريخ فى جامعة لندن البريطانية :

" كان هناك المثقفون العرب المسيحيون فى بيروت وجبل لبنان حيث لاقت الفكرة الوطنية صدى وردة فعل . وكانوا كمسيحيين أكثر انفتاحا للأفكار الأوربية ...

" كل ذلك دفعهم لتحبيذ قيام دولة على أساس وطنى لا على أساس دينى ، فاذا كانت اللغة والحضارة والأرض متطلبات الهوية للمواطن فللمسيحيين العرب وهم يملكون المتطلبات اللازمة حق فى أن يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى ، وهذا ما لم يكن لهم فى الأمبراطورية الأسلامية " (٢)

هذا من جانب العرب النصارى ، وأما من جانب المبشرين ودولهم الأستعمارية الصليبية فيدل عليه رسالة عثر عليها الدكتور زين نور الدين زين فى دائرة السجلات العامة فى لندن وأنقل من ترجمته العربية شواهد مانحن بصدده من تلك الرسالة :

" تسلمت رسالتكم رقم ٣٦ والمؤرخة فى العاشر من الشهر المنصرم مع جميع الوثائق الأخرى المضمنة بالأشارة الى احدى الوثائق المضمنة أعنى الرسالة المرقمة ٣٧ ، والمرسلة الى السير ستراتفورد كاننغ حول موضوع حماية الروم الأرثوذكس فى حاصبيا وجوارها الذين يعتنقون المذهب الأنجيلي ، يسرني أن أعلمكم أن حكومة جلالتها توافق تمام الموافقة على منحكم الحماية الكاملة لجميع المسيحيين فى تركيا الذين يطلبون اليكم حمايتهم من ظلم الموظفين المسلمين التابعين للباب العالي .

" ولكن مع تسليمنا بأن هذا التدبير هو مبدئيا تدبير حسن ، يحسن بي أن ألفت نظركم الى أنه ينبغي لممثلي حكومة جلالة الملكة أن يحرصوا الحرص كله على أن يتجنبوا التدخل فى شؤون المسلمين الدينية بشكل سافر يتجاوز كل حد ، بحيث يظهر وكأن ممثلي حكومة جلالتها يعضدون النشاط التبشيرى الذى تقوم به الأرساليات الأميركية وغيرها من الأرساليات الأجنبية فى الامبراطورية العثمانية ، لاجتذاب الأفراد المسيحيين من مختلف المذاهب وضمهم الى المذهب الأنجيلي .

١ــ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٦٠ وما بعدها .

٢ــ برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، ترجمة الدكتور نبيل صبحي ، ١٢٠ ، ١٢١ .

" ان حكومة جلالتها وعن غير قصد وتصميم ، تؤثر بطبيعة الحال ، أن ترى الناس من جميع الاديان والمذاهب يعتنقون المذهب الأنكليكاني سواء كانوا من المسلمين أم من الروم الأرثوذكس أم من غيرهم من الطوائف ، ولكن ...

"ولذا يتوجب عليكم أن تمتنعوا كليا عن القيام بأى عمل من شأنه أن يفسر أنه تعضيد من قبلنا أو تشجيع لحركة انضمام الأرثوذكس الى المذهب الانجيلى ، وهي الحركة التى تقوم بها الأرساليات فى تركيا بكل حزم ونشاط ، ولكن فى الوقت ذاته آمل أن تثابروا بكل ما أوتيتم من قوة على حماية المسيحيين من مظالم المسلمين " (١)

وقد مرينا أن خمسة سفراء لخمس دول نصرانية حملتهم الحمية للصليب فرفعوا بروتوكولا الى الباب العالى بشأن لبنان بعد الحرب الأهلية فيه سنة ١٨٦٠م ، وبناء عليه فصل لبنان عن حكم المسلمين وأصبح سنجقا مستقلا استقلالا ثانيا يحكمه متصرف مسيحي وعلى كره من الباب العالي بطبيعة الحال ، ولكن بضغط من بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا مجتمعة (٢) وصار لبنان بجامعته الأميركية بؤرة القومية العربية .

ويكاد يكون كتاب التبشير والاستعمار للدكتورين مصطفى الخالدى وعمر فروخ ، وكتاب الغارة على العالم الأسلامى لمؤلفه أ . ل . شاتليه ، تلخيص وتعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي من أفضل الثبوت لجهود المبشرين التى ترمي إلى إخضاع الشرق العربى للاستعمار الغربي ، وهذا الأخضاع هو هدف الأرساليات التبشيرية بلا شك ومن ورائها دولها ، يبدأون بالتبشير ثم بالتنصير ثم بتكثير سواد النصرانية وحمايتهم وتقوية مكانتهم بين العرب ثم تسليطهم على المسلمين وان كانوا من العرب لأنهم مسلمين ومحل طمع أعدائهم .

ولقد استشعروا أن العروبة كشعار رأوا فى وسعها أن تصد العرب عن الأسلام ، فاذا ابعدوا عنه سهل نفوذهم فى بلاد المسلمين وحكمهم والقضاء على دولتهم وخلافتهم وهذا من أعظم مقاصد الصليبيين وهذا النفوذ هو الهدف الثاني :

ثانيا : نفوذ دول الصليب الاستعمارية فى البلاد العربية :

"يذكر شارمتان ماقاله له غمبتا : " ان الكردينال لافيجرى والمرسلين التابعين له (فى سوريا) قد أدوا خدمات لايستطيع جيش كبير أن يؤديه أو أسطول إلى فرنسا .

"وقد كتب القاصد الرسولى نفسه قائلا : " نحن نريد سوريا كلها من غزة الى أدرنه ومن لبنان الى الموصل .

" وفى الرابع عشر من شهر تشرين الأول سنة ١٨٨٧م بعث وزير خارجية فرنسا برسالة الى

---

١ ــ زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .
٢ ــ المصدر السابق ، ص ٣٨ ، وتقدم ذكره ، انظر ص ٤٣ من هذا البحث .

بتيتغيل القنصل الفرنسي العام في بيروت ، وذلك بمناسبة ٨٢ منحة دراسية قدمتها فرنسا الى تلاميذ سوريين ليدرسوا في المعاهد اليسوعية هناك ، يقول فيها : " الآن وقد تقرر منح هذه المنح الدراسية لسوريا فاننا نقترح أن يكون هدفنا مزدوجا . أولا أن يكون لنا أصدقاء وعملاء في العائلات التي فاز ابناؤها بهذه المنح . وهدفنا الثاني في تشويق ، رؤساء المعاهد والطلاب للاقبال على تعلم اللغة الفرنسية . وقد تحقق بعض هذين الهدفين " ونحن نبغي أن نقيم علاقات طيبة مع العائلات ذات النفوذ ، العائلات التي يتعلم أبناؤها في مدارسنا ، فان لم ينشأوا على حب فرنسا فعلى الأقل يكونون من الذين لهم معرفة بلغتها وتاريخها "

" يعتقد القناصل البريطانيون في سوريا أن مصالح الأمبراطورية البريطانية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالح جمعيات الكتاب المقدس العديدة التي لها عملاء مقيمون في سوريا " (١)

ويقول باكر في المؤتمر الأستعماري : " ان الحكومة لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية .

" والمبشرون هم الذين اختصوا وحدهم بالاهتمام في أمر الأسلام والبحث في شؤونه في كل مستعمراتنا الألمانية الى هذه الأيام الأخيرة ...

" على ادارة المستعمرات أن تستعين بالاسلام على تربية الوطنيين كما تفعل فرنسا وانكلترا وهولندا " (٢)

أما ماذا تريد بريطانيا من الثورة العربية والنفخ في صورة القومية العربية والأدوار التي قام بها كل من لورنس وستورز وفيصل بن الشريف حسين في تنفيذ مخطط "ثورة في الصحراء" واعلانها وعد وزير خارجيتها "بلفور" بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ، والضرب على وتر القومية العربية ، من كل من اليهود وبريطانيا وغيرها من دول الصليب فلا تسمع الا نغمة العرب والقضية العربية أما الأسلام فلا يطاق حتى ذكر اسمه ، فما ذا يراد من ذلك؟

يقول زين نور الدين زين :

" واذا أردنا أن نفهم العوامل التي كان لها أثر حاسم في تقرير مصير الشرق الأدنى ...

ننظر في محتوى وثيقتين خطيرتين يعود تاريخها الى سنة ١٩١٧م الأولى ... موسومة :

" بيان حول السياسة الخارجية مرفوع الى المجلس الحربي الملكي " وقد قدم ... " بلفور" رئيس البعثة البريطانية الخاصة الذي كان يزور الولايات المتحدة نسخة عن هذا البيان الى ... لنسخ وزير الدولة الأمريكاني وهذا نص الفقرة الخاصة بمستقبل تركيا (الأسلامية)

١ــ نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص١٩١ .

٢ــ نقلا عن أ . ل . شاتليه ، الغارة على العالم الاسلامي ، تلخيص وتعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ، الدار السعودية للنشر ، ص١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

" ولا شك أن القضاء على الامبراطورية العثمانية قضاء تاما هو من أهدافنا التى نريد تحقيقها

فاذا نجحنا فلا شك أن تركيا ستفقد كل الأجزاء التى نطلق عليها عادة اسم البلاد العربية

أما الوثيقة الثانية فهي مخابرة من موظف بريطاني فى العراق الى موظف بالمخابرات الحربية البريطانية فى مصر ومما جاء فيها :

" فان عبئا ثقيلا من اللوم يقع على كاهل الدول الأوربية التى كانت منذ زمن بعيد تعتبر تركيا حجرا من حجارة الشطرنج تنقلها كيفما شاءت أطماعها وبطريقة مخجلة زرية ...

" انه من المسلم به أن الولايات العربية لا يمكن ابقاؤها تحت السيطرة العثمانية ... (١)

وهكذا نعود فنوحد مرة أخرى بين الشرق والغرب بواسطة مصالح مشتركة بينهما ...

و تقدم أن نقلنا عن الدكتورين مصطفى خالدى وعمر فروخ قولهما من الكتاب الذي ألفاه وتقدم ذكره قبل قليل وهو :

" لقد أريد من العروبة أن تكون رابطة قومية مناقضة للأسلام ...

" ومما يؤسف له أن نفرا من الشبان العرب قد اعتنقوا فكرة العروبة المجردة من الأسلام ثم أخذوا وهم يدعون للعروبة يقاومون الحركات الاسلامية " (٢)

وهذا هو أعظم أهداف النصارى وهو الهدف الثالث:

ثالثا : مناقضة الأسلام نفسه بفكرة العروبة حتى يفتر العرب بعبادة قوميتهم عن عبادة الله بالأسلام له وحده فاذا فعلوا ذلك يتعدم الفرق بين عبادة مخلوق ومخلوق بل الأقوى أحق ، ولقد صرح رئيس جمعيات التبشير القس زويمر بهدف هؤلاء المبشرين وذلهم من جهودهم فى بلاد العرب هذه فى مؤتمرهم بالقدس (١٩٣٥م) بقوله :

" لقد أديتم الرسالة ... وان كان يخيل الي أنه مع اتمامكم العمل على أكمل وجه لم يفطن بعضكم الى الغاية الأساسية ...

" مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الأسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالاخلاق التى تعتمد عليها الامم فى حياتها ، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الأسلامية ...

" لقد قبضنا ... فى هذه الحقبة ... من ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع البرامج التعليمية فى الممالك الأسلامية المستقلة التى تخضع للنفوذ المسيحي ...

" ونشرنا فى تلك الربوع مكا من التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات وفى المدارس الكثيرة

---

١ ــ زين نور الدين زين : شؤون القومية العربية ، ص ١٢٥ ــ ١٢٧ ، ٢٢٥ .

٢ ــ د / مصطفى الخالدى ، د / عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٧٥ .

السياسية بوسائلهم واتصالاتهم الشخصية .

ثم انهم بدأوا " بلصق المنشورات في الشوارع من غير أن يكون عليها ما يدل على مصدرها .

" وكانت هذه المنشورات تتضمن تنديدا عنيفا بمساوئ الحكم التركي ، وتهيب بالسكان العرب أن يثوروا عليه ويطيحوا به .

" ان الفضل الأكبر في هذا الحديث عنها انما يعود الى أحد مؤسسيها الأوائل ، وهو الدكتور فارس نمر باشا " " هاجر الى مصر سنة ١٨٨٣م "

" وهناك عضو آخر من أعضاء الجمعية ... وقد أمدني هذا المضو بحقائق كثيرة تؤيد ما سبق .

"لقد قضيت ، خلال الرحلات التي قمت بها لجمع مادة هذا الكتاب أكثر من عام وأنا أتتبع الآثار ... لجمعية سنة ١٨٧٥م السرية وسألت أناسا كثيرين في جميع أنحاء بلاد الشام وفي القاهرة وبغداد وكان كثير منهم يتذكر ظهور تلك المنشورات ، واستطاع بعضهم عن معرفة شخصية أن يؤكد مدى الأثر العميق الذي خلفته في نفوس الشباب الناشيء بما تضمنته من نداءات حماسية .

" وبعد عام من ذلك عثرت ... في مكتب السجلات العامة في لندن ، على برقية أرسلها القنصل البريطاني العام ببيروت في ٢٨ حزيران يونية سنة ١٨٨٠م ، ونصها كما يلي :

" ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة . يشك في أن مدحت هو منشئها ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد . التفصيلات بالبريد القادم .

" وتلت هذه البرقية عدة رسائل رسمية ، بعضها من بيروت وبعضها من دمشق ، وقد تضمنت الرسائل حوادث القصة كما وصلت الى مسامع القناصل البريطانيين في ذلك الحين ، مع ملاحظاتهم واشاراتهم الى مصدر المنشورات . ولكن أهم من ذلك أن القنصل العام ببيروت رأى من الجدير أن يبعث مع رسائله نصوص ثلاثة منشورات مختلفة باللغة العربية الأصلية التي كتبت بها . وكان أحدها هو المنشور الأصلي نفسه انتزع قبل وصول الشرطة ، وكان الآخران نسخة عن الأصل .

"كان أولها قد أرسل مع رسالة مؤرخة في ٣ تموز (يوليه) ١٨٨٠م وهو أقصرها وأقلها قيمة ومع أنه أول منشور وصل الى القنصلية البريطانية غير أنه لا ريب لم يكن أول منشور أصدرته الجمعية ، لأنه يشير الى نداء قبله ويحاول أن يؤكد اخلاص كاتبيه ووطنيتهم في المنشورات السابقة وقد اشتمل على لوم أهل الشام لاستكانتهم واستسلامهم لطغيان الأتراك ولما تأصل فيهم من خلافات جعلتهم نهبا لمطامع الدول الأوربية . ويمضي (السياق) هذا المنشور يؤكد قيمة الوحدة وضرورتها ويهيب بالناس أن يدفنوا خلافاتهم وأن يتحدوا في وجه الطغاة مستلهمين أمجادهم العربية .

" وفى أعلى المنشور شعار يمثل سيفا مسلولا كتب تحته البيت التالي من الشعر :

لنطلبن بحد السيف مأربنا فلن يخيب لنا فى جنبه أرب

" أما المنشور الثاني ، وقد أرفق أيضا بالرسالة نفسها ، فهو أكثر صراحة وعنفا فى تنديده بالأتراك . فقد اتهمهم بالأخفاق فى تطبيق الاصلاحات التى ظلوا يعدون بها عشرين عاما أى منذ سنة ١٨٦٠م وهي السنة التى قامت فيها المذابح ببلاد الشام ، ويصمهم بأنهم لا أمل فى صلاحهم ولا خير يرجى من ورائهم . والشيء الجديد الذى لم يتضمنه المنشور السابق أن هذا المنشور الثاني يطالب مطالبة صريحة بأن تتمتع بلاد الشام بنظام حكم ذاتي ، بل ربما بالاستقلال كذلك ، ويختم المنشور بعبارة أدبية بليغة تؤكد عزم كاتبيه على العمل فى سبيل وطنهم مهما يكلفهم ذلك .

" أما المنشور الثالث فقد أرفق برسالة جاء فيها أنه ألصق على الجدران فى ليلة ٣١/كانون الأول (ديسمبر) /سنة ١٨٨٠م . وهو أهم المنشورات الثلاثة ، لأنه يتضمن أول بيان ، مدون عن برنامج العرب السياسي . وقد بدأ أيضا بالتنديد بالحكام الأتراك ، وأضاف الى شرورهم السابقة شرا جديدا هو محاولتهم القضاء على اللغة العربية . وقد ضرب على الوتر الدينى حين وصف انتحال السلطان للخلافة بأنه اغتصاب لحق العرب ، وحين اتهم الأتراك بأنهم كثيرا ما خالفوا شريعة الأسلام ...

" ان هذه المنشورات الثلاثة ، اذا ما نظرنا اليها نظرة شاملة ، لواضحة فى تطورها من التعميم الى التخصيص ، ومن التنديد الخطابي البلاغي بفساد الحكم التركي الى صياغة برنامج محدد ذى أهداف وطنية تظهر فيه ظهورا واضحا ثمار الجهود التى بذلها اليازجي لرفع شأن اللغة العربية ، والتى بذلها البستاني فى محاربة الجهل . وكان ابراهيم اليازجي ابن ناصيف عضوا فى هذه الجمعية ، ومما يزيد فى قيمة هذه المنشورات الثلاثة أن كل واحد منها ينتهي ببيت من أبيات القصيدة التى أنشدها قبل اثني عشر عاما .

" ومهما يكن من أمر ، فان نداءات تلك الجمعية كانت أول صرخة استنفار أطلقتها الحركة العربية الوليدة .

" وقد حققت هذه الاستثارة غرضها ، فصاغت الشعور المنصرى فى صورة عقيدة سياسية ، وبذلك لم تقتصر الحركة على مجرد رفع الراية ، وانما فعلت ما كان الناس أشد احتياجا اليه وهو اقامة السهم الذى يشير الى اتجاه الطريق ويدل عليها . (١)

ثم يستدل جورج أنطونيوس على ما أحدثته الحركة هذه بما سجله أحد الكتاب الفرنسيين وقد زار الشام كما يقول سنة ١٨٨٢م من كتاب : جبرائيل شارم ، رحلة الى بلاد الشام ، .

١ــ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية ، من ص ١٤٩ حتى ١٦٠ . وقد نشر زين نورالدين زين فى ملاحق كتابه نشوء القومية العربية ، وثيقة صور المنشورات

فقال هذا الكاتب الفرنسي :

" ... انتشرت روح الاستقلال انتشارا واسعا . وكان الشبان من المسلمين خلال اقامتي في بيروت ، منهمكين في تنظيم الجمعيات لأنشاء كثير من المدارس والمستشفيات وللعمل على النهوض بالبلاد . ومن أهم صفات هذا النشاط أنه برئ من وصمة التعصب الطائفي .

" فقد عمدت تلك الجمعيات الى قبول النصارى واشراكهم في العمل القومي . أما الأتراك فقد نحوا عن هذا الميدان "

ويستدل أنطونيوس بفرنسي آخر رحل رحلات واسعة في البلاد العربية في سنة ١٨٨٣م وينقل استدلاله عن كتاب : دبئيس دي ريفوار ، العرب الأصليون وبلادهم ، فيقول :

" ... لقد وجدت في كل مكان شعورا ثابتا هو بغض الأتراك ... وبدأت تتبلور بالتدريج فكرة القيام بعمل جماعي مدبر للتخلص من نيرهم الكريه . وتلوح عن بعد مظاهر حركة عربية حديثة النشأة ، ويوشك هذا الشعب الذي كان حتى الآن مهيض الجناح أن يطالب عن قريب بمكانته اللائقة في مستقبل الأسلام "

ويذكر انطونيوس اهتمام الممثلين السياسيين للدول الاستعمارية بهذه الحركات بل في متابعة مدها حتى في شبه الجزيرة العربية من داخلها مثل ما كتبه الممثل السياسي ، البريطاني بجدة في ١٠ أيار مايو سنة ١٨٨٢م ومن قوله :

" لقد علمت أن فكرة الحرية أصبحت الآن تحرك عقول بعض الناس ، حتى في مكة . وتسربت الي بعض الأنباء عن وجود خطة معينة لتوحيد نجد ، وعرب الجزيرة بزعامة منصور باشا ، وعسير واليمن بزعامة علي بن عابد . وسأعرف عما قليل هل هذه الأنباء صحيحة أو أنها ، مجرد أحلام وبناء قصور في الهواء ؟ " (١)

جمود حركة النصارى القومية زمن عبد الحميد في سلطانه :

"وانحلت جمعية بيروت السرية في هذه الأثناء خوفا من تعقب السلطان عبد الحميد في زمن يقع بين ١٨٨٢م ـ ١٨٨٣م ، وهاجر منهم من قد هاجر الى خارج البلاد ، لاسيما باريس ولندن وجنيف والقاهرة ، وذلك بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م . (٢)

" ولم يحدث في زمن عبد الحميد غير حركة سياسية أخرى هي الحملة التي قام بها نجيب عازوري ، وهو عربي نصراني ، ظهر نشاطه في السنوات الأخيرة من حكم عبد الحميد .

" بدأت الحملة في باريس سنة ١٩٠٤م حين أسس جمعية عرفت باسم " جامعة الوطن العربي " ... وما ان مضت سنتان بعد ذلك حتى كان قد استطاع أن يستميل بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين ويكسب تعاونهم معه فبدأ يصدر بالفرنسية مجلة شهرية عنوانها : " الاستقلال

---

١ ـ المصدر السابق ومن ص ١٦١ حتى ١٦٢ .

٢ ـ أنظر زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٦١ .

المربي "... ظهر العدد الأول منها في نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٧م . وكان هدف المجلة أن تنشر المعرفة عن البلاد العربية وأن تثير الاهتمام بقضية تحريرها (أي تستثير فرنسا وتستمد بها) (١)

مؤازرة النصارى لحركة الثورية على السلطان عبد الحميد

" ولما كانت مصر بعيدة عن متناول يد السلطان عبد الحميد فقد أصبحت القاهرة أحد مراكز التآمر ..

" وكانت باريس مركزا آخر من هذه المراكز . فتجمع في هاتين العاصمتين جماعات من اللاجئين السياسيين ...

" وشرعوا يتآمرون ويتصلون بالموالين لهم في سالونيك ليقضوا على استبداد (عبد الحميد) السلطان ، وآتت هذه المؤامرة ثمارها في الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩٠٨م (٢)

ومرينا ذكر شيوع أن والي الشام مدحت باشا صاحب دستور ١٨٧٦م ، وأبو الأصلاح الغربي ان لم يكن مؤسس جمعية بيروت السرية الثورية ضد الخلافة والخليفة فهو مطلع على سرها ، ومسبغ عليها حمايته وتوجيهه وكانت من أسباب استدعاء السلطان له ، ولذا انحلت هذه الجمعية وتفرق أعضاؤها ومن على شاكلتهم من النصارى وهاجروا الى خارج البلاد ، الى مثل باريس ولندن وجنيف والقاهرة بعد احتلال الأنجليز لها سنة ١٨٨٢م خوفا من السلطان ،

اتفاق قومي العرب مع الثوار الأعاجم بخلاف المسلمين :

ليس غريبا أن يلقى أصحاب هذه الحركة ومن النصارى على الخصوص العون الكبير والجو الملائم لتزايد حركتهم ضد الخلافة الأسلامية باسم القومية من تركيا الفتاة الطورانية فهي قومية ، وثمرة من ثمرات دعاة الأصلاح الغربي كمدحت باشا وغيره ، ولقد اتفق الجميع من القوميين من عرب وعجم على السير في تيار تركيا الفتاة حتى تمكنوا من خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩م بل على سلطان المسلمين بعد أن أرغموه ثوريا باعادة دستور مدحت باشا سنة ١٩٠٨م ، والذي كان قد وضعه مدحت سنة ١٨٧٦م بوحي من الغرب الصليبي ، ولذا لم يهتم بالمسلمين بل كان مدحت معرفا بميله للغرب النصراني فساوى بين النصارى والمسلمين في سلطانهم بل رفع النصارى عليهم فولى ولاة منهم على بلدان اسلامية ، وجر القوانين ، والشرائع الأوربية النصرانية الوثنية الى بلاده حتى أحلها هو ومن تبعه من دعاة الأصلاح الغربي محل شرائع الأسلام في مواطن الأن والأسلام .

بعث السفير البريطاني السير جوزر الى أدوارد غراي في ١٧ شباط ١٩٠٩م رسالة منها :

١ــ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

٢ــ المصدر السابق ، ص ١٧٤ . وانظر البرت حوراني ، الفكر العربي ، ص ٣٢٨ وما بعدها ، وزين نور الدين زين عشوء القومية العربية ، ص ٦٠ وما بعدها .

" أما بين العرب (المسلمين) فأن فكرة الدستور لم تترك في نفوسهم انطباعا عميقا اذ أنهم كانوا يشككون في أمر اجراء الأصلاح ، واذا كانوا قد ارتضوا الحكم التركي فلأنه كان حكما اسلاميا ولأنه كان للسلطان عندهم بقية احترام على أنه الرئيس الديني الأعلى في الامبراطورية العثمانية ...

" وكان العرب (المسلمون) يتساءلون اذا كانت أحكام الدستور تتفق مع مبادئ الشريعة وقد شكا أعضاء الرابطة من اللامبالاة التي أبداها السوريون ازاء الدستور " (١)

ولكن عرب النصارى فرحوا بالثورة وعودة الدستور ، وهذا أحدهم أنيس الخوري يصور فرحهم فيقول : " نشوة حبور لم يعهد لها مثيل فعقدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر و"في سوريا ولبنان وفي العراق أيضا "

وينقل وصف الزهاوي لهذا الفرح :

وقفت والعين تبكي من مسرتها ... أمام شعب من الأفراح عجاج
أمام بحر من الأفكار مضطرب ... أمام جيش من الأصوات رجراج
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب أمواجا بأمواج (٢)

وهل يفرح بمثل هذه الهجة والاضطراب والرجرجة والهياج والموجان الا من يقوم ويعمل في مثل هذه الفتن المظلمة ؟

وبعد هذه الفرحة بهذه الصورة التي رسمها الزهاوي تجتمع جمعيات النصارى وغيرهم ممن تعاونوا على الثورة وتنصب كلها في جمعية الأخاء العثماني ، وتأخذ الناس حميا التآخي بين ترك وعرب ومسلمين ومسيحيين وفي ذلك يقول جورج أنطونيوس :

"وفي هذه الأثناء أنشئت جمعية الأخاء العربي العثماني ...

" افتتحت رسميا في القسطنطينية في اجتماع للجالية العربية وبحضور أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي " ...

" وكانت أهدافهم الرئيسية المحافظة على الدستور وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان وتحسين أوضاع المقاطعات العربية على أساس المساواة الحقيقية مع الأجناس الأخرى في الدولة ، ونشر التعليم باللغة العربية ، وتنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية واتباعها ، وكانت عضويتها مباحة للعرب على اختلاف أديانهم ، وتقرر انشاء فروع لها في جميع المقاطعات العربية وأصدرت فعلا صحيفة للدعوة الى نشر مبادئها التي كانت تقوم كما رأينا على أفكار مضطربة مشوشة " (٣)

١ــ نقلا عن زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ١٥٩ ، ١٦٠ .
٢ــ أنيس الخوري ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، نقلا عن زين ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
٣ــ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٧٧ .

الخـــــــــلاف

كتب أحد الأوربيين أوريل هيد يقول : " ان ثورة ١٩٠٨م التى قامت بها جمعية تركيا الفتاة كانت تقول با لمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين بد ون تمييز لا فى الد ين ولا فى العرق غير أن الوعود الجميلة لم تحقق اطلاقا " (١)

لاغرابة فى وقوع الخلاف بين الثوار على السلطان الأسلامي لأن الاختلاف هو مقتضى ذات بينهم كما قال الله تعالى عن أمثالهم : (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) (الحشر: ١٤) و هذا ما حصل فقام الحكام الأتراك بحل جمعية الأخاء العثماني ، ورفعوا راية القومية الطورانية فوق راية القومية العربية ، وناد وا بتفوق العنصر التركي وصمموا على تتريك الأجناس الاخرى حتى العرب واستفحل الخلا ف بعد أن كانوا على ا تفاق ، كانوا على اتفاق فى محاربة الأسلا م والثورة على سلطانه فلما ظفروا ا ختلفوا على ا قتسام ما ظفروا به من الد نيا ، وما كا نت تركيا الفتاة لتفرط با لحكم وهي القريبة منه وكانت تسعى لاغتصابه من المسلمين ، وما كان يهون على ا لنصارى استئثار الأتراك بذ لك وهم المتوسلون بالقومية من الد اخل ، وبأوربا من الخارج للوصول ا لى الحكم فى بلاد المسلمين ، ومن هنا وقع الخلاف بين الثوار.

قيام جمعيات أ خرى لدى المغلوبين

لقد أسفر أمر الخلاف عن قيام جمعيات وأحزاب لدى القوميين وغيرهم من العرب لم يعلم الأتراك بوجود بعضها ولا بمقاصد بعضها الآخر يقول جورج أنطونيوس:

" وأصبح منذ ئذ نشر أفكار العرب القومية يتم فى ميدانين ميدان علنى مجال النواد ى والجمعيات ا لمعترف بها رسميا ، وميدان سرى تعمل فيه المنظمات السرية المتآمرة فى الخفاء ، وقد أنشىء عدد من هذه الجمعيات ومارست أعمالها بين سنتى ١٩٠٩م و١٩١٤م ،

وذكر أنطونيوس أيضا منها : اثنتين علنيتين ، واثنتين سريتين تتكامل أعمالها ، وأولى العلنيتين جمعية المنتد ى الأد بى فى صيف ١٩٠٩م فى القسطنطينية لتكون مقرا يلتقى فيه ا لعرب الوافد ون والمقيمون ، وزود وا النا دى بمكتبة وخصص قسم منه للنوم والضيافة وكان د ائب النشاط وعمله ا لأساسي توضيح الأفكار والآراء وتفسيرها على أساس الحركة العربية وتقوية دعوتها و توسيع مد اها ، وكان أ عضا ؤها كثيرين يبلغون ألوفا أكثرهم من الطلاب ، وأنشؤا فروعا لـه فى بلد ان كثيرة فى الشام والعراق .

وا لثانية أنشئت فى القا هرة سنة ١٩١٢م باسم " حزب اللامركزية " وكان مؤ سسوها نصارى خلّص ومسلمين مد هنين ، أو مستائين من تسلط تركيا الفتاة بغير الحق فحملهم ذ لك على هذا المسلك و كان هد فها انفصاليا ، وليس ا سلاميا خا لصا من النصارى وغير المسلمين ومن نظامها الأساسي

١ــ نقلا عن زين نور الد ين زين ، نشوء القومية العربية ، ص٨١.

قيام جهاز حزبي محكم وقد وكل أمر الاشراف اليها الى لجنة قوية يقيم أعضاؤها في مصر وأنشئت فروع لها في كل مدينة الشام ، ووكالات صغيرة في عدد من الأماكن الأخرى وكان ثمة اتصال وثيق بين فروعها والجمعيات السياسية العربية الأخرى في الشام والعراق ، و" المنتدى العربي "في القسطنطينية .

أما الجمعيتان السريتان فالأولى القحطانية أنشئت في أواخر سنة ١٩٠٩م بعد انشاء المنتدى الأدبي العربي ، وهدفها مشابهة الدولة النمساوية المجرية في اتحاد النمسا مع المجر ، كمملكتين لكل مملكة حكومتها وبرلمانها المحلي ، واتحدتا فيما عدا ذلك ، وتريد القحطانية أن يكون اتحاد العرب مع الأتراك كذلك فيضع السلطان العثماني على رأسه تاج المملكة العربية بالأضافة الى تاجه التركي كما كان امبراطور آل هابسبورغ في فيّنا يضع على رأسه تاج المجر بالأضافة الى تاجه النمسوي .

" وأعضاء الجمعية القحطانية يختارون بعناية ودقة ، فلم يسمح لأحد بالانتماء اليها الا اذا كان وطنيا ووطنيته فوق مستوى الشبهات وكان ممن يوثق بكتمانه السر ، وللجمعية كلمة سر ، واشارة لاثبات شخصية المضو كالجمعيات الماسونية ، وأسست لها خمسة فروع في خمسة مراكز بالأضافة الى القسطنطينية ، وتستمد قوتها من شخصية بعض أعضائها ، وتتمثل قيمتها في تاريخ الحركة القومية في أنها حاولت ضم ضباط العرب في الجيش التركي وتم لها أن انتمى معظمهم اليها وازدادت بهم الحركة قوة الى الثورة .

" ولقد انبثق منها في بداية سنة ١٩١٤م أن أنشئت جمعية العهد في القسطنطينية وأهدافها أهداف الجمعية القحطانية لكنها مفرغة بأسلوب عسكري وهي للضباط مثل "جمعية العربية الفتاة" للمدنيين وهي الجمعية السرية الثانية الآتي ذكرها :

والثانية " جمعية العربية الفتاة " سمية للتركية الفتاة ، وأسست في باريس سنة ١٩١١م ، أيضا كما أسست التركية الفتاة في باريس سنة ١٩٠٢م وهي السنة التي عقدت الفتاة التركية وأعني الجمعية مؤتمرها الأول فيها في باريس[1] تماما كما عقدت العربية الفتاة مؤتمرها الاول في باريس سنة ١٩١٣م الا أن التركية الفتاة أكبر منها في السن ، ولم يكن لأية جمعية أخرى ماكان لجمعية العربية الفتاة من أثر فعال في تاريخ الحركة القومية في العرب كما كان أثر أختها التركية الفتاة في الترك ، وكان مؤسسوها سبعة من الشبان العرب ، كما كان مؤسسوا التركية ، خمسة أو ثلاثة من الشبان الأتراك على مايذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته المنشورة في مجلة المجتمع عدد (٤٢٧) ، ٨/ ذي القعدة / ١٣٩٥هـ ، وكان مؤسسوا العربية الفتاة يدرسون دراستهم العالية في العاصمة الفرنسية ، وجميعهم ينتسبون الى المسلمين .

١ــ أنظر: زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، ص ٧٥، ٢٠٢ .

ويقول جورج : " ان انشاء هذه الجمعية يذكرنا بجمعية بيروت السرية التي أنشئت سنة ١٨٧٥م ، غير ان الفرق بينهما ان زمام المبادرة قد أصبح الآن بيد المسلمين "

ولا منازع من القوميين العرب فانهم يعترفون للنصارى بالأمامة كما يقول علي ناصر الدين في كتابه " قضية العرب " وعلي ناصر الدين هذا قومي عربي كما يقول عن نفسه (١) وشاهدنا هنا من قوله مانصه : " وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض الفضلاء المسيحيين ، الذين لم تكن ، تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينة ، ورابطة الأخاء الأسلامي ، وكانوا مثقفين الثقافة الغربية التي تقوم على تمجيد القومية ، وكان من زعمائها الأولين الدكتور فارس نمر ، والشيخ ابراهيم اليازجي ، والأستاذ نجيب عازوري اللبناني " (٢)

ونعود لمتابعة مايقصه جورج عن هذه الجمعيات العربية الجديدة ، يقول عن العربية الفتاة " وكانت أهدافها السعي لاستقلال البلاد العربية وتحريرها من السيطرة التركية .

وكانت تنمو بحذر وبسرعة حتى أصبحت أكثر الجمعيات العربية في ذلك الحين أثرا .

تتميز بالتنظيم الرائع لاعضائها . فقد كان لابد أن يمر العضو في فترة طويلة من الاختبار قبل قبوله . وكان كل مرشح يقدمه عضو قديم من حلف اليمين ، ويظل لا يعرف أشخاص الأعضاء الآخرين الى أن تنتهي فترة اختباره ويتم قبوله ، حينئذ يدعى ليقسم أن يسعى لتحقيق أهداف الجمعية ولو أدى ذلك الى التضحية بحياته اذا اقتضى الأمر " .

" وكان مركز الجمعية خلال السنتين الأوليين في باريس ، وبقي أعضاؤها قليلين . وبعد أن أنهى مؤسسوها دراستهم وتخرجوا عادوا الى بلادهم ، فنقلت الجمعية الى بيروت ، سنة ١٩١٣م ثم نقلت في السنة التالية الى دمشق . وزاد أعضاؤها على المائتين ، وكانوا من المسلمين والمسيحيين .

ثم تبلورت فكرتهم في قيام موجة من الحركة العربية القومية ، ولما وافت سنة ١٩١٥م اتصلت جمعية العهد العسكرية بجمعية الفتاة الفدائية في مدينة دمشق ووحدتا وسائلهما مما لأيقاد الثورة العربية . انتهى ما أردت ايراده من معلومات مختصرة عن هذه الجمعيات القومية العربية بعد خلاف الثوار فيما بينهم بعد نجاح ثورتهم القومية على خلافة المسلمين . (٣)

. . . . . .

١ــ انظر : قوله : "العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب . . . " الذي تقدم معزوا الى مصدره في ص٣٠ من هذا البحث .

٢ــ علي ناصر الدين ، "قضية العرب" ص٧٢ ، ط٣ ، بيروت١٩٦٣م نقلا عن أبي الحسن الندوي ، العرب والاسلام ، ص و ، ح . وانظر : ص ٢٨ من هذا البحث و ص٣٣ كذلك .

٣ــ اقتبست هذه المعلومات بنصوصها وبتصرف بسيط للترتيب والاختصار من دون اخلال بالمعنى من كتاب يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية لجورج أنطونيوس من ص ١٨٤ حتى ١٩٧ .

الثورة العربيـة

مرة أخرى يأتي ذكر الثورة العربية بعد أن ذكرناها فى دور اليهود ، ونذكرها هنا فى دور النصارى ، لأنها وليدة امتزاج جهود اليهود بجهود النصارى لصد العرب المسلمين بها عن الجهاد فى سبيل الله الموحد مع سائر المسلمين ، وكم نرى نقاط التقاء جهود كل من اليهود والنصارى فى الدورين؟ وكيف لا تلتحم وهي كلها موجهة ضد الاسلام؟ وبعضهم أولياء بعض؟ .

مر بنا أن القوميين من عرب وعجم اتحدوا مع أعداء السلطان عبد الحميد لأنه عطل الدستور الذى وضعه مدحت باشا بوحي من الدول الغربية بدعوى الأصلاح ، ولأن السلطان نادى بوحدة المسلمين وبعضهم تحت سلطة انجلترا كما فى الهند ، فراح السلطان يعزز الخلافة الأسلامية الجامعة ، وأبعد دعاة الأصلاح الغربي من كل جنس عن أمور المسلمين ، فثار عليه هؤلاء ممثلين بجمعية الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة وفيها عرب ، وظهرت ثورتهم وفرح بها دعاة الأصلاح الغربى من العرب خاصة النصارى لأنهم يحلمون بمساواتهم أو تفضيلهم وتحكيمهم فى المسلمين، فهم فى دعوى الاصلاح الغربي سواء، أو لا أقل من اطلاق يد نصارى العرب فى العرب كما انطلقت يد قوميي الترك فى الترك ، غير أن قوميي الترك مدوا يدهم على العرب واستأثروا بالسلطان على زملائهم فى الثورة وناد وا بتفوق الجنس الطوراني والقومية التركية على العرب والقومية العربية ، فقام هؤلاء العرب يؤسسون من جديد جمعيات ثورية وفى هذه المرة تضطرم روح الثورة ضد العنصر التركي علاوة على مضادتها للأسلام كما سبق من تشربها مبادئ أوربا وأفكارها ومعاداتها للدين بالكلية . وقد آتت هذه الجمعيات ثمارها لتوقد نار الثورة العربية بالقومية ، وكان يمكن لهذه الثورة العربية أن تكون ضد أثرة الأتراك وعنصريتهم وتنكرهم للغة العربية حتى فى شعائر الأسلام فحسب لولا أن اليهود والنصارى نفثوا لهـا فى عقدة القومية العربية فانسحرت بها واندفعت برايتها متحولة ضد الوحدة الأسلامية على الجهاد فى سبيل الله كما تقدم بيانه فى دور اليهود فى هذه الثورة ، أما كيفية باقى دور النصارى فى هذه الثورة فكمايلي :

يذكر جورج أنطونيوس : أن عبد اللـه الابن الثانى للشريف حسين قد وجد فيه دعاة الحركة القومية آنذاك فى سنة ١٩١٤م أنه شاب بارز فى دوائر الأتراك السياسية ويمتاز منذ صباه عن ذوى قرباه بروحه المستقلة واعتزازه بنسبه وتحمسه لأظهار فضل بنى قومه ، وقد أتاح له مقامه الطويل فى القسطنطينية أن يجيد اللغة التركية وأن يتحلى بالكثير من طبائع علية الاتراك ، فخفف ذلك من حدته العربية ...

واتصل باللورد كتشنر المعتمد البريطاني ، وحضرا اجتماعهما رونالد ستورز ، وفهم منه المعتمد البريطاني امكان استغلال أسرته فيما يهمه كثيرا من سياسته فى الرابطة الأسلامية

التى تولدت أهميتها فى نفسه من اتصاله المباشر بقوى المسلمين النضالية وقلقه بمقر الخلافة ـ القسطنطينية ـ أثناء وجوده بالقاهرة .

وكان عبد الله ينتمي الى احدى الجمعيات السرية فى الشام . (١)

وحصلت اتصالات هذه الجمعية السرية النصرانية بالشريف حسين وأولاده ، يقول أنطونيوس:

" بينما كان الشريف يتلمس الظروف والاحتمالات من حوله ـ للثورة ـ وصله رسول من جمعية " العربية الفتاة " التى أصبح مقرها الآن دمشق ، وكان هذا الرسول هو فوزى البكرى .

" وما كاد يتلقى الأمر بالتوجه الى مكة حتى أطلعته الجمعية على سرها وأصبح عضوا فيها بعد أن حلف اليمين ، وحملته الجمعية رسالة لينقلها الى الشريف . وكانت الرسالة شفهية فحواها أن الزعماء الوطنيين فى الشام والعراق ، ومن بينهم ضباط كبار من العرب فى الجيش التركي ، يميلون الى الثورة للحصول على استقلال العرب، فهل الشريف على قيادة الثورة ؟ واذا وافق على ذلك فهل يستقبل وفدا من الجمعية فى مكة ، أو يرسل الى دمشق مندوبين يثق فيهم للاتفاق على مراحل التنفيذ "

" وصل فيصل دمشق فى طريقه الى الاستانه مندوبا لوالده من أجل تطمين الحكومة على أن نوايا والده تجاههم حسنة ، وفى دمشق نزل على آل البكرى، واطلع على أسرار الحركة العربية القومية فى جمعية العربية الفتاة ، وكشف فيصل بعض الشيء عن دخيلة نفسه ، دل على أن وحدة المشاعر بين فيصل ومحدثيه وحدة لا ريب فيها ، أصبح فيصل أقرب الى نفوس أعضاء جمعية العربية الفتاة ، وكشفت الجمعية أسرارها لفيصل فأصبح عضوا فيها بعد أن حلف اليمين ثم اجتمع ببعض أعضاء جمعية "العهد" وهى المنظمة السرية العسكرية ، ثم أصبح عضوا فيها أيضا ، وقد أعجب فيصل اعجابا شديدا بتنظيم جمعية العهد ، اذ كان زعماؤها قادرين على أن يوقدوا نار الثورة فى صفوف الجيش حينما يشاؤن ، وقد انضم فيصل الى هاتين الجمعيتين بحماسة المؤمن المخلص، وقد أخبر الزعماء بمرض كتشنر . . . .

ولما عاد فيصل من الاستانة الى دمشق مرة أخرى فى طريقه الى مكة وجد زملاءه فى جمعيتى الفتاة والعهد قد اتفقوا على خطة العمل أثناء غيابه . ووضعوا ميثاق الثورة يتضمن الشروط التى يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانية العظمى على تركية ، واتفقوا على أن يحمل فيصل هذا الميثاق الى مكة، وأورد جورج نص الميثاق ص٢٤٣ من كتابه : يقظة العرب. وهذه المعلومات يقول أنطونيوس فى هامش ص ٢٣٧ من كتابه : يقظة العرب المذكور انه يرويها عن فيصل بن الشريف حسين نفسه مباشرة ، وكذلك عن أحمد قدرى العضو النشيط فى جمعية

١ـ جورج أنطونيوس، يقظة العرب ، من ص ٤٠ حتى ٢١٤ .

العربية الفتاة .

" وفي تلك الأثناء بذلت السلطات البريطانية في مصر كل مافي وسعها لتفادى مخاطر الدعوة الى الجهاد وكان الرجلان القائمان في مصر بالجهود الرئيسية في بداية الأمر هما : السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني مستر رونالد ستورز ، ومدير المخابرات العسكرية في القاهرة المقدم ج . ف . كلايتون ، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٥م تسلم سير هنري مكماهون عمله مندوبا ساميا في مصر والسودان ، وكان سير ريجنالد ونجت حاكما عاما للسودان ومقر قيادته الخرطوم . وحمل هؤلاء الأربعة العبء الأكبر من هذا العمل الشاق .

وحصلت المراسلات بين الشريف حسين وبين مكماهون بعد كتشنر بين عامي ١٩١٥م-١٩١٦م ويقول أنطونيوس ان فكرة القيام بالبحث لتجميع نصوص هذه المراسلات اقترحها عليه الشريف حسين نفسه سنة ١٩٣١م قبل وفاته بأشهر قليلة . (١)

"ثار الشريف حسين في يوم الأثنين الخامس من حزيران يونيه سنة ١٩١٦م ، وأرسلت بريطانيا الصليبية المدد والذخائر والمال للثوار ووصلت جدة ومعها ستورز ولورانس يخططان ويوجهان الثورة ويشرفان على التنفيذ في ضرب وحدة جهاد المسلمين ولتكون الثورة قومية بحتة حتى تتحول ضد الخلافة وضد وحدة المسلمين ، وضموا تحت لوائها النصراني من العرب والعربي من المسلمين جنبا الى جنب يحاربون من أجل انتزاع السلطة ووضعها بيد القوميين النصارى وغيرهم تحت توجيه بريطانيا ورضى فرنسا وقادها لورنس حتى انتصر ودخل دمشق على رأس جيش عربي ، وتمكن من أن يشكل حكومة عربية بنفسه وينصب على رأسها فيصل بن الشريف ، ويلاقيه الجنرال اللنبي فاتحا مدينة القدس يقول : " الآن انتهت الحروب الصليبية ياصلاح الدين " .

تواثب النصارى على حكم الشام بالقومية العربية

ثم تتدخل فرنسا حامية للموالين لها من نصارى لبنان وسوريا وتسقط حكومة فيصل رغم عروبته وطنيته فتقوم الأحزاب النصرانية القومية تتواثب على كرسي الحكم على المسلمين كالحزب القومي السوري الذي أسسه أنطون سعادة في ١٩٣٢م ، يقول البرت حوراني :

" كان انطون سعادة مسيحيا لبنانيا ، نشأ في البرازيل ، وربما تشرب هناك ذلك النوع من الوطنية السورية الذي كان شائعا بين الطبقة اللبنانية المثقفة في أواخر القرن التاسع عشر والذي حافظت عليه الجاليات اللبنانية المتحجرة في المهجر ، بينما كان آخذا في الزوال في الوطن الأم .

"لقد بسط أنطون سعادة بنفسه هذه العقيدة في مؤلف عام لم يصدر منه الا الجزء الأول فقال

١ــ جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، من ص ٢٣٢ حتى ٢٤٥ .

بأن الأمة هي الوحدة الأساسية للتاريخ الأنساني ، وبأنها تنشأ عن المصلحة والأرادة لاعن اللغة أو الدين ، وبأنها قائمة بذاتها ، لاتخضع لأى سلطة الا التى تنبثق عن ذاتها .

" كما أن الدكتاتور السورى الذى خلف حسنى الزعيم مباشرة وهو أديب الشيشكلي كان هونفسه من محبذى الحزب (أى حزب أنطون سعادة الذى) لعب دورا مهما فى الحرب الأهلية فى لبنان عام ١٩٥٨م تأييدا للرئيس شمعون وسياسته الغربية "(١)

وما زال هؤلاء القوميون النصارى يتمسكون بعلمانية أوربا كوصفة يلبسون بها على الأمة العربية حتى لاتستفيق بالأسلام . فهذا قسطنطين زريق يؤلف كتابه " الوعي القومي " بعد النكسة سنة ١٩٤٨م يصف فيه " أن السبب الأساسي لهزيمة العرب وللخطر المحدق بهم انما هو عدم وجود أمة عربية بالمعنى الصحيح ... الا بتغيير أساسي فى حياة العرب وتفكيرهم ... بحيث يصبح العرب ، واقعيا وروحيا جزءا من العالم الذى نعيش فيه ، فيتبنوا أساليبه المادية ، وعلمانيته ، وطرق تفكيره العلمي وقيمه الخلقية "(٢)

فانظر كيف ينصح للأمة العربية بأن يشاركوا بالأخذ فى أسباب الهزيمة ؟

القومية العربية يتسلمها حزب البعث النصراني

وفى هذا الجو المظلم ... يتسلم نصارى حزب البعث القومية العربية ، وما أدراك ما حزب البعث ؟ يذكر البرت حوراني : أن حزب البعث تأسس فى دمشق فى الأربعينيات أسسه ميشال عفلق ، وأنه أعطى شكلا سياسيا لقومية عربية أكثر شمولا ، فلعب دورا مهما فى لبنان والأردن والعراق فضلا عن سوريا ، كما كان له ضلع كبير فى قيام الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٥٨م كان هذا الحزب يطمح الى تسلم الحكم ، فلم يسمح لنفسه بتحديد موقفه التحديد الدقيق الذى من شأن المفكر المنعزل أن يقوم به . غير أن دستوره انطوى ضمنا على عقيدة متناسقة وصفها مؤسسه ، ميشال عفلق ، بأنها عقيدة عروبية شاملة قبل كل شيء ، تقول بـ " أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة " وترى أن الرابطة القومية بين الفرد وأمته هي أساس الفضيلة السياسية ، وأن هذه الرابطة لايمكن أن تكون الا رابطة عربية لدى كل من كانت لغته عربية وكان مستوطنا بلدا عربيا ومؤمنا بانتمائه الى الأمة العربية " وهي تستبعد كل انتماء الى وحدات اقليمية أو دينية أصغر ، وتعتبر جميع البلدان العربية أجزاء متساوية من الأمة العربية الواحدة .

اندمج حزب البعث بحزب أكرم الحوراني الاشتراكي ، فأصبحت الاشتراكية فى نظر حزب البعث جزءا جوهريا من القومية العربية .

١ــ البرت حوراني ، الفكر العربي ، ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩ .
٢ــ نفس المرجع ، ص ٤٢٣ .

ارتبط الى حد كبير بنظام الحكم العسكرى فى مصر خلال السنوات السابقة لقيام الجمهورية العربية المتحدة .

والسبب الطبيعي لذلك الارتباط هو تطلع الراغبين المفلقين الى احداث تغييرات سريعة فى منطقة لم يكتمل وعيها السياسي بحيث تستطيع أن تحقق بنفسها مايحققه الرأى العام المثقف والمنظم فى بلدان أخرى كأوربا (١) ، هذا على حد رؤية النصارى .

مبادئ حزب البعث :

١ــ الأمة العربية وحدة ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها عرضة زائفة عرضية تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

٢ــ الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة فى مراحل التاريخ ، وترمي الى تجديد القيم الأنسانية وحفز التقدم البشرى ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الامم .

٣ــ حزب البعث العربي الاشتراكي قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ، وبأن الشعور القومي الواعي الذى يربط الفرد بأمته ربطا وثيقا هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسؤولية ، عامل على توجيه انسانية الفرد توجيها عمليا مجديا .

٤ ــ حزب البعث الاشتراكي العربي اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية لأنها النظام الذى يسمح للشعب العربي بتحقيق امكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نموا مطردا فى انتاجها المعنوى والمادى وتآخيا وثيقا بين أفرادها .

٥ــ الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة فى الدولة العربية التى تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم فى بوتقة أمة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والأقليمية .

٦ــ يوضع بعمل الحرية تشريع موحد للدولة العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر وعلى ضوء تجارب الأمة العربية فى ماضيها . " (٢)

ويعود ميشال عفلق يطمئن اللبنانيين فى خطاب له فى عام ١٩٥٥م فى طلبة المغرب العربي ، فيقول : " واجبنا أن نشرح للبنانيين بأن العروبة التى نعمل لها هي عين مايطلبونه ويطمحون اليه من وراء التهرب من العروبة ، فالعروبة تمنع الضغط الدينى ، انهم يتهربون لاعتبارهم أن العروبة وهي الأسلام بنظرهم لاتسمح بتكوين مجتمع يحفظ كرامة الأنسان ويساير التطور الحديث فى العالم " (٣)

١ــ البرت حوراني ، الفكر العربى ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

٢ــ نقلا عن أبى الحسن الندوى ، من كتابه : الصراع بين الفكرة الأسلامية والفكرة الغربية فى الاقطار الاسلامية ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

٣ــ نقلا عن محمد جلال كشك ، القومية والغزو الفكرى ، ص ٨٤ .

ولقد كشف هؤلاء النصارى عن وجوههم سافرة حين تولوا الحكم وتمتعوا بالسلطان فجعلوا من قوميتهم العربية عداوة الأسلام ونبذه علانية وفتنة المسلمين وأذيتهم لا يرقبون فيهم الا ولا ذمة ، ولقد قاتلوا المسلمين حتى كانت الفتنة وقالت اذاعتهم على مسمع من المستمعين

" آمنت بالبعث ربا لا شريك له وبالعروبة دينا ما له ثان .. "

وقالوا هاتفين : " البعث ديني ، والعروبة مذهبي "

وقال قائدهم : "يجب تجميد القرآن لأنه يولد الكبت"

ومزقوا القرآن في حمص وامتهنوه في السويداء وألقوه على الأرض ، (١)

وعلى العموم فسلوكهم مع الاسلام والمسلمين هو سلوك الصليبية ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، لقد كان الصليبيون هم أبطال محاكم التفتيش في الأندلس وغيرها ، وهؤلاء هم ورثتهم وعلى ملتهم وما ننسى ما نشرته جريدة بعثية من القوات المسلحة تحت عنوان " الله والرسول والدين والأخلاق دمى محنطة في متحف التاريخ "

وكان موقف الشيخ حسن حبنكة الانكاري معروفا ومشتهرا سمعت به وملأ آذان أناس كثيرين .

.....

١ـ أنظر : مجلة المجتمع ، ٧ شعبان / ١٣٩٦هـ العدد ٣١١ ص ١٤ وما نقلته عن جريدة العروبة ـ الحمصية ـ في عددها رقم ٢٨٥ الصادر في ٣/٥/١٩٦٤م .

الفصـــل الرابـع

نقد القـومـيـة العربيـة

عرفنا من الفصلين السابقين وهما دور اليهود ودور النصارى أن القومية ذاتها هدى يهودى ناسب طبيعتهم المغلقة ودينهم المحتكر لمصلحتهم ، وانعزاليتهم عن جميع المجتمعات الا بقدر ما يستغلونها ، اتخذوا القومية الصهيونية كسلاح يحافظون به على ملتهم اليهودية الظالمة المغضوب عليها فنجحوا فى ذلك ، وأوصلوا بهذه الوسيلة الى هدفهم الفاسد ، من الأنانية بغير الحق ، وتفضيل محبة النفس على الحق ، واعتقاد الأفضلية على سائر الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، ومن نسل الأله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

ثم انهم قبل ذلك وأثناءه وبعده يتخذون القومية نفسها سلاحا ضد أى تكتل يقف دونهم فى مايسعون به من فساد ، وأول ما أعملوا به هذا السلاح الفتاك هو وحدة النصرانية العالمية حيث كانت محل عبثهم و منفذ مكرهم رغم ما تظاهرت به من قوة بتفتحها على العالم واتساعها لجميع الأجناس واجتماعها على النصرانية ، والاجتماع قوة ، فنشر اليهود فيهم فكرة القومية يفرقونها الى قومياتها المتعددة ، فيسهل على الصهيونية العالمية (القومية اليهودية) ابتلاعها ، وكان ماكان من تفتيت امبراطورية النصارى العالمية ، وتفريق دينهم الى مذاهب قومية ، أى صار كل مذهب منها يخدم قومية من ذهب به .

انشطرت الأمبراطورية الرومانية الى غربية وشرقية ، أما الغربية فبقيت على كاثوليكية ولاتينية ، ديانة ولغة وسياسة ، وأما الشرقية فاتخذت المذهب الأرثوذكسي باللغة اليونانية سياسة وديانة ولغة ، وحدث مايشبه ذلك عند ظهور المذهب البروتستانتى ، فان الأصلاح الذى أخذ به النصارى الأصلاح الذى بشر به لوثر الشهير ودعا اليه ، حيث لم يكتف باحداث انشطار مذهبى فحسب ، بل أوجد بجانب ذلك انشطارا سياسيا واجتماعيا خطيرا فى وحدة النصرانية لأن الكاثوليكية كانت أبقت الأنجيل باللغة اللاتينية وحدها ، وجعلت اللاتينية لغة الصلوات كلها . ولكن لوثر حينما ثار على الكاثوليكية ـ وعلى البابوية التى تمثلها ـ قائلا بضرورة ترجمة الانجيل الى اللغات المحلية ليتمكن الناس من قراءته وفهمه مباشرة بلغتهم ، قد أحدث بهذا انقلابا قوميا فى ظل الانقلاب الدينى الذى جهربه ودعا اليه ، لأنه وضع حدا لسيطرة اللغة اللاتينية ـ التى كانت قائمة على معنوية الانجيل ـ وقضى على نفوذ اللاتين المستمد من لغة الصلوات الدينية ، وطبيعة التشكيلات البابوية ، وفسح بذلك مجالا واسعا لجعل المذاهب والكنائس قومية بكل معنى الكلمة . وساعده على النجاح ارتفاع الأنجيل السماوى المنزل ونسخه بالقرآن الكريم ، ووضعية الاناجيل البشرية كلها ، حتى لم يعد فى أيدى النصارى قاطبة ، انجيل الا وقد انقطع سنده بالمسيح واقتصر على تأليف من بعده ، ألفه وسماه انجيلا ، هذا

فى جميع الأناجيل التى يعترف بها النصارى ويعملون عليها كأنجيل متى وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا وانجيل يوحنا ، وهذا مايقرره الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله فى كتابه :محاضرات فى النصرانية ، ولذلك ساغت مطالبة لوثر بترجمة الأنجيل هذا الى اللغات المحلية ، فأصبحت جميع الكنائس البروتستانتية فى جميع البلاد الأوربية قد أخذت شكلا قوميا ، وعاد لكل قوم انجيلهم بلغتهم القومية وكنيستهم بتقاليدهم القومية ، ومابقي بين دول النصرانية وطوائفها رابطة على أساس واحد من دينهم بل جرت الحروب الطاحنة بينهم بسبب القومية [١] التى سقاها اليهود بنشر الفوارق التاريخية ونبش المدافن لاخراج الآثار المتباينة ،بدافع تقوية قوميتهم "الصهيونية العالمية" وتمزيق كل تكتل عالمي ضدهم ، وامتصاص مشاعر الكراهة ضد هديهم الفاسد بالمشاركة فيه .

ولما استوى النصارى مع اليهود فى هذا الاغترار القومي واستساغ النصارى طريقة اليهود وحصل الرد بينهم على هذا الأساس القومي اتفقوا جميعا على أن يبثوا دعاءهم فى الخلافة الأسلامية المتحدة على أساس الأسلام من جميع أجناس العالم ، وبدأت القومية تنتشر فيها أولا فى الاتراك ثم فى العرب نشروها فيهم على المفهوم الأوربي أى كفاية محبوبة من دون الله ، ولقد تقدم في الفصول الثلاثة السابقة من الأدلة والبراهين مالا يدع مجالا للشك والريب أن فكرة القومية العربية ، فكرة أوربية نصرانية يهودية ولو لم يكن من أمرها الا أنها كذلك لكفى كل ذى عقل رشيد أن يرفضها و يرتاب بكل ماتروج به ، وتحسن من مغريات ومطامع لا تعدو أن تكون مصائد وحبائل ومكائد ، ولقد بين الله لنا أتم بيان و أوضح برهان عن مقاصد اليهود والنصارى فينا وعن حقيقة عواطفهم ومودتهم قال الله تعالى : (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) البقرة: ١٠٥،

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) البقرة: ١٠٩،

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير) البقرة: ١١٩،

(ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) آل عمران: ٦٧

(وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) البقرة: ١٣٥،

(ودت طائفة من أهل الكتاب لويضلونكم وما يضلون الا أنفسهم و ما يشعرون) آل عمران: ٦٩،

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله

١ــ انظر: ساطع الحصرى ،ابحاث مختارة فى القومية العربية، ص ٤٨، ٤٩ .

اليك) المائدة: ٤٩ ،

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) المائدة: ٨٢ ،

وقوميوا النصارى مشركون لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ثم اتخذوا القومية كغاية محبوبة من دون الله على نمط اتخاذهم الاحبار والرهبان والمسيح أربابا كما هو مقتضى المنطق الذى بدأوا به فى الانحراف وهو تأليههم المسيح .

ومن هذه الآيات الكريمة اذا تأملناها وتدبرناها لا يبقى عندنا شك فى أن اليهود والنصارى ، مغضوب عليهم وضالون قد أضلوا كثيرا ، وليس عندهم خير لأحد مادام هذا فعلهم بأنفسهم ، وان زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا فأنه ليس بحسن ولا فيه مصلحة فى الدنيا والآخرة .

ثم لننظر الى الواقع للقومية ذاتها نظرة انصاف نجد أن واقعها منذ بدئها بتأسيس جمعية بيروت السرية ١٨٧٦م عكس ما يبشر به القوميون من قوة و وحدة وعزة تأتى به القومية تماما ، فقد كان العرب قبلها متحدين بينهم تحت ظل خلافة المسلمين ، ومعززين بالأسلام ، ومتقوين بالمسلمين ، ثم فصلوا بالقومية العربية ، وأفردوا بها كما يفرد البعير المعبد ، ثم تجزأت هذه القومية على نفسها الى أكثر من عشرين دولة ، ولم تستطع هذه القومية أن تجمع نفسها ، خلال هذه المدة الطويلة وكلما اشتدت الدعوة اليها اشتدت بتفريق أهلها كما يحدث فى بيروت بؤرة القومية العربية و منبت دعوتها من حروب أهلية .

ونظرة تاريخية الى ميدان القومية التنفيذى كافية فى الحكم على أنها لا تلتموا فى غير ميدان عبودية غير الله تعالى ، ذلك الميدان هو ميدان المسكرية فى أوربا كألمانيا وغيرها ، تلك التى انحرفت عن أن تكون جندية لله عز وجل وفق المشروع الاختيارى الرباني وأصبحت فى دائرة اختيارها جندية لغير الله ، للحاكم مثلا ، وسرت عدواها الى جميع القطاعات العسكرية التى تدربت على نظم العساكر الأوربية هذه ، وساعد على ذلك رغبة الحكام الجامحة الى درجة تأليههما لهوى النفس فنازعت الله سبحانه فى حكمه ودلاها الشيطان بغروره ، وأوهمها أن الحكم اللائق بهم هو الحكم المطلق من شرع الله تعالى ، وزين لهم الشيطان أن يروا الجندية تضحية فى سبيلهم وطاعة عمياء تصرف لهم وحدهم ، وباتفاق الطرفين السياسي على هذا ، صارت العسكرية عبودية للعبيد ، والعسكرى فى سخرة لهذا التعبيد ، ان أداها كاملة فهي لم تنشأ عن اقتناع باطنى ولا عن سلام قلب وانما يؤديها وفى أعماق ضميره أنه وضعها فى غير مكانها يسايس بها ويتصيد ضروراتها التى توهم أنه لا يقضيها الا بهذا المسلك ، ولذا فهو ، يتعذب ويتمزق داخليا . فما نفجر عن ذلك ثورات عسكرية ، وطغيان جامح بالحرية ، وظهر المتصفون بالأحرار من ضباط وغيرهم ثائرين على الملوك والأمراء والسادة والأشراف والنبلاء والأقطاعيين بل وعلى جميع الثوابت والمراسي للمجتمعات ..

وهكذا أتي أولئك الحكام المتألهون من قبل من عبّدوهم وظنوهم مأمنا لهم وجندا محضرا .

ولما انفلت العسكر من عبودية الافراد ، وتقديس تصرفاتهم الفردية الخاطئة ، ولم يستطيعوا انكار فطرة التعبد ولامحوها من كيانهم ، وكان الشيطان قاعدا لهم بأعوانه صراط اللـــه المستقيم ، يحرف فطرتهم السوية فزينوا لهم عبادة الأمـة وفكرة القومية كغاية محبوبة من دون الله ، وحيث كانوا حديثي عهد بالطاعة العسكرية العمياء قبلوا هذه الفكرة وظنوها ، السمة المطلوبة والرحبة المنشودة ، فالامة أوسع من الأفراد ، لكن اذا وصل الملهم القائد من هؤلاء العسكر الى مركز السلطة ، استهان بالأمة التي يرى أنه اعتلى رئاستها ، وزين له الشيطان عبادة نفسه ، وكرسيه ، ورغب في استعباد من دونه ، وضحى بمن ينازعه هذا الهوى وان كان زميله وعوينه بأى وسيلة ولو بالغدر والحيلة ، وهكذا يعود الانسان التائه الى مبدأ ضلاله الاول ويستمر في هذا الدوران الا أن يهديه الله فلا مضل له ، فلو ترك هذا الانسان هواه لأمر الله وقام ممتثلا لامره على سنة رسوله صلى الله عليه وسلم واكتفى بذلك لكفاه الله فأن جعله الله حاكما نفذ حكم الله في خلقه وعامل خلق الله بأمر الله وشرعه وتوكل على الله فيما يهمه فان حفظه وسخر له شكر ، وان اقتضت حكمته ان يبتليه في هذه الدنيا صبر محتسبا الاجر في الحياة الاخرى الخالدة ، وان جعله الله محكوما فهو يقوم بواجبه يرى أنه من جند الله يطيع حاكمه مالم تمنعه عن طاعة رب العالمين ، وهذا هو الوضع السليم القوى العميق ، الذى ينبثق من القلب ، ويمر جوارحه بلا تردد مع كل خطوة يخطوها .

وكم بين جند الله المسلمين في طاعتهم لأمرائهم وخلفائهم في السر والعلن موقنين بأنه ان لم يرهم الامير فرب الأمير يراهم وبين جند الله الكافرين بربهم ، وهو ربهم الكريم ، الذى خلقهم فسواهم فعدلهم ، في أى صورة ما شاء ركبهم ، في خداعهم ونفاقهم وتربصهم الدوائر بأمرائهم وخلفائهم ومتى أمكنتهم القدرة الالهية لا يرقبون ربا ولا يفون بعهد ولا ذمـة ؟

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد : ١١ ،

والذى لامراء فيه كما تقدم أن فكرة القومية العربية في مصطلح أهل هذا العصر هي فكرة القومية في أوربا ، أى الدعوة الى العروبة كغاية ، انما محبوبة من دون الله على غير شريعة رســولـــه صلى الله عليه وسلم بل على سنن الشيطان وخطواته باليهود والنصارى وسائر المشركين ، وهذا مصداق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم (لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فقيل يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس الا أولئك ؟) (١)

١ــ صحيح البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب ١٥ .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟) (١)

قال شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله : " وليس هذا اخبارا عن جميع الامة ، بل قد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة)(٢) وأخبر صلى الله عليه وسلم (أن الله لايجمع هذه الأمة على ضلالة) (٣) و (أن الله لايزال يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته) (٤) فعلم بخبره الصدق أن لابد فى أن يكون فى أمته قوم متمسكون بهدايه الذى هو دين الأسلام محضا ، وقوم منحرفون الى شعبة من شعب دين النصارى .

" وان كان الرجل لايكفر بهذا الانحراف بل وقد لايفسق أيضا ، بل قد يكون الانحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة ، وقد يكون خطأ ، وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ، ويزينه الشيطان .

" فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية الى الاستقامة التى لايهودية فيها ، ولا نصرانية أصلا " (٥)

والدعوة الى المروءة ، كغاية ، اذا عرضناها على ضوء الأسلام فبحثنا فى القرآن الكريم نجد أنه لم يرد فى القرآن المبين لفظة المروءة والعرب بعينها ، ولانجد فيه أن الله تعالى ناداهم بهذا اللفظ الخاص فلم يقل : " ياأيها العرب " أو "ياعرب " كذلك لانجد فيه أن الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم بهذا اللفظ فلم يقل : " قل ياأيها العرب" أو قل ياعرب ، وانما نجد " ياأيها الناس " و" يابنى آدم " و"ياأيها الذين آمنوا " و" قل ياأيها الكافرون " .

وبما ان العرب جيل من الناس فقد دخلوا فى الناس فى خطابهم ، ولأن العرب من بنى آدم فقد دخل خطابهم فى خطاب بنى آدم كذلك ، وبالأولى يدخل مؤمنهم فى خطاب المؤمنين وكافرهم فى الكافرين ، وهم أول من يدخل فى خطاب الناس وأول من يعنى بالدعوة الى الله وبالبشارة والنذارة .

١ــ صحيح البخارى كتاب الاعتصام ، باب ١٥ ، وفى مسلم ، كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، ٢/٢ / ٢٢٠ .

٢ــ هو فى صحيح البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب ١١ .

٣ــ انظر: مسند أحمد ٥/١٤٥ . والترمذى ، أبواب الفتن ، باب (٧) فى لزوم الجماعة .

٤ــ هو فى سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب ١ رقم ٨ .

٥ــ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الأسلام أحمد بن تيمية ، ص ٥٥ ، ٦ .

ولانجد فى القرآن الكريم نداء للرسول صلى الله عليه وسلم بـ "ياأيها العربي" أو "ياعربي" لكن نجد فيه "ياأيها الرسول" و "ياأيها النبي" مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عربي وذلك اشارة الى أنه مخاطب بما هو أعلى وأعز، بالرسالة، وبالنبوة، لا بالعروبة والعربية، بل لانجد فى القرآن الكريم خطابه بيا محمد كما لم نجده خطابا مرغوبا فيه من الصحابة مع أن اسمه محمد، وانما المرغوب خطابا ونداء هو "يارسول الله"، "يانبي الله"، وذلك اشارة الى تعيينه بالرسالة، كما قال الله تعالى: (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) النور: ٦٣. وندائه بالرسالة أعظم من ندائه باسمه المجرد وان كان حسنا يدل على المحامد.

ثم اذا تأملنا فى القرآن الكريم لانجد نفيا للفظة "عرب" ولا ما دلت عليه ولا نهيا عن ندائهم، ودعوتهم الى الأسلام لله تعالى بهذا اللفظ أو بما يدل عليه، ونجد فى القرآن الكريم: "قل ياقوم" و "وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون" و "وأنذر عشيرتك الأقربين"، فناداهم، ودعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الخصوص وعلى العموم يدعو الى الله على بصيرة.

وفى القرآن الكريم المبين نسبته الى أنه نزل بلسان عربي مبين، وفى معرض الامتنان من الله وأنه نزل كذلك لعلنا نعقل، كما قال تعالى: (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) يوسف: ٢.

وقال البخارى: "باب نزل القرآن بلسان قريش" وساق بسنده عن أنس أن عثمان رضي الله عنه دعا زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك" (١)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: "فلم يختلف لسان قريش والانصار الا فى لفظ (التابوت)، فالانصار يلفظونه التابوه وقريش تلفظه التابوت فرفعوه الى عثمان فأمر أن يكتب بلغة قريش فكتبوه التابوت بلغة قريش" (٢)

وليس معنى هذا كما يوهم القوميون أن القرآن بحاجة الى لغة العرب والى العرب، بل العكس هو الصحيح، أى أن اللغة العربية بحاجة الى القرآن لتبقى وتشرف، والعرب هم المحتاجون الى أن يحملوا القرآن الكريم لانه ذكرهم وشرفهم كما قال تعالى: (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) الزخرف: ٤٤. وما تبوأ العرب مكانهم القيادى فى العالم كله ولن يتبوأوا ذلك الا بالقرآن، كما شهد بذلك الأعداء فضلا عن أهل القرآن.

والقرآن ليس بحاجة فانه كلام الله، والله له الملك كله، وهو الغني الحميد، وهو بكل شيء

١ـ صحيح البخارى، جـ ٤/١٤٤.

٢ـ مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية، ترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، م/١٥/ ت/٢ ص ٢٥١، ٢٥٢.

عليم وعلى كل شيء قدير ، وقال الله عن القرآن : (وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) الزخرف: ٤ . وقد حفظه أناس غير عرب يتشرفون به على حين أن أكثر العرب يناؤون عنه وينهون مصداق قول الله تعالى (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) محمد : ٣٨ . وقد عاب الله على الأعراب الذين لم يدخل الايمان في قلوبهم مثل ذلك الموقف فقال تعالى : (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين) الحجرات: ١٧ . والله أنزله آية عظمى فهو بلسان عربي مبين ولا يماثل الألسن كلها حتى ولا لسان قريش الذي نزل القرآن به قال الله تعالى (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) الاسراء : ٨٨ ، وفضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على خلقه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى: ١١ .

ولا أجد في القرآن الكريم ولا في السنة دعوة الى العروبة ولا الى العربية كغاية ينتهى اليها ، وانما فيهما الدعوة الى الله والدار الآخرة على بصيرة بلسان عربي مبين ومن هنا أصبحت العربية وسيلة مشروعة ، " تعلموا العربية وعلموها الناس " ، ولكل انسي أو جني أن يدخل في الاسلام و يتعلم وسيلة فهم القرآن والسنة بلا حاجز يحول دونه مهما كان من المخلوقات الناطقة ، وليست حكرا على قوم دون آخرين ، انما هي فضل الله يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء .

ومن هنا فأعداء الأسلام ليسوا الا أعداء للعروبية على الحقيقة وان زعموا أنهم أولياءها ، اذ بموالاة الأسلام توالى العروبية وبمعاداة الأسلام تعادى العروبية حتما .

ومحبة العرب لذلك من الأسلام ، وليس معنى هذا الحب ، أن نجعلهم غاية ، أو أن نحبهم من دون الله ، ونعبدهم فنوالي فيهم ونعادى لأجلهم بمجرد كونهم عرب وان أشركوا أو تهودوا أو تنصروا كما يدعوا الى ذلك دعاة القومية ، ولكنه حبهم لله وفق شرعه ، ومن حدودها أن لا تخرجنا عن الاسلام بل تكون وسيلة لزيادة التمسك به ، وفي هذه الحدود معنى الحديث الذى ساقه العراقى ان صح في كتابه "القرب في محبة العرب " ص٩٦ فقال : " حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أحبوا العرب لثلاث ، لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي) هكذا رواه الطبراني في المعجم الكبير ورواه الحاكم في المستدرك بعينه لكنه من غير سند " قال العراقى : " ولحديث ابن عباس شاهد من حديث أبى هريرة رويناه في المعجم الأوسط للطبرانى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى) قال المعلق في هامش ص٩٦ المذكورة: " قال العراقى في مح ـ محجة القرب ـ وهذا حديث أصح من حديث ابن عباس المتقدم . (١)

---

١ ـ القرب في محبة العرب، لمحدث مصر زين الدين عبد الرحيم العراقى ، تحقيق وتعليق ابراهيم حلمي القادرى ، ونشر عادل محمد البهي ، عبد السلام محمد سعيد ، ١٣٨١هـ .

أما حديث " حب الوطن من الأيمان " فهو موضوع كما قاله الشيخ محمد بن السيد درويش في كتابه : " أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب " تحت حرف الحاء .

بهذا يتبين أن الدعوة الى العروبة كغاية من دون الله أو الى الوطن كذلك كأنداد محبوبة على غير ما شرع الله غير موجودة من الاسلام ، ولكنها موجودة من هدى اليهود والذين أشركوا ومن هدى النصارى ، نجدها دعوة للعرب أن يتحدوا على أساس العروبة المجردة من الاسلام دعوة للعرب أن يقبلوا واقعهم أمام أعدائهم وأن يجاروهم في حضارتهم الغربية ، ويتركوا الأسلام ويعودوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية من شرك وايثار للدنيا وشهواتها وتبعية لليهود والنصارى والفرس ، على مثال الصورة التي رسمها الدكتور ناصر الدين الأسد فقال :

ان عرب الجاهلية الأخيرة يستمدون حضارتهم مما ورثوه من بقايا ورواسب تلك الحضارات العربية الثليدة المنقرضة ومن اتصالهم الوثيق الذي كان يربط عرب الجزيرة بالحضارات القائمة في جوارها من فارسية ورومية ومصرية الخ .. وربما كانت أهم سبل هذا الاتصال هي :

١ـ الأمارتين العربيتين : المناذرة في الحيرة ، والغساسنة في الشام فاتصالهما بالفرس والروم من جانب وبالجزيرة العربية من الجانب الآخر بمثابة قناة انسرب منها أثر هاتين الحضارتين الى الجزيرة العربية .

٢ـ الطرق التجارية المنظمة والعهود والمواثيق التي تربط العرب بقوافل التجارة يتعهدون بالمحافظة عليها لقاء جعل يأخذونه .

٣ـ الاسواق والمواسم العربية في أطراف وقلب الجزيرة يؤمها العرب والتجار من مختلف البقاع وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية فيحصل أخذ وعطاء ومبادلة .

٤ـ الجاليات الأجنبية الوافدة على جزيرة العرب فمنهم النصراني واليهودي والمجوسي ، والوثني ، ومنهم الفارسي والرومي والمصري والهندي والحبشي ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فاقتطع فيها دورا للهو من غناء وشراب وبغاء ، ومنهم من جاءها فأنشأ فيها مستعمرات ، زراعية فعمر الأرض وأثارها هناك ومنهم من جاءها لغير هذا وذاك كالبعثات التبشيرية ، الدينية التي انبثت في انحاء الجزيرة وجاستها خلالها وانتشرت بين أهلها وأقامت البيع والصوامع والأديرة في المدن والصحراء .

٥ ـ الجماعات والافراد من العرب أنفسهم الذين كانوا يفدون على فارس والروم والحبشة ومصر للتجارة وللتعرض لعطاء الملوك والسادة أو لنزعات نفسية وخواطر فكرية استبدت بهم فكانوا : يطلبون فيما نأى عن ديارهم ما يفيدهم .

ويقول الدكتور الأسد : " واذا كان يحلو لبعض الباحثين أن يجعلوا لأهل الكتاب في الجاهلية سهما في الحضارة أوفر ... فمن يكون أهل الكتاب أولئك ؟ ثم يجيب بقوله : "وكيف يضرب عنا

أن نصارى بلاد العرب ويهودها لم يكونوا ـ ماعدا قلة قليلة من الوافدين ـ غير قبائل قد تنصرت وتهودت ، قبائل كاملة بقضها وقضيضها " .

ويشيد الدكتور الاسد بحضارة العرب في الجاهلية الأخيرة : " بأنها تنحدر من معالم حضارة تليدة قامت في بلاد العرب كالتي قامت في اليمن سبأ وحمير وفي الحجر عاد وثمود وفي بترا ، دولة الانباط ويتلقف عن ونكلر الأوربي قوله الفاتن : " ان تاريخ الجزيرة العربية كما توضحه النقوش يظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة منذ أقدم القدم " وقول هومل الاوربي الآخر : " ان الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها وحصونها وقلاعها لابد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الاول قبل الميلاد " ، " ان أهمية العرب في الشرق القديم تكمن في مجال الحضارة والدين ، ويكفي أن نذكر كلمتي البخور ، وعبادة النجوم ، لندرك أثر العرب في الأمم المجاورة لهم ولاسيما العبرانيين واليونان "(١)

هذا ما تفتخر به القومية العربية وتدعو اليه معتزة في الوقت الحاضر ، وهي لاترى غير الحياة الدنيا ولاتريد سواها وتنظر الى الغرب على أنه قبلة التقدم والرقي ، وأنه ينعم بمباهج عظيمة وترغب أن تستمتع بمثلها وغاب عنها كما اختارت أن ذلك المتاع الباهر سيزول ، وليس ذلك العمل الجبار ، والحصيلة الضخمة ، والسلطات والعمران بنافع مالم يرد به وجه الله تعالى وحده ، ويوجه على نحو لايزيل سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بل على وجه يقوى نشرها ويمين على ظهورها فأنه حينئذ ينفع ويبقى ، ينفع في الدنيا ، ويبقى في الآخرة .

يذر القوميون الرماد على العيون حينما يمدحون عرب الجاهلية بما يتصفون به من خلال كريمة ، كالوفاء والصدق والكرم والمروءة والذكاء والفهم والفطنة والبلاغة والفصاحة والبيان وسائر الشيم الكريمة ليوهموا أنها من ذواتهم ، أو من مقتضاها ، أو أعطوها لكرمهم وفضلهم على الله ، فسبحان الله ، انه لا نكران لما يتصف به العرب مما ذكر من الشيم الطيبة وأمثالها على الجملة وهو من فضل الله تعالى من غير أن يكون لهم فيه أدنى مستوجب بغير اذن الله ومشيئته ، ولم ينقصها الأسلام بل زادها تماما وزكاها ، وكذلك شأن الأسلام في كل بناء صالح من محسوس ومعقول لايزيده الاسلام الا رسوخا وثباتا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٢) وقال " خياركم في الجاهلية خياركم في الأسلام اذا فقهوا "(٣) وأثنى على حلف الفضول الذي وقع في الجاهلية على أن لايظلم بمكة أحد الا قاموا بنصرته حتى ترد ظلامته ،(٤) .

---

١ ـ أنظر: الدكتور ناصر الدين الاسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، من ص٢ حتى ١٨ .

٢ ـ انظر: في مسند أحمد ٢/٣٨١ " انما بعثت لأتمم صالح الاخلاق " .

٣ ـ صحيح البخاري ، جـ٤/١٤٢ ، مناقب ١ .

٤ ـ انظر: حلف المطيبين في مسند أحمد ، ١/١٩٠ .

ولكن ينفر القوميون أن يراد بذلك وجه الله وحده ، وأن ينظم على سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك لا يريد أهل الغفلة ممن يعلم ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون أن نقول كل ما لم يرد به وجه الله تعالى فهو باطل مهما نما وازدهر لأن الله تعالى يقول : ﴿وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا ﴾ الفرقان: ٢٣ .

ولا شك أن الاعمال الصالحة نافعة ومرغوبة لكنها ليست كافية ولا منجية من مهالك الدنيا والآخرة ما لم يرد بها وجه الله تعالى أى تكون منبعثة من شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، اللهم صل وسلم عليه ، قال الله تعالى ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم ﴾ الآية ، الانعام : ٦ ، وقال تعالى : ﴿ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ الأحقاف: ٢٦ .

ولا يفرق القوميون بين تلك الشيم الكريمة وبين تلك الأوابد المنكرة فى حياة الجاهلية ، كعبادة غير الله تعالى من الأصنام والآباء والأجداد والقوم والملوك والتجار والملائكة والنجوم وغيرها ، وانكار اليوم الآخر وهروبهم عن واقعهم المتناقض المحير الى السكر بملذات الدنيا وشهواتها من خمر ومال ونساء ولهو وجاه وبنين ، وتبعية يستأسر لها التابع كقول دريد بن الصمة:

وما أنا الا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد (١)

وكالأخلاق الذميمة من هتك للمحارم وزناء وصعلكة وقرصنة وسرقة وفتك وصرعة ومظالم منكرة .

فاذا ذكر القوميون مثل هذه الامور أو ذكروا بها ، سموها حمية وحضارة الى غير ذلك من أسماء تشعر بالمدح والافتخار على نمط ما يقرره أهل الغرب ويحكمون به ايجابا وسلبا ولهذا قال كبيرهم ساطع الحصرى: " أقول بلا تردد : ان أول الواجبات التى تتحتم علينا لتقوية الأيمان القومي هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية " وقد تقدم فى المرض ، وسيأتي قريبا ان شاء الله تعالى .

واذا تأملنا جميع تعريفات القوميين للقومية وشروحها فأننا نجد أنها لا تخرج عن هذا النطاق بل تؤدى اليه ، ونجد أنها تلتقى مع نظرية الحصرى للقومية العربية ، ولا تعارضها فى جوهرها على أنها قومية العرب على أساس عروبتهم فحسب ، ولكي نستميد تصور تعريفاتهم بسرعة أكرر هنا خلاصة لها سريعة ، انهم يقولون :

ان القومية عموما والعربية خصوصا على أساس ذاتها : هي الرابطة الفعالة فى هذا العصر ، الوحيدة ذات القوة بين أبنائها ، لأنها طبيعية ، وللطبيعة عندهم أحكام حتمية . كما هو مقتضى فكرهم المتنور . لا تخضع لمشيئة خارجة عنها ، على اختلاف بينهم فى تعيين ماهية هذه

١ــ الاصمعيات ، ط ، دار المعارف ، ص١١٢ ، والمرزوقي على الحماسة ، ٢/ ٨١٥ ، نقلا عن شوقى ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٦١ .

الرابطة ومحورها ، وعلى هذا الاساس يعتقدون جازمين أنه يحق لكل أمة أن تستقل بنفسها وأن تدير شؤونها وتؤسس دولة خاصة بها عن أمرها دون أن تخضع لمشيئة خارجة عنها لم تنبع من ذاتيتها ، ويوجبون على كل فرد أن يحقق هذا لأمته بكل ما لديه من قوة بلا حساب ولا مناقشة مادام فى هذا السبيل ، ولا مكان عندهم لحساب مابعد الموت ، بجانب التضحية فى سبيل القومية العربية الواجب لديهم ، لأن القومية العربية رابطة لاانفصام لها فى نظرهم وكائن طبيعي حتمي بذاته ، ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر على كل رابطة سواها وان تكن الرابطة الاسلامية ، وفى جميع الميادين ، كما فعلت القومية فى أوربا وانتصرت حتى على رابطة دينهم ، وأحدثت تحولات خطيرة دولية فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى ، وحدث لها فى البلاد العربية تأثيرها الفعال الذى سيؤدى الى انقلابات سياسية ومعنوية هامة ، فى جميع انحاء العالم العربي وبين جميع الشعوب العربية ، هكذا يقولون ، وبهذا يعملون ، ولذا فأنهم يبشرون بأنها طريق النصر وسبيل التقدم ومفتاح العز ورباط الوحدة التى لاتنفصم ، وسبب الود الذى لاينقطع ، وأنها رسالة هذا العصر ، وأصلح له وأقرب منالا من الأسلام ، فالاسلام انتهى دوره بجانبها ، والوحدة الاسلامية أمل غير معقول بجانب الوحدة العربية الحق فى نظرهم . ويرون أن الاسلام ذاته ما هو الا ذات العروبة ، التى أنشأته فى العرب وهو من أمرها واجهت به زمنا مضى فأخذ مرحلته التاريخية من الزمن ثم انتهى دوره فى عصر النهضة الأوربية الكاسحة ، ولم يعد له مكان فى هذا العصر وهو عصر القوميات .

هكذا توهم هؤلاء الأغرار فى دين الحق ، الأسلام ، الذى جهلوه ولم يبق منه فى نفوسهم وفيهم الا اسمه ، توهموا أنه دين كالأديان الأوربية الأخرى تشرعه البشرية لنفسها ، ويأخذ مرحلة تاريخية وسلطة زمنية (مؤقته) ثم ينتهي وتنتهي معه ، هكذا يتصور النصارى واليهود أو يريدون أن يتصور هكذا ، فيزعمون أن الأسلام دين العرب فحسب ، أو أنه انما نبع من ذاتية العرب واليهم يعود ، وأصله العروبة الخالدة كما يوهمون .

فهيا بنا ننظر حصيلة هذه القومية العربية ، فمنذ بدأت قبل قرن من الزمان نجدها تسير قدما نحو التمزق كما هو شأنها الروحي ، ثم التناحر ، ثم الاستخذاء والتبعية المذلة تماما كما كان فى العرب ابان الجاهلية الأولى ، فما أشبه الليلة بالبارحة ؟

ما ذا أكسب القوميون العرب أمتهم ؟ انهم لم يكسبوها سوى الهزائم المنكرة ، والتبعية ، اما للشرق الشيوعي الملحد ، واما للغرب الصليبي المفسد ، وكلاهما مذلة ذميمة ، فلم يكسبوها الا اهانة كرامتها على أيدى اليهود البغيضين ، وشماتة الأعداء خصوصا الذين وردوا لهم مبدأ القومية : يقول برنارد لويس رئيس قسم التاريخ فى كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن :

" ... مابين عام (١٩٣٠م ـ ١٩٤٥م) كان المحور والحلفاء يغذون العرب بنداءات الاطناب والمدح ، وهذا ما شجع الميل على التركيز على عبادة الذات . ، وهو ميل موجود فى كل الحركات القومية وكانت الهزيمة العسكرية العربية فى فلسطين على أيدى اليهود المكروهين ، صدمة عنيفة للعرب لاتقل فى عنفها عن الانهزامات السابقة ...

" وكان رد الفعل فى هذه الصدمة سريعا ، ففى مدة سنوات قليلة بعد عام ١٩٤٨م سقط جميع الحكام الذين كانوا سنة ١٩٤٨م وقتل عدد منهم ...

"فى سلسلة من الثورات والتشنجات التى ازدادت عنفا وكنست أنظمة حكم الملوك والباشوات وملاك الأراضي المحافظين ، وأطلقت قوى جديدة لم تحدد طبيعتها ، ولم يعرف اتجاهها بعد . ومن أهم الأهداف العاطفية الفعالية للحركات العربية الجديدة : الوحدة العربية والتى تعنى على الأقل تعاونا أوثق ، وغايتها ذوبان الدول العربية كلها فى دولة واحدة . وهناك اتفاق عام على الحاجة لاتباع طريقة ألمانيا وايطاليا فى الوحدة التى قامت فى القرن التاسع عشر ولكن الاتفاق لم يتم بعد على من ستلعب دور بروسيا ومن ستلعب دور (سافوى) . وكان المرشحان المتنافسان مصر والعراق ، ومنافستهما ـ بالرغم عن انقطاعها فترات معينة ـ بقيت لمدة طويلة مع تغيير الحكومات والنظم فى كلا الدولتين ، وكان للدول الكبرى حصة كبيرة فى اذكاء نارها وتعقيدها من الجهتين ...

" كان يظن أن موضوع الجامعة العربية هو وسيلة انكلترا لتوحيد المنطقة بعد الهزيمة ، وفرنسا أخرجت مطرودة ، وأمريكا لم تكن راغبة وروسيا كانت غير قادرة على أن تلعب الدور ...

" وفى أواخر سنة ١٩٤٩م كانت أميركا تسعى لتلعب دورا أوسع وأكثر نشاطا فى الشرق الأوسط كله ...

" فالخطر الشيوعي يتزايد وبريطانيا لانشغالها ـ بمشاغل أخرى ـ غير قادرة بعد الآن على تحمل المسؤولية كاملة لحماية المصالح والمدنية الغربية فى المنطقة ...

" وبضربة واحدة وضع الاتحاد السوفييتى نفسه موضع القوة والنفوذ فى قلب الشرق الأوسط ...

فى أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٥م بتوقيع (مصر) صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا ...

ويقول :

" سنكون لاشك أقدر على فهم الموقف اذا لم ننظر الى عدم الرضى القائم فى الشرق الاوسط على أنه تناقض بين دول أو شعوب بل على أنه صدام بين حضارتين ، فالمناظرة الكبرى كما سماها " جيبون " بين المسيحية والأسلام ، لاتزال قائمة ...

" قام البعض يدعو لسياسة معاكسة باتخاذ موقف حازم معارض أو على الأقل بعدم الاهتمام ، بالقومية العربية ، وهناك من يحاول دعم هذا الخط السياسي بترديد مقاطع استعمارية ، فولكلورية مريبة من أمثال : " القوة هي اللغة الوحيدة التى يفهمها العرب ...

" ودعنا من القيم الأخلاقية التى يجب أن يقام لها وزن فى الموضوع ، ولنسأل أنفسنا هل سياسة القوة هذه ممكنة أو مرغوبة ؟ ...

" هل نستمر فى معاملة العرب كأطفال (مدللين) يستحقون اما الضرب والحبس فى غرفهم أو اغراقهم بالحلوى والفطائر .. ليسكتوا ويهدأوا .. ...

" ان البلاد العربية تمر بأزمة تاريخية عميقة تسبب فترة من عدم الاستقرار ...

" وفى نظر العرب أن الغرب هو سبب الأزمة — وهذا صحيح الى حد ما — ويمكن التفتيش عن أصلها فى النتائج المفككة التى أثارها "التغريب" فى المجتمع الاسلامي المحافظ . وعلى الرغم من أن التحول كان على أيدى مسلمين (متغربين) يحملون نفس القدر من مسؤولية الحكام الغربيين ، الا أن بدء " التغريب" كان بأثارة ودفع الغرب ...

" الاتفاق مع القومية العربية أمر حسن — اذا كان ممكنا — ولن يتم اتفاق دائم اذا اتفق مع الزعماء القوميين لأن مركز هؤلاء عرضة للزوال ، والواقع أن الخطر فى خسارة اتباعهم يبدأ عند ... اتفاقهم مع الغرب ، ومن الصعب الوصول لشروط محددة مع حركة تمثل مزاجا أكثر مما تمثل برامج "(١)

هذه كلمات برنارد لويس ، كلمات عدو خبير ، ليس للقومية العربية ، فالاتفاق معها أمر حسن ما دامت معول هدم للاسلام بل معول هدم فى وحدة الأمة العربية ذاتها ، وفى كيان العرب المتفرق بطبعه والذى لم يجمعه سوى الاسلام ، فاذا رد الى طبعه ، رد الى تفرقه وتمزقه كما يشهد بذلك التاريخ فى الماضى والحاضر ولذا كان لويس واضرابه عدوا للاسلام الذى هذا شأنه مع هؤلاء المحسودين ، والمطموع فيهم ، العرب ، الذين أعزهم الله بالاسلام بعد الذلة ، وأغناهم به بعد العيلة ، وكثرهم به بعد القلة ، ووحدهم به بعد الفرقة . وفى كلمات هذا الخبير الدو صدق وحقيقة ، وكيف يعدل الشاهد عن الصدق وفيه بغيته ؟ فهو يبين هنا وهو الخبير بالداء الذى زرعه قومه ان القومية العربية موجودة فى العرب من دول المحور والحلفاء (الذين) يغدقون العرب بنداءات الاطناب والمدح ، وهذا ما شجع الميل على التركيز على عبادة الذات .. وهوميل موجود فى كل الحركات القومية " . وأنه مقصود بها :هزيمة العرب العسكرية فى فلسطين على أيدى اليهود المكروهين ، وصدمتهم صدمة عنيفة لاتقل عن الصدمات العنيفة من الهزائم السابقة ، هزائم الخلافة امام الغرب ، وردة الفعل السريعة التى كست أنظمة حكم الملوك والباشوات وملاك الاراضي المحافظين ، فى سلسلة من الثورات والتشنجات العنيفة ، واحداث أزمة تاريخية عميقة تسبب فترة من عدم الاستقرار فى البلاد العربية ، وان ذلك مقتضى المناظرة الكبرى كما سماها جيبون بين المسيحية والأسلام" ، فلما تم هذا " قام البعض يدعو لسياسة معاكسة باتخاذ موقف حازم

---

١ — برنارد لويس ، الغرب والشرق الاوسط ، من ص ١٩٨ حتى ٢٢٢ .

معارض ، أو على الأقل بعدم الاهتمام بالقومية العربية ... الخ

ولما تم الفرض منها فضحت بأنها : " حركة تمثل مزاجا أكثر مما تمثل برامج " .

ولندع هؤلاء الشامتين من أهل الغرب ، ونلتفت الى قوميي العرب أنفسهم ، هل كانوا جادين فيما يزعمونه غايتهم من القومية العربية ؟ يزعمون أن الغاية هي الوحدة العربية ، فهل تحققت ؟ أم أن الذى تحقق هو عكسها ؟ كم زاول القوميون من افساد على سلطان وازع ، وملك حازم ؟ بحجة أنه مستبد بالأمر ، اى لم يضمه فى غير أهله ، لم يجعله كالملك المشاع فى الدهماء وعامة الناس وجماهير الأمة فيختطف من أهله ، يختطفه من ليس له بأهل وكم زاول القوميون من تغيير لمعالم الاسلام القائمة ؟ كالجهاد ، والفرقان بين المؤمن والكافر وبين الرجل والمرأة فى المواريث والقدر وسائر الفوارق الربانية ، والمحاكم الشرعية والحكم بما أنزل الله ، والالتزام بالاخلاق والقيم الكريمة ، بالثورة الهوجاء ، والفتنة العمياء ، والحمية الظالمة الباغية ، بحجة أنها لاتلائم القومية العربية ، وأنها عوائق تحول دون الوحدة بين العرب من كل ملة .. فيجب أن تزاح عن الطريق . وهل عوض القوميون أمتهم العربية بشيء من الوان الوحدة والأمن والهداية ؟ أو أبقوا عليها بقية من العزة والكرامة ؟ .

هل كان دعاة القومية يؤمنون بالقومية كما يصورونها للناس ؟ وهل يجهلون تناقض نظريتها ، وفسادها ؟ .

هذا كبير القوميين " العربي الكبير " على حد تعبير بعضهم ، ساطع الحصرى ، ونظريته كما تقدم فى العرض ، اذا تأملنا أقواله يتضح تناقضها ومن هذا التناقض ما يلي :

١ ــ يقرر الحصرى أن الفكرة القومية لم تنشأ قبل أوائل القرن التاسع عشر ، ويقرر بجانب ذلك أن اللغة هي روح القومية الامة وحياتها ، بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى أى اذا وجدت اللغة وجدت الامة روحها وحياتها ، واذا فقدت اللغة فقدت الأمة روحها وحياتها ، وهي بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى ، فاذا فقدت اللغة نامت القومية ، واذا وجدت اللغة قامت القومية ،

فهل الأمم التى دخلت الاسلام ، وتركت لغتها قد فقدت روحها وحياتها ؟ وهل نتذكر قوة اللغة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم فى القرون الأسلامية المفضلة ونسأل لماذا لم تنشأ فكرة القومية العربية لديهم ، واللغة العربية موجودة بجميع مراتب الوجود لسانا وفكرا ورسما وتطبيقا ما دام أن اللغة محور القومية وعمودها الفقرى الذى يقيم القومية ويشخصها ؟ أو ليست تلك الأمم العربية حقا أولى بثمرات لغة يجيدونها أكثر من أمم القرن التاسع عشر والعشرين ؟ (عصر القوميات كما لايخفى)

والحق أن الروح والحياة من أمر الله وهي غير اللغة مستقلة عنها ، أفما رأينا أبكم لايتكلم البته ومع ذلك لم يفقد روحه ولا حياته ؟ بل كم من الأحياء أمما من أمثالنا وليست ناطقة ؟

"ليست ناطقة" أي ليست من جنس الانسان على حد فلسفة من يعبر عنهم الحصري : بـ"الكتاب والمفكرين" فقال "ان أهمية اللغة في حياة الانسان الفكرية ، والاجتماعية من الامور التي استلفتت أنظار الكتاب والمفكرين ، منذ الازمنة القديمة . فانهم لاحظوا بأن اللغة هي أهم الصفات التي تميز الانسان عن سائر الحيوانات ، ولذلك عرفوه بقولهم: "حيوان ناطق" (١)

والحق أن اللغة لاتستدعي فكرة القومية ولا تقيمها ، ولا القومية تفتقر اليها ، ولكنه الانسان صاحب الامانة الذي جعله الله سميعا بصيرا ، وهداه السبيل اما شاكرا واما كفورا ، هذا ساطع الحصري الذي حاز لقب "المربي الكبير" لدى قوميي العرب ، ونال درجة الأمامة في القومية العربية ، كما لقب بـ"فيلسوف القومية العربية" كانت لغته الاصلية الاولى هي اللغة التركية ، فلم لم يكن قوميا تركيا ؟ بل صار قوميا عربيا وهو غير عالم باللغة العربية ، وهي محور القومية وعمودها الفقري كما يقرر ، قال الحصري في كتابه: "اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية" "اني لست من علماء اللغة ، ولا من رجال الادب . ولم أصب في يوم من الايام الى التخصص في اللغة ، أو الى التبريز في الادب" (٢)

ليت شعري وهو يؤصل اللغة محورا للقومية وعمودا فقريا لها هل فطن لمدعي علم باللغة مع دعواه القومية: "اني عربي صميم ، أدين بدين العروبة بكل جوانحي"؟ (٣) واستفتاحه القومي : "باسم الله وباسم العروبة أفتتح" (٤) ربما كان يعلم هذا التناقض ولكن لم يخطر بباله أنه سيواجه الحقيقة كما هو شأنه الذي أفصح عنه في مذكراته في العراق فقال: "يجب أن أعترف بأن نوعا آخر من المشكلات لم يخطر ببالي خلال هذه التأملات : هي التي ستنجم عن عدم كوني مولودا في احدى المدن العراقية" (٥) أي أن هذا يتنافى مع دعوته الى الوطنية في العراق.

وفعلا واجه الحقيقة فهو يقول في مذكراته: "ان الانتقادات ... التي ... تسلط علي منذ بداية عملي في العراق قد اشتدت ... كانت ناجمة عن المبادئ والخطط التي قررتها لنفسي ، والتي لم أنقطع عن التزامها في يوم من الايام ... انهم يجدون في عدم كوني مولودا في احدى المدن التي تألف منها العراق وسيلة ثمينة للتشكيك في نواياي ... يقولون ان ساطع الحصري ليس عراقيا ، فلا يمكن أن يحب العراق ويعمل لخير العراقيين ... انه صديق لمبشري الجامعة الاميركية في بيروت ، انه يعمل لصالح هؤلاء المبشرين ... (٦)

---

١ ــ ساطع الحصري ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ٢٥٤ .
٢ ــ = = = ، اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية ، ص ٥ .
٣ ــ = = = = ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ١٢٨ .
٤ ــ نفس المصدر ، ص ١٢ .
٥ ــ ساطع الحصري ، مذكراتي في العراق ، ١ / ٣٨ .
٦ ــ نفس المصدر ، ص ٦١١ ، ٦١٢ .

٢ ــ يقول الحصرى عن التاريخ : انه بمثابة شعور الامة وذاكرتها ...
ثم يعود فيقول: لا أقصد بذلك التاريخ المدون فى الكتب المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات .
ونسأل : ماذا يبقى من التاريخ ؟ أم أن الحصرى يخشى من التاريخ الاسلامي ؟ يخشى منه أن يذكر العرب بشرفهم ، وأن يشعرهم بعزهم ، وأن يوقظهم بذكر الله رب العالمين .
انه يخشى ذلك خشية أعمته فوقع فى التناقض ، يدل على هذا المخاوف صريح أقواله التى تعتبر أن الاسلام ورابطته من العراقيل فى طريق القومية العربية ، ويقول الحصرى أيضا عند دعوته الى الأيمان القومي : " ولذلك أقول بلا تردد : ان أول الواجبات التى تتحتم علينا لتقوية الايمان القومي ــ هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية " وما أدرى كيف يستقيم للعرب كتابة تاريخهم على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية ؟ هل تبقى مشخصاتهم القومية مع العقلية الغربية ؟ وكلاهما يدعو اليه الحصرى ، وهما نقيضان .
٣ــ الحصرى يلغى نظرية المشيئة الفرنسية القائلة بأن القومية انما هي بارادة الأمة ومشيئتها والتى كان الحصرى يقول بها ثم خطأها وصحح النظرية الألمانية القائلة بنقيض النظرية الفرنسية وهو أن القومية انما هي باللغة ، وقال بها فقال : ان كل من يتكلم اللغة العربية فان القومية العربية تستحوذ عليه شاء أم أبى ، وما تنكر عربي لذلك ، فلم يمتز بالعروبة الا كان جاهلا فيعلم الحقيقه ، أو غافلا فيوقظ ، أو أنانيا فيؤدب . انه عربى شاء أولم يشأ . أــ هـ بمعناه هذا على الرغم من أن الحصرى انتقل من التركية الى القومية العربية بارادته ومشيئته واختياره بنفسه ، فنقض أصله نفسه ، ثم ان هذه الأقوال تقتضي الغاء المشيئة اطلاقا ، واذا كان الأمر كذلك فكيف يدعو العرب الى الايمان القومي ، أى الى الأرادة والمشيئة للقومية العربية . أليس هذا هو التناقض؟ (١)
٤ ــ الحصرى بدعوته الى القومية العربية المناقضة للسلطان الوازع ، والدين الراشد ، والسلطان الوازع والدين الراشد ضرورتان للاجتماع والعمران البشرى ، والحصرى يعلم ذلك. يناقض ما يعلم ، فهل يريد الحصرى بدعوته تفريق ونقض الاجتماع والعمران العربي ؟ ان الحصرى قد اطلع على رأى العلامة بتاريخ الاجتماع والعمران / عبد الرحمن بن خلدون وحلله ودرسه ضمن دراساته لمقدمة ابن خلدون التى جمعها فى كتاب سماه: " دراسات عن مقدمة ابن خلدون " ، وأعجب بابن خلدون وبلغ من اعجابه أنه تكنى بشهرته وسمى بها ولده ، فأصبح يدعى : أبو خلدون ، ساطع الحصرى . ومع هذا دعا أبو خلدون الى نقيض

---

١ ــ أنظر : فكرة القومية العربية عند الحصرى فى فصل العرض ص ١ــ ١٢ من هذا البحث.

مصلحة العرب التى رآها عبد الرحمن بن خلدون وهو كما يقول أبوخلدون ساطع الحصرى: " المفكر العربي العظيم " (١)

يقول ابن خلدون: فى مقدمته : " ضرورة العمران البشرى الى السلطان الوازع بعضهم عن بعض " ، " ان الاجتماع الانساني ضرورى ... ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر ... وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم ... فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أن للانسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها ، وقد يوجد فى بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما فى الجراد والنحل لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم فى خلقه وجثمانه الا أن ذلك موجود لغير الأنسان بمقتضى الفطرة ، والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة (أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) " (٢)

وقال ابن خلدون فى موضع آخر :" ان اختلال الملك فساد فى العمران ... العمران دون الدولة والملك متعذر لما فى طباع البشر من العدوان ... فتتعين السياسة لذلك اما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة ... " (٣)

ويرى ابن خلدون أن العرب لا يخضعون للاستبداد لكن ينقادون لدين الحق وبالدين يأتيهم الملك فيقول : " ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .

" والسبب فى ذلك أنهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فأذا كان الدين ، بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي أو الولي الذى يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لأظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم الملك والتغلب " (٤)

وكذلك يرى ابن خلدون " أن الدولة العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك أصلها الدين اما من نبوة أو دعوة حق وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب ، والتغلب انما يكون بالعصبية والتفاق القلوب وتأليفها انما يكون بمعونة من الله فى اقامة دينه قال تعالى : (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم) وسره أن القلوب اذا تداعت الى

---

١ ــ ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، طبعة موسسة الثالثة ١٣٨٧هـ ص٢
٢ــ مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصطفى محمد المصرية ، ص ٤١ .
٣ ــ نفس المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .
٤ــ نفس المصدر السابق ، ص ١٥١ .

أ هواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف ، واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة "(١)

هذا مايقوله عبد الرحمن بن خلدون الذى يقول عنه الحصرى انه : " المفكر العربي العظيم " فلماذا يناقض الحصرى رأيه ؟ هذا وهو رأى سديد " ان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن " وقال الله تعالى : (فهزموهم بأذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) البقرة : ٢٥١ .

فهل فهم الحصرى هذا فقصد نقيضه على التمام فى العرب وهو الذى أطلق عليه "العربي الكبير"؟ ، لعل هذه المناقضة من مقتضيات الدعوة الى القومية ، فانه وأتباعه القوميون قد أجمعوا على تأسيس دولة عربية على أساس العروبة فقط ، ونقض كل أساس قام عليه بناء يخالف هذا الأساس ، ومعلوم أن العروبة يشترك فيها كل عربي ، وما كل عربي مسلم ، ومعنى ذلك أن يشترك الكافر والمسلم على قدم المساواة ، وليسوا سواء ، كما أنه ما كل عربي يصلح للحكم والادارة ، ومعنى تأسيس الدولة على أساس العروبة أن يشترك فيها كل عربي يصلح أو لايصلح ، وهذا فيه نزع السلطة من الملوك ونقلها الى الجماهير ، وجعل الامة مصدر السلطات فتصير كالملك المشاع فى الشارع العام فيختطفها الطامع العدو ، وعندئذ تحل الكارثة بهذه الامة المخدوعة ، ولقد درس الحصرى رأى ابن خلدون هذا بالذات وسلط عليه التجزئة والتفكيك حتى شوهه وأظهره ناقصا مبتورا يدل على خلاف قصد ابن خلدون تماما وهذا ماأراده الحصرى من دراسته للمقدمة كلها ، فانه رأى أنه على حسب مايقوله : " مامن مفكر ولا مؤرخ عربى ، حظي من كثرة الذكر وذيوع الصيت بما حظى به ابن خلدون " ، " ان مقدمة ابن خلدون منتشرة بين أيدى جميع المتنورين من الناطقين بالضاد " فأراد الحصرى أن يصدهم عنها بـ"اعادة النظر واستئناف البحث فى معظم تلك الدراسات ، وفق وجهات نظر جديدة "(٢) وهذا ما حصل من الحصرى تجاه هذا الرأى فقارن بين نصوص ابن خلدون من كتابه وبين صنيع ساطع الحصرى فى ص (٢٨٣)(٣) فسترى ان شاء الله التحريف العجيب والتفكيك الدقيق الذى يدل على فهمه لهذا الرأى وتقديره لخطره على فكرة القومية العربية فعمد الى جعله معكوسا يخدم فكرته القومية ويوهم الناطقين بالضاد أن هذا العكس هو مقصود " المفكر العربي العظيم " ابن خلدون . كما هي وجهات نظره الجديدة .

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
٢ ــ ساطع الحصرى ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٥١ .
٣ ــ نفس المصدر السابق .

ولقد أفصحت بروتوكولات حكماء صهيون السفهاء عن وجهات نظر الحصرى الجديدة ، فلعمل الحصرى تأثر بتكوينه التربوى الذى ناله فى شبابه فى تركيا ، وهو تكوين تركيا الفتاة التى تستند تربيتها الى الافكار الوضعية الفرنسية والقومية الأوربية ، وأعضاؤها من الماسون اليهود ويهود سالونيكا جزء منهم لايتجزأ ، وهم الذين أفسدوا على السلطان عبد الحميد سياسته الحازمة ، وسلطانه الواسع ، واستمرار اتصال الحصرى بالكماليين بعد نقضهم والغائهم للخلافة العثمانية الاسلامية ، فحصل التواطؤ بين وجهات نظر الحصرى كما تقدم وبين مقررات حكماء صهيون كما سيأتي ، فقد جاء فى البروتوكول الخامس منها مانصه : " سيقال ان نوع الاستبداد الذى أقترحه لن يناسب تقدم الحضارة الحالي غير أني سأبرهن لكم على أن العكس هو الصحيح . أن الناس حينما كانوا ينظرون الى ملوكهم نظرهم الى ارادة الله كانوا يخضعون فى هدوء لاستبداد ملوكهم . ولكن منذ اليوم الذى أوحينا فيه للعامة بفكرة حقوقهم الذاتية — أخذوا ينظرون الى الملوك نظرهم الى أبناء الفناء الماديين ، ولقد سقطت المسحة المقدسة عن رأس الملك فى نظر الرعاع ، وحينما انتزعنا منهم عقيدتهم هذه انتقلت الى الشوارع (أى صارت السلطة للشعوب لا للملوك وصارت الامم مصدر السلطات) فصارت كالملك المشاع ، فاختطفناها .

" ثم ان من بين مواهبنا الادارية التى نعدها لانفسنا موهبة حكم الجماهير والأفراد بالنظريات المؤلفة بدهاء ، وبالمبارات الطنانة ، وبسنن الحياة ، وكل أنواع الخديعة الأخرى .

" كل هذه النظريات التى لايمكن أن يفهمها الاميون أبدا مبنية على التحليل والملاحظة ، ممتزجين بفهم يبلغ من براعته أن لا يجارينا فيه منافسونا أكثر مما يستطيعون أن يجارونا فى وضع خطط للأعمال السياسية والاغتصاب " .

هذا مخطط اليهود لأفساد السلطان الواسع ، أما عن الدين ففي البروتوكول الرابع هذه النصوص : " يمكن أن لايكون للحرية ضرر ... بسعادة الناس لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله ... بقية من أفكار المساواة التى هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلق ، والتى فرضت التسليم .

" ان الناس محكومين بمثل هذا الايمان سيكونون تحت حماية كنائسهم موضوعين ، وسيعيشون فى هدوء واطمئنان وثقة تحت ارشاد أئمتهم الروحيين ، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض وهذا هو السبب الذى يحتم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورة مادية " .

وان وجه الشبه بين فكرة القومية وفكرة "الشعب المختار" ، أو "الطبيعة الممتازة فوق البشرية" ظاهر ، وفكرة القومية فى أوربا وغيرها مرتبطة بفكرة القومية اليهودية فمثلا القومية الالمانية التى هي مثال افتتن به القوميون العرب حتى قالوا بنظرية الالمان فى القومية ، وقالوا: "المروبة فوق الجميع" وردوا النشيد الوطنى : بلاد العرب أوطانى ... ألخ ، هي التى هتفت هتاف الغرور فقالت " ألمانيا فوق الجميع " وجملته شعارها وضمنته نشيدها الوطنى القومي وجملته :

عنوانا له ، وهذا الغرور القومي هوتماما الذى جاء فى البروتوكول الخامس عشر : " واننا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية " ، وفى البروتوكول الخامس : " نحن الشعب المختار " ويقول محمد خليفة التونسي فى مقدمته للبروتوكولات : " فمما صرح به روزنبرج الذى كان يلقب " فيلسوف النازية " أنه اطلع على البروتوكولات وانتفع بها فى وضع فلسفته السياسية ، وكان عونا للطاغية هتلر فى سياسته القومية والعالمية التى تشبه سياسة البروتوكولات مع وضع ألمانيا منها مكان اليهود ليكون له سلطان أمته ، ويكون لأمته سلطان العالم " ص٢٧٠ ، وهذا هتلر فى ألمانيا وربما كان له من الوضع المنهار فى بلاده دينا وحكما عامل نجاحه ، فانه وان كان يدعوا الى باطل فهو أخف من الواقع الألماني ، ويعتبر منقذا على كل حال لكن فيلسوف القومية العربية ومن تبعه من قوميي العرب يدعون الى القومية بدلا من الاسلام ويوهمون بأنها ستنتصر عليه كما انتصرت على النصرانية فى أوربا ، بينما كان نصرها على دين أوربا يرجع الى ذات دينهم ، اذ لافرق بين عبادة الأحبار والرهبان وعبادة الامة بل ان الامة أوسع ، أما الاسلام فهو عبادة الله رب العالمين ، ويأبى الله الاأن يتم نوره ولو كره الكافرون ولوكره المشركون ، ولا يستوى من ينقل أمته من باطل الى أخف منه مع من ينقل أمته من حق الى باطل ، وفكرة القومية العربية على ضوء الاسلام ما هي الا فكرة أملية قدرها القوميون فى منأى من الاسلام وتخيلوها ، فنسبوا اليها كل مايجدونه بالضرورة من صفات تجلب الخير وتدفع الشر كأمنية وحلم فتكلفها كل قومي دون سند من كائن محقق شعروا به وعلموه وفى استطاعة الناس أن يعلموه ، ولاخبر مصدق آمنوا به ويلزم كل مؤمن بالصدق أن يؤمن به ، وانما الى ما انبعث من ذهن بشرى قاصر ، وانتفث فى خيا له من شيطان مارد ، وكم فى اختلاف الاذهان من فروق ، وتعدد الأفكار من كثرة مفرقة ، ومقاصد الشياطين من مهلكة ، وأهواء الناس من تضارب وتصادم ، (لويعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر) ، وهذا فى الدعوى التى لاتعارض البينة القائمة ، أما دعوى القوميين الى القومية لانها حتمية ، فهي تعارض البينة القائمة (الاسلام) ، ولذا ينبغي رفضها أصلا لكن لما قبلها قوم من الناس استعرضناها وناقشناها نطلب بيناتها وبراهينها على سبيل الجدل بالتى هي أحسن ، والله أعلم .

خلاصة النتائج والاحكام

وبناء على ماتقدم من ثبوت الأدلة والبراهين القطعية نصل الى النتائج والأحكام التالية:

ان الاعتقاد بأن القومية العربية ذات قوة رابطة فعالة موحدة كما هو المبدأ الأوربى فى القومية سواء جعل محور هذه الرابطة الوطن أو اللغة أو التاريخ ~~أو التاريخ~~ أو الجنس أو هي مجتمعة أو بعضها أو أى شيء من دون الله ، اعتقاد باطل .

وقول القوميين بأن اللغة حياة الأمة وروحها ، اذا فقدت الأمة لغتها فقدت حياتها وروحها وبأن التاريخ خلاق وهو ذاكرة الأمة وشعورها ، اذا فقدت تاريخها فقدت خلاقيتها وذاكرتها وشعورها . وهما مع الوطن والجنس ونحو ذلك عوامل مكونة للأمة وروابط تربط أبناءها برابطة ذات قوة لا انفصام لها وذات تأثير حتمي سلبا وايجابا لأنها طبيعية وللطبيعة أحكام حتمية لا تستخلف وأن ذلك اعتقاد كل متنور ، كل ذلك القول أو بعضه وما أشبهه شرك في ربوبية الله تعالى أغلظ من شرك الجاهلية ، من شرك العرب في الجاهلية ، الذين يتوجه اليهم الخطاب لأن أولئك كانوا يقرون باختصاص الله بالخلق والايجاد والاحياء والأماتة والرزق والتدبير ، انما نسبوا الى معبوداتهم أنها تقربهم الى الله زلفى وتشفع لهم عند الله ، ولا قالوا في الطبيعة ما قاله القوميون ، بل يعلمون أنها مطبوعة مخلوقة لها طابع خالق انما أنكر بعضهم البعث بعد الموت . ولذا أمر الله الناس بعبادته وبين لهم أن توحيده بالعبادة هو أعظم ما أمرهم به وهو لازم ما يعلمونه ويقرون به له ضرورة في مثل قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) البقرة : ٢١ . وفي مثل قوله تعالى : (ياأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) الحج : ٥ـ٧ ولكن القوميين بقولهم ذلك في الطبيعة والقومية في درك من الجهل والسفه أدنى من كل الناس المخاطبين بهذه الآيات ، وفي غفلة واعراض عن توحيد الربوبية المقرر فيها كما يعلمه المخاطبون ضرورة فعلا لله وحده ، ليكون دليلا على الزامهم بتوحيد الله بالعبادة التي هي فعلهم ، وعلى أن مجرد توحيد هم الله بأفعاله كما هو اضطراري لهم لا يدخلهم في الاسلام ولا يخرجهم من الشرك ما داموا يصرفون شيئا من ارادتهم وأعمالهم لغير الله على وجه التعبد لهذا الغير ، وذلك الوجه التعبدي هو الجمع للحب التام مع الخضوع والذل التام للمتجه اليه . بل لابد أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا حتى يكونوا مسلمين ، فكما وحدوا الله بفعله ضرورة وفطرة لزمهم أن يوحدوه بعبادتهم ـ وهي فعلهم ـ عن رضى طاعة واختيارا ، وقامت الحجة ببيان الرسل لذلك . وأنى للقوميين مع عدم معرفتهم لتوحيد هم الله بأفعاله ضرورة ونسبتهم ذلك الى العوامل الأخرى ، وأن هذا التكوين الذي أقروا به يظنونه لها .. أو أنهم عرفوا الحق لكن جحدوا سياسة واصطيادا للرغبة ، أنى لهم مع هذا أن يلتزموا بتوحيد الله بأفعالهم

التعبدية وأن يقيموا أعمالهم على سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ؟
ولذا مالوا الى الماركسية الملحدة ، وقالوا بالاشتراكية المبيحة ، وعملوا بالثورة الفوضوية ، ونادوا بالحرية المفسدة لتبرير مفاسدهم .

أما شركهم في العبادة فايجابهم الأيمان بالقومية العربية لها وحدها والعمل من أجلها والتضحية والجهاد في سبيلها ، وصرف الكره والبراء ومايتبعهما من سلوب ونقائض ضد ماخرج عن القومية العربية كله ، وصرف الحب والولاء ومايتبعهما من ايجاب وابرام للقومية العربية وما والاها .

هذا السلب والايجاب هما بمقام النفي والبراء والاثبات والولاء وهما ركنا الألوهية أو العبادة في قول : (لااله الا الله) ، فلااله نفي وبراء الا الله ، اثبات وولاء لله لاشريك له .

والقوميون جعلوا القومية العربية هي الولي المحبوب من دون الله تعالى كما فعلت اليهود ، والنصارى وغيرهم من الكفار بقومياتهم ، وهذا هو الشرك في العبادة قال الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ، اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب) البقرة : ١٦٥ ، ١٦٦ .

ماذا بقي من الشرك والالحاد لدى القومي القائل : " والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين " لاشك أن هذا أعظم من شرك الأولين الذي فارقوا به المرسلين وعادوهم به .

ولقد بين الله موضوع الولاية بيانا بليغا فقال تعالى : (الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) الآيات السجدة : ٤ . وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الى قوله تعالى : (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداءا ويبسطوا اليكم أيدهم وألسنتهم بالسوء وودوا لوتكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) الآيات من سورة الممتحنة وهذه السورة من أولها الى آخرها تعالج العصبية القومية علاجا عظيما ولاغيره من دواء وشفاء . وفي آخر سورة المجادلة يبدأ الموضوع من قوله تعالى :(ألم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) الى قوله تعالى : (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم) الأية .

والقوميون يوجبون موالاة أعداء الله ، وموادة من حاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذا خلاف

مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعارضة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم وظلم وفسق كما بين الله تعالى ذلك أبلغ بيان ونهى عنه نهيا قاطعا ، وان كان هؤلاء الكفار آباء وأبناء واخوانا وأزواجا وعشيرة بل نهى عن المحبة التى تمنع تقديم محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجهاد فى سبيله حتى وان كان المحبوب قريبا أو مالا مقترفا أو تجارة يخشى كسادها أو مساكن مرضية ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين) التوبة : ٢٣ ، ٢٤ .

ونهى الله عن استبطان بطانة من دون المؤمنين مبينا مافى ذلك من ضرر فقال تعالى فى سورة آل عمران : (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) الى قوله تعالى : (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط) ١١٨ـ١٢٠ .

ولكن القوميين العرب يوالون حتى الأبعدين اليهود والنصارى والمشركين وفق مقتضيات المصلحة ومصلحتها . والله ينهى عن ذلك ويحذر ، قال الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) المائدة : ٥١ـ ٥٦

وفى القرآن الكريم كثير جدا من الآيات البينات التى فصلت موضوع الولاية وحكمه على نحو ماقدمت منها ، وأما الاحاديث النبوية الكريمة فكثيرة جدا ومنها : ماروى أحمد عن البراء بن عازب : (أوثق عرى الأيمان الحب فى الله والبغض فى الله) . وأبو داود وأحمد مطولا عن أبى ذر مرفوعا : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله) .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعا : (المرء مع من أحب) ، وروى الطبراني بأسناد جيد كما يقول ابن المنذر وروى أحمد معناه عن عائشة بأسناد جيد أيضا كما يقوله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب : (لايحب رجل قوما الاحشر معهم) . وروى ابن حبان فى صحيحه عن ابن

مسعود مرفوعا : (لاتصاحب الا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك الاتقي) . وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : (الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شيء من الجور ، أو تبغض على شيء من العدل ، وهل الدين الا الحب فى الله ، والبغض فى الله ؟) قال الله تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . الآية ، رواه الحاكم ، وقال صحيح الأسناد . (١) قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : " وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك ، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات ... وانما يفترق الناس فى شهود هذا الفقر والاضطرار وعزوبه عن قلوبهم .

" وأيضا فالعبد يفتقر الى الله من جهة أنه معبوده الذى يحبه حب اجلال وتعظيم ، فهو غاية مطلوبه ومراده ، ومنتهى همته ، ولاصلاح له الا بهذا ، وأصل الحركات الحب ، والذى يستحق المحبة لذاته هو الله ، فكل من أحب مع الله شيئا فهو مشرك ، وحبه فساد ، وانما الحب الصالح النافع حب الله والحب لله ، والأنسان فقير الى الله من جهة عبادته له ومن جهة استعانته به . ...

" وهذا العلم والعمل أمر فطرى ضرورى ، فان النفوس تعلم فقرها الى خالقها ، وتذل لمن افتقرت اليه ، وغناه من الصمدية التى انفرد بها ، فانه (يسأله من فى السموات والأرض) وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لايكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والأنابة اليه ، فان العبد انما خلق لعبادة ربه فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره فى أن يعبد ربه وينيب اليه " (٢)

وقال امام الدعوة من نجد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : " ... فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد وعلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الا بالحب فى الله والبغض فى الله والمعاداة فى الله والموالاة فى الله ؟ ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء ، لم يكن فرقانا بين الحق والباطل ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " (٣)

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما هو دون ذلك من عصبية وحمية على غير أساس من الحق ، واعتبرها جاهلية ، قال الأمام البخارى رحمه الله : " باب ماينهى من دعوى الجاهلية " وساق بسنده الى جابر رضي الله عنه يقول : غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم ـ كانت غزوة المريسيع سنة ست ـ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريا ، ففضب الأنصارى غضبا شديدا حتى تداعوا وقال الأنصارى يا للأنصار ،

---

١ ـ نقلا عن مجموعة التوحيد ، طبعة آل ثاني بقطر ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
٢ ـ مجموع فتاوى شيخ الأسلام أحمد بن تيمية ، المجلد الرابع عشر ، ص ٣١ ، ٣٢ .
٣ ـ مجموعة التوحيد ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وقال المهاجرى يا للمهاجرين ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال مابال دعوى أهل الجاهلية ثم قال : ماشأنهم ؟ فأخبر بكسعة المهاجرى الانصارى ، قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعوها ، فانها خبيثة ، وقال عبد الله بن أبي بن سلول : أقد تداعوا علينا لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر : ألا نقتل يارسول الله هذا الخبيث ؟ لعبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لايتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه " .(١)

وليكن فى البال أنهم تداعوا باسم اسلامي ممدوح : يا للمهاجرين ، يا للأنصار ، لكن لانه لغير الله ، وانما للحمية ، صار من دعوى الجاهلية .

وساق البخارى بسنده أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم (ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية) (٢)

وروى أبو داود وابن حبان عن ابن مسعود مرفوعا : (مثل الذى يعين قومه على غير الحق كمثل بعير تردى فى بئر ، فصار ينزع بذنبه) . ومعنى الحديث أنه وقع فى الأثم ، وهلك كالبعير اذا تردى فى بئر فصار ينزع بذنبه فلا يقدر على الخلاص ، قاله ابن المنذر (٣)

ولقد حسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الولاية بقوله وفعله فمنذ بعثه الله تعالى وهو الفرقان الشخصي بين أولياء الله وأعدائه بأمر الله وقضائه ، ولم يثنه عن ذلك شيء حتى القرابة أخرج البخارى فى صحيحه فى كتاب الأدب فى باب " يبل الرحم ببلالها " ، ومسلم فى كتاب الأيمان فى باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم ، كلاهما عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا من غير سر : (ان آل فلان ليسوا لي بأولياء — يعنى طائفة من أقربائه — انما وليي الله وصالح المؤمنين) . قال النووى : معنى الحديث "ان وليي من كان صالحا وان بعد نسبه منى ، وليس وليي من كان غير صالح وان قرب منى نسبه" وقال القرطبي : فائدة الحديث انقطاع الولاية فى الدين بين المسلم والكافر ولوكان قريبا حميما . وقال ابن بطال : أوجب فى هذا الحديث الولاية بالدين ونفاها عن أهل رحمه ان لم يكونوا من أهل دينه . (٤)

وهذا موجب الدين الحق ، أما دين القومية فيوجب عكس ذلك ، بل يقتضى أن يغير القوميون أحكام الشريعة الأسلامية السائدة وينقضوها وان كانت محكمة نافذة ، ليحلوا بدلها شريعة القومية المشتركة ، وعلى هذا فالعروبة مشتركة بين يهود ونصارى ووثنيين وغيرهم ، تقتضى شرعا مشتركا يرضي هؤلاء جميعا ، وهو غير ما شرع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه شرع هؤلاء

---

١ — صحيح البخارى ، جـ ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
٢ — نفس المصدر السابق .
٣ — نقلا عن مجموعة التوحيد ، طبعة آل ثاني بقطر ، ص ١٦٦ .
٤ — نقلا عن فتح البارى بشرح الصحيح للبخارى ، للأمام ابن حجر العسقلاني ، جـ ١٠ ص ٤٢١ . ط السلفية بمصر .

المختلطين من يهود ونصارى ومشركين وغيرهم ، والذين التقوا على هوى العروبة المشتركة وهم لا يرضون الحكم بالشريعة الأسلامية ، وبذلك أصبحت القومية العربية تحمل معتنقيها على تغيير أحكام الله ، والحكم بغير ما أنزل الله ، فهي طاغوت . يقول شيخ الأسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسالة بين فيها معنى الطاغوت ورؤوس الطواغيت ، وهي من مقررات وزارة المعارف للسنة الخامسة الأبتدائية فيما درست ، وأذكر هنا شاهدا منها وهو مما عدده الشيخ من رؤوس الطواغيت قال مانصه :ـ

" الثاني الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى والدليل قوله تعالى : (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) .النساء : ٦٠ .

الثالث: الذى يحكم بغير ماأنزل الله والدليل قوله تعالى :(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة: ٤٤ . (١)

والفرق بين الثاني والثالث أن الثاني يقصد به الذى يزعم أنه آمن بماأنزل الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل من قبله على رسله عليهم السلام ثم يريد أن يتحاكم الى الطاغوت ففي ارادته تغيير لأحكام الله تعالى . وأما الثالث فهو الحاكم فعلا بغير ماأنزل الله ، والحاكم بغير ماأنزل الله ، والمريد للتحاكم اليه كلاهما رأسان من رؤوس الطاغوت . وهما يشبهان الحاكم بشرع القومية الذى لم يأذن به الله ، والمؤمن بهذا الحاكم بغير ماأنزل الله المريد له ، الداعى اليه ، فأصبح الايمان بالقومية العربية يقتضى الايمان بالطاغوت ، والطاغوت باطل ، فالأيمان به ايمان بالباطل وكفر بالله داخل فى معنى قوله تعالى : (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) العنكبوت: ٥٢ .

وابتغاء لحكم الجاهلية وتفضيل له على ما هو أحسن داخل فى قوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) المائدة: ٥٠ .

ولا غرابة فقد صرح دعاة القومية بلا مواربة أن الكفر مرغوب وممدوح فى سبيل الوحدة العربية فأشاد الحصرى بالشاعر القومي وبشعره الذى تضمن هذا التصريح فقال :

هبوني عيدا يجمل العرب امة ... وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا ... وأهلا وسهلا بعده بجهنم (٢)

ومعلوم بأن استحباب الحياة الدنيا كلها ليس عذرا مبيحا للكفر ، ولا الخوف على فواتها عذرا مبيحا كذلك ، ولم يستثن الله من الاعذار الا الأكراه على شرط أن يكون المكره مطمئنا قلبه بالايمان ،فأن شرح بالكفر صدرا فلا عذر له وان أكره لان القلب يمتنع عن الأكراه فلا

١ـ مجموعة التوحيد ، طبعة مشعل بن عبد العزيز ، المطبعة السلفية ص ٦٠ .
٢ ـ ساطع الحصرى ، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ، ط٢ بيروت ص ٢٥٠ . وتأمل تصريحاتهم فى الفصل الأول من هذا البحث .

يجوز الاكراه عليه ، انما يجوز الاكراه على ظاهر الانسان فى جوارحه ، وقد أشار امام الدعوة من نجد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله الى هذا فى آخر كتابه : كشف الشبهات فقال " ولنختم الكلام ان شاء الله بمسألة عظيمة مهمة ... نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول : لاخلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فأن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما " .

ثم مضى الشيخ فى تفصيل هذه المسألة بالأمثلة والأدلة من واقع الناس والكتاب والسنة ومن تلك الأدلة قوله تعالى : (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة) الآية ، النحل : ١٠٦ ، ١٠٧ . ثم قال الشيخ ما نصه : " فلم يعذر الله من هؤلاء الا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالأيمان . وأما غير هذا فقد كفر بعد ايمانه ، سواء فعله خوفا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله " . انتهى

وعلى فرض أن جميع العرب اتحدوا على أساس القومية العربية ، وهو فرض بعيد عن الواقع فأنه لايحق لهم طلب فلسطين على أساس القومية ، ولكن يحق لهم بالأسلام ، ذلك لأنها لابراهيم الذى قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها بنيه ، فأخذ بها من عدل منهم ، وجعلهم الله أئمة للمسلمين ، وأورثهم الأرض ، ومنهم المهتدون من بنى اسرائيل ، فمكنهم فيها وملكهم اياها كداود وسليمان ، وحتى مصر فأنها ليوسف الذى مكن الله له فى الأرض كذلك ، ولموسى وهارون ومن آمن معهما ، ولمن أسلم بعد ذلك من أمة سيد ولد ابراهيم وآدم وأولى الناس بأبراهيم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وان يطالب العرب بفلسطين أو بأى شيء آخر على أساس القومية ، وليس على أساس الأسلام ، فأنهم محجوجون أمام من يدعى وراثة اسرائيل وموسى وداود وسليمان على نبينا محمد أخيهم وعليهم الصلاة والسلام وعلى أساس القومية منهزمون كما انهزم الآباء الكنعانيون الجبارون ، وكما انهزم فرعون وقومه الهكسوس (الرعاة) وفرعون هو ذو الأوتاد ، القائل : (ياأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) القصص: ٣٨ ، فأغرقهم الله فى البحر خلف موسى وهارون وقومهما الناجون باسم الله وبعد أن أدحض الله سحره وسياسته أمام موسى بآيات ربه ، كما قال تعالى : (بآياتنا أنتما — يعنى موسى وهارون — ومن اتبعكما الغالبون) القصص: ٣٥ . وكما انهزمت بلقيس وقومها القائلين (نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) النمل : ٣٣ ، انهزموا فى بلادهم اليمن وهم عرب أمام سليمان بل أمام تهديده : (فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) النمل : ٣٧ .

والعروبة ذاتها ليست كافية ولا عاصمة للدم والمال ولا منجية من عذاب النار ، ولا مانعة للأعداء أن يدخلوا فيها وهم على عداوتهم ، ولا تزيل العروبة منها شيئا ، رغم كمال اتصافهم بها كاليهود والنصارى والمشركين .

وانه بأمر الله العلي العظيم ليجب على القوميين أن يتقوه ويتوبوا اليه ، وقد آن لهم أن يفيقوا من غمرتهم ، ويعودوا الى رشدهم بعد تجاربهم لمصائب أمتهم ، ويستمسكوا بحبل الله جميعا ، ولا يتفرقوا ، وليعلموا أن العروة الوثقى هي الكفر بالطاغوت ومنه القومية كما تقرر ، والأيمان بالله تعالى ، قال الله عز وجل : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤ من بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها ، والله سميع عليم) البقرة: ٢٥٦ .

والى من لا يقتنع بما تقدم الا أن يسمع أحكام علماء الأسلام من المعاصرين لفكرة القومية العربية فاليه منها الأمثلة التالية وفيها مقنع ودلالة على موقف سائر العلماء ان شاء الله تعالى :

١ ــ يقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز في رسالته القيمة : نقد القومية العربية بعد كلام طيب قاله : " واذا عرفت أيها القارئ ما تقدم ، فاعلم أن هذه الدعوة ، أعني الدعوة الى القومية العربية أحدثها الغربيون من النصارى لمحاربة الأسلام والقضاء عليه في داره بزخرف من القول وأنواع من الخيال وأساليب من الخداع ، فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الاسلام واغتر بها كثير من الاغمار ومن قلدهم من الجهال وفرح بذلك أرباب الألحاد وخصوم الأسلام في كل مكان . ومن المعلوم من دين الأسلام بالضرورة أن الدعوة الى القومية العربية أو غيرها من القوميات دعوة باطلة وخطأ عظيم ومنكر ظاهر وجاهلية نكراء وكيد سافر للأسلام وأهله ، وذلك لوجوه :

الاول : ان الدعوة الى القومية العربية تفرق بين المسلمين ، وتفصل بين المسلم العجمي عن أخيه العربي ، وتفرق بين العرب انفسهم لانهم كلهم ليسوا يرتضونها . ألخ

الوجه الثاني : ان الأسلام نهى عن دعوى الجاهلية وحذر منها وأبدى في ذلك واعاد في نصوص كثيرة ، بل قد جاءت النصوص تنهى عن جميع أخلاق الجاهلية وأعمالهم الا ما أقره الاسلام من ذلك ولا ريب أن الدعوة الى القومية العربية من أمر الجاهلية ، لأنها دعوة الى غير الأسلام ومناصرة لغير الحق . " ألخ

الوجه الثالث: من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة الى القومية العربية : هو أنها سلم الى موالاة كفار العرب وملاحدتهم من أبناء غير المسلمين واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم . ومعلوم ما في هذا من الفساد الكبير والمخالفة لنصوص القرآن والسنة الدالة على وجوب بغض الكافرين من العرب وغيرهم ومعاداتهم وتحريم موالاتهم واتخاذهم بطانة . والنصوص في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فأنه منهم ان الله لايهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة الآية . سبحان الله ما أصدق قوله وأوضح بيانه ، هؤلاء القوميون يدعون الى التكتل حول القومية العربية مسلمها وكافرها ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، نخشى أن يعود الاستعمار الى

الى بلادنا ، نخشى أن تسلب ثرواتنا بأيدى أعدائنا ، فيوالون لاجل ذلك كل عربى من يهود و نصارى ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم تحت لواء القومية العربية ، ويقولون ان نظامها لا يفرق بين عربى وعربى وان تفرقت أديانهم ، فهل هذا الا مصادمة لكتاب الله و مخالفة لشرع الله وتعد لحدود الله وموالاة ومعاداة وحب وبغض على غير دين الله ؟ فما أعظم ذلك من باطل وما أسوأه من منهج . ألخ

الدعوة الى

الوجه الرابع : من الوجوه الدالة على بطلان القومية العربية أن يقال : ان الدعوة اليها والتكتل حول رايتها يفضى بالمجتمع ولا بد الى رفض حكم القرآن ، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوى مجتمع القومية فى تلك الأحكام . وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف . وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة ، كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وقال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟) وقال تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) وقال تعالى (و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الاسلام بغضها ومعاداتها فى الله حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته كما قال عز وجل : (قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه ، اذ قالوا لقومهم انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) . (ص ٨ــ ٢٦)

٢ــ ويقول العلامة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد فى كتيبه : " الأبداع فى شرح خطب حجة الوداع "عند شرحه لخطبة الرسول صلى الله عليه وسلم التى قال فيها صلى الله عليه وسلم :

(ان الله يقول : يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم . فليس لعربي على عجمي فضل ولا لعجمي على عربي فضل ولا لأسود على أحمر فضل ولا لأحمر على أسود فضل الا بالتقوى . يامعشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على رقابكم وتجيء الناس بالآخرة فأني لا أغني عنكم من الله شيئا) . فقال الشيخ فى شرحه :

"وقوله صلى الله عليه وسلم : ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لاحمر على أسود الا بالتقوى . اذ أنهم من أصل واحد فلا تفاخر ولا تفاضل بينهم الا بالتقوى فمن فضله تقوى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يأمر به وانتهى عما ينهى عنه فهو الفاضل وهو أفضل من غيره سواء كان عربيا أو عجميا قال تعالى (انما المؤمنون اخوة) ففى الآية ما يشعر ان الاخوة الايمانية أبلغ من أخوة الولادة لأمور منها انه بدأ ذلك بقوله : انما المفيدة للحصر . ثانيا : أن اخوة الولادة منشأ الحياة وستنتهي وتزول بخلاف أخوة

الايمان فمنشأها البقاء والدوام فى جنان الخلد . ثالثا : ان أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين واخوة الدين لاتنقطع بمخالفة النسب وفى قوله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . وقوله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه مايفيد معنى الآية : انما المؤمنون اخوة . وان الرابطة الايمانية والأخوة الاسلامية أكمل من أخوة النسب ، فأن الله لم يقل انما العرب اخوة ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : مثل العرب فى توادهم .

الى أن قال الشيخ : " وما اشتهر فى هذه الأزمنة من التعصب للقومية العربية باطل تبطله الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وان كان للعرب شرف نسب فلا ينفعهم هذا الشرف مع وجود الانحراف منهم عما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم "

الى ان قال : " والدعوة الى القومية العربية انما نشأت على قول كثيرين فى أوائل هذا القرن وأول من دعا اليها هم الفرنسيون على أيدى بعثات التبشير فى سوريا والعراق ولبنان (وظلت) تزداد وتنمو حتى عقد لها أول مؤتمر فى باريس من نحو ستين سنة ، وكثرت بسبب ذلك الجمعيات العربية وتعددت الاتجاهات وذلك أن أعداء المسلمين لما رأوا من جمع الاسلام لمختلفي الاجناس من بنى آدم أرادوا احلال العصبية الجنسية محل الوجدان الديني ، فدعوا الى القومية العربية بدلا من الأخوة الدينية .

ثم ساق الشيخ الادلة البينة الظاهرة من القرآن والسنة ، ثم قال : " ففي هذه الاحاديث ونظائرها بطلان التعصب القومي .. " (ص ٦٩ ــ ٨٧)

هذا والشيخ ابن حميد لم يقصد بحث القومية العربية ولكنه وهو بصدد شرح خطب حجة الوداع وبمناسبة الحج واقامته لله وحده يبين بطلان التعصب القومي كله والعربي كأحد أفراده قد وفق للمنفذ العملي التطبيقي وهو الحج ، الذى لايستطيع أحد الا الله أن يوقف مسيرته المتحدة من كل جنس ، (ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله) الحج : ٢٨ . وما شهد جموع الحجاج من شاهد الا ورأى الآيات البينات فى مقام ابراهيم الآمن ، يرى الاعمال قبل الأقوال تشهد ببطلان القومية العربية ، وجميع أمر الجاهلية ، وفخرها بغير تقوى الله تعالى ، ويرى زهوق مزاعم القومية والقوميين عمليا على شعائر الله تعالى ، ولا تكاد تذكر دعاوى القوميين الا للعبرة والفكرة ، فما أنسب بيان بطلان التعصب للقومية العربية فى شرح أعظم خطبة لأعظم رسول من رسل الله ، صلى الله عليه وسلم و عليهم أجمعين ، فى أعظم زمن ومكان ، وهيئة اجتماعية عظمى تقصد رب العالمين العلي العظيم على الاطلاق ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وما دام أن التعصب الى القومية العربية باطل ، فعبادتها أشد بطلانا من باب أولى ، والباطل

على اسمه باطل (ومايبدئ الباطل وما يعيد) : سبأ : ٤٩ .

وما كان قول : وليم جيفورد بالكراف: " متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة "(١) ويعنى بالحضارة : حضارة الغرب المبنية على الباطل ، ما كان قوله هذا عن عدم ادراك للحقيقة الآنفة ، فهل في مقدور القوميين أن يواروا القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب؟ .

٣ ــ ويقول العلامة أبو الحسن الندوي في رسالته: " العرب والاسلام " :

ثم جاء دور مفهوم القومية العربية التي هي فكرة مستقلة وفلسفة بذاتها ، لها كل ما للدين من حمية وحرارة وشعائر ومقدسات ، فخضع لها العرب المثقفون ــ خصوصا الشباب ــ الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة ، ونشأت فيهم الرغبة الشديدة لنيل المجد والعظمة في أقرب وقت ، ..

" وقد أصبح العرب المسلمون في ذلك فريسة لدعاة الأقلية غير المسلمة في الشرق العربي التي يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية ، وحلولها محل الدين الأسلامي ، والتي تستطيع أن تصل عن طريقها الى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه في العالم العربي ، وتستطيع أن تفصل بها العرب عن بقية العالم الأسلامي الذي لاترتبط به هذه الاقلية عقيدة وعاطفة وتاريخا ، ولا يزال الاستاذ ميشيل عفلق (المسيحي ولادة) مؤسس حزب البعث العربي ورئيسه فيلسوفها الأكبر في الشرق العربي "(٢)

ويقول في رسالته: " اسمعوها مني صريحة أيها العرب" : " فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون الى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة والى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الايمان وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم ، وعن أمتن رابطة روحية تجمع الامم والأفراد والأشتات . انها جريمة قومية تبز جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الأمة ، وانها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ ، وانها خطوة حاسمة مشؤومة في سبيل الدمار القومي والانتحار الاجتماعي "(٣)

٤ ــ واختم بما يقوله الشيخ محمد الغزالي المعاصر ، والمعروف بالدعوة الى الله يقول مانصه:

" وأما مبدأ القومية ، فهو مبدأ خطر كذلك ، لاينتج الا الشرور والآثام والحروب والتخاصم ، والتنافس والتزاحم .

"فأذا كانت كل أمة تدعي أنها سيدة الجميع ، وتعمل للوصول الى هذه السيادة فمتى تهدأ الثورات ويسود السلام؟

" وها نحن نرى نتائج تمسك أمم بهذ المبدأ في مؤتمراتهم التي لم يفلح واحد منها حتى الآن "(٤)

١ــ أ.ل شاتليه ، الغارة على العالم الأسلامي ، محب الدين الخطيب، ٩٣، ٩٤ .

٢ــ ص ١ ــ ٧ .

٣ــ ص ٢٧، ٢٨ نقلا عن رسالة الشيخ ابن باز، نقد القومية العربية ص ١٠، ١١ .

٤ــ محمد الغزالي ، حقيقة القومية العربية ، دار العروبة ، ص ٢٠٠، ٢٠١ .

ويبقى بعد هذا فى وجدانى ألم من احتقار البعض من المسلمين لأنفسهم ، فلعل هذا الصنف حين يرى المعروف يعرفه المدو الشامت بافاقة أحسن وفهم أعمق ، لعله يستثار وتنبعث فيه كوامن الحياة ، فأسوق اليه أحد هؤلاء الغربيين المستشرقين اليهود الذى يعمل فى عاصمة أكبر دولة استعمارية فيما مضى ، تحمل الصليب وتستلهم توجيه اليهود حتى فتحت لهم فلسطين وسلمتها لهم لقمة سائغة بالدماء المحرمة والمظالم المظمى وساهمت بأكبر دور فى زرع القومية وايقاد الثورة العربية على أساسها ، ذلك هو برنارد لويس رئيس قسم التاريخ فى كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن الذى تقدم ذكره والنقل عنه ، يقول ما نصه فى كتابه:

" الغرب والشرق الأوسط" تحت عنوان : الفصل الرابع : الوطنية والقومية :

" كل باحث فى التاريخ الاسلامي يعرف قصة الأسلام الرائعة فى محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي وكيف انتصر النبي وصحبه وأقاموا عبادة الأله الواحد التى حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية . وفى أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد (اللات) و (العزى) وبقية آلهة الجاهلية ، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها الدولة ، والعنصرية والقومية . وفى هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف ... الاصنام .. فأدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التى أوقعها الغرب على الشرق الاوسط ، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرا واعلانا . وانه لمن المحزن حقا أن يؤرخ الأنسان المراحل المتعاقبة التى مرت : كيف بدأ الاحتكاك ... ثم العدوى ... ثم الالتهاب ... ثم الأزمة " ص ١٠٥ .

وأيضا هذا المؤرخ الاوربي الشهير أرنلد توينبي ، وهو نصراني غربي سبر الحركات القومية فى الغرب وغيره يقول : " ولكن القومية لاتستطيع أبدا أن توحد الأنسانية ، بل انها توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وانها لاتستطيع الا أن تدفن الأنسانية فى ركامها "(١)

والى الذين يقدرون قوة الاجتماع أسوق أن من توصيات المؤتمر العالمي للدعوة واعداد الدعاة ، المنعقد فى الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة ٢٤ ـ ١٣٩٧/٢/٢٩هـ : اعتبار " القومية " من الدعوات والاتجاهات المضادة للأسلام كالباطنية والبهائية ، والقاديانية ، والتبشير والاستعمار والرأسمالية الطاغية ، والاشتراكية ، والشيوعية ، والماسونية ، واليهودية العالمية ، والعلمانية والأباحية والوجودية ".(٢)

أما الذين يتوجسون من السياسة فأؤكد لهم أنها تكون مهيبة اذا كانت اسلامية واتجه أهلها بصدق نحو الوجهة التى تظهر من أقوال فهد بن عبد العزيز فى اجتماعه برجال الصحافة عند مستهل ربيع الثاني عام ١٣٩٧هـ ، والتى جاء فيها قوله: "وقد أدرك الجميع أن الأمة العربية

١ـ نقلا عن أبى الحسن الندوى ، من كتابه الصراع بين الفكرة الأسلامية والفكرة الغربية ، فى الأقطار الأسلامية ص ١٦٧ .

٢ـ أنظر: أبحاث المؤتمر ، المجلد الخامس: بحث" المذاهب والاتجاهات الالحادية والمعادية للأسلام ، والفرق المرتدة والزائغة فى هذا العصر وموقف الأسلام والمسلمين منها ، ص ٤٠ ، ١١ .

لم يكن لها قيمة فى أى يوم من الأيام الا بالأسلام .. وبدونه لم ترتفع لتصبح خير أمة أخرجت للناس " (١)

اذا فالدعوة الى القومية العربية دعوة باطلة ، وظلم عظيم على ضوء القرآن والسنة وعند علماء المسلمين ، بل وعند علماء اليهود والنصارى فى التاريخ ، وعند العرب أنفسهم ، كما سيأتي بيانه فى الفصل الآتي ، فصل المخلص والمفازة .

١ــ نقلا عن مجلة الدعوة من الرياض عدد ٥٩٢ فى ٢ / ربيع الثاني /١٣٩٧هـ ص٧ ، وانظر: مجلة المجتمع ، عدد ٣٤٣ فى ٩ ربيع الثاني / ١٣٩٧هـ ص١٥ .

الفصـــل الخامـس

المخلص .. والمفازة

فيما تقدم من فصول أربعة بيان ماهي الدعوة الى القومية العربية ، ومن أين جاءت ؟ وماذا في هذا القرن ظهرت؟ وبيان قيمتها على ضوء تحليلها ومعارضة أصولها ببعضها على نور القرآن والسنة وأقوال العلماء والمؤرخين والمعقول .

وقد تبين أنها من أعداء العرب أصلا ، أولئك الحساد من اليهود والنصارى وسائر الشياطين وأتباعهم من المشركين والمنافقين حيث حسدوا العرب على الأسلام ، حين رأوا نقله اياهم في مدة ثلاث وعشرين سنة من بداية البعثة الى وفاة المبعوث صلى الله عليه وسلم ، وهي مدة وجيزة تم فيها بعث الامة العربية ونقلهم من الجاهلية الى العلم ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الذل والتبعية الى العز والسيادة ، ومن الفقر وسوء الحال الى الغنى والنعيم .

وتبين كيف خطط هؤلاء الحساد المكرة حين أعيتهم المواجهة لاستغفال المسلمين عن حظهم العظيم وفضل الله عليهم وعلى الناس ورحمته بهم ، ولاستدراج العرب خاصة بشهواتهم والتشبيه عليهم حتى أنسوهم على مر العصور وظيفتهم فأبعدوهم عن الأسلام في الحكم والسياسة واقامة الأمور ثم استحوذوا عليهم بالحكم والسياسة ومحبة الأمارة المجردة عن الاسلام وكادوا أن ينسوهم ذكر الله في جميع ميادين الحياة .

وحين أصابهم بما كسبت أيديهم هذه المصيبة استغلها هؤلاء المستحوذون الماكرون ، وراحوا يوهمونهم أن ماأصابهم هو بسبب الأسلام ، وأن عليهم ان أرادوا قوتهم وسلطانهم أن يطلبوا منهم تنظيمهم ، تنظيم حياتهم ومناهجهم في السياسة والاجتماع ، والتربية والاقتصاد وفي الخارج والداخل وفي كل شؤونهم حتى شؤون أحوالهم الشخصية من طعام وشراب ولباس وسكن ونكاح وغيرها من المرافق الخاصة ، وبرهنوا لهم على كفاءتهم للوصاية عليهم الى هذا الحد أنهم في بلادهم وواقع حياتهم قد تفوقوا عليهم في هذه الميادين المذكورة ، رغم أنه تفوق نسبي ، نظرا الى أن هؤلاء المصابين قد انتكسوا الى حالة لاصلاح معها حتى للدنيا التي أشربوا محبتها بذنوبهم وشرودهم عن دينهم بادئ ذي بدء فضلا عن أن يكون معها صلاح لآخرة يكرهون ذكرها وحياة أبدية لايوصل اليها الا بذل الحياة الدنيا المنتهية اليها حتما .

كانوا بهذه الحالة أقل مستوى مما عليه هؤلاء الاوصياء من القوة والعلم في عمارة الدنيا وبظاهر منها . ومن هاتين الحالين المتقابلتين حصل الأعجاب الأعمى من صاحب الحال الأدنى وأتت فرصة هؤلاء الماكرين ليقولوا لهم عن علو : خذوا بهدينا : (كونوا هودا أونصارى تهتدوا) ان فساد ادارتكم وهزيمتكم أمامنا ، أمام قوتنا ، أمام حضارتنا ، وبلوغنا منكم ما تكرهون مع حرمانكم مما ترغبونه منا ، ومن الشهوات لدينا ، انما هو بسبب ما بقي لديكم من اسلام .. فاقضوا عليـــــه

فهو الذى حرم عليكم أهواءكم ، ولما تفلتت منه واحتالت عليه لم يتبعها ، ولم ينتصر لها ، ومضى على استقامته عنها ، فليكن هكذا شأنكم معه فى بنيانكم كله لتستمتعوا بجميع الشهوات والقوة والصحة التى ترونها فينا ، وترون أننا فقناكم بها .

وكانت أول قاصمة للظهر أن ضيعت الأمانة فى الحكم ونظامه واستجلبت قوانين ونظم هؤلاء الخبثاء الماكرين ، وأحلت محل شريعة الله ونظامه وحكم بها مسلمون — بزعم الواهمين — على رعايا الاسلام وشعوبه فزادت انتكاسة الناس عن الأسلام ، وتعقدت المشاكل الثقيلة فى القضاء والحكم وفى السياسه والاجتماع وفى الاقتصاد والتربية وسائر ميادين الحياة .

ويكيد هؤلاء الماكرون فيوجهون أنظار هؤلاء المصابين الى ما فقدوه ليطلبوا منه الحلول وقد أبعدوه أو جزأوه ، وأقاموا بين أجزائه فواصل متغايرة يجرى بينها ما يجرى بين المتغايرين ، ولا يفطن المغفلون للمغالطة ، كما لا يجرؤ الجبناء على المصارحة ، ويبحث الجميع عن الحلول من مكان بعيد أو من جزئيات مفرقة بالفواصل التى يفتعلونها لأهوائهم ، فاذا لم يجدوا حلولا كاملة كافية قالوا وهذا برهان آخر على عدم صلاحيته لهذا العصر الحديث ، عصر القوميات ، والذرة والعلم .

والحقيقة أنما يسمونه حقا وعلما هو بحسب رؤيتهم التى أغطشها هوى الباطل وحب متاع الغرور .

ومن العجيب الذى لا ينقضي منه العجب أن يأخذ هؤلاء الماكرون من علماء المسلمين فى الأندلس مناهج هذا العلم التقني والبأس والقوة ، ويكتشفون به بطلان مالديهم مما يزعمونه دين المسيح ، وهو يخالف أبسط الحقائق الكونية ، وبهذه المناهج الاسلامية ينتصرون على حماة الباطل وطغاة الكنيسة ، فيحملهم الغرور ، وينسيهم فيوهمون أنهم يبطلون به كل الأديان حتى الأسلام مصدر نصرهم كما فعلوا بالنصرانية وهي فى نظرهم من أكبر الأديان ..

ويأتون الى المسلمين فيقولون بمكر وبلا مكر ، بوعي وبلا وعي ، ان أوربا لما تركت الدين جانبا ، وعزلت حياتها عنه ، وراحت تنقض أسس حكوماتها التى كانت على أساسه ، وتؤسسها من جديد على المبدأ القومي والوطني وتقنيات العلم الحديث — وما هو الا علم بظاهر الدنيا — تقدمت فى علومها وعمرانها ونهضت من رقادها ، بينما السر فى تقدمها العلمي والعمراني ولو كان بظاهر من الحياة الدنيا انما هو قبس مقطوع عن الآخرة اقتبس من حياة الاندلس وغيرها من المدن الاسلامية ذلك أن الاسلام عمران الدنيا والاخرة معا كما هو الحق الواقع تاريخا وتقريرا .

ولكن الماكر يعمي مكره فيقسم بلسان الناصح وبصراحة لا يخشى منها فى وسط المصابين المتشبثين ولو بخيط العنكبوت (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) فيقول ان طريق الخلاص وسبب المفازة هو التزام المبدأ القومي بشدة مع اتباع المنهج الغربي الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو المؤلف من منهج الأسلام فى الدنيا أى فى عمارتها ومن منهج الكفر فى الآخرة أى تخريبها وعدم حسبانها ويحوز قصب السبق عنصر الحكومة الاسلامية فينشز للقومية التركية ، ويستشرف للفتنة الطورانية فيفسق عن خلافة المسلمين ويركلها بقدمي الغرور ، ويعود على الأجناس الأخرى بالطغيان ،

ليصهروهم في بوتقتها الضيقة المنتنة .

وهنا يثير الماكرون رد الفعل لدى المحسودين الأصليين والمغبوطين الأولين العرب لتأخذهم حمى هذه القومية عن الصحو حتى لايقيموا خلافة المسلمين ولايختطفوا الراية فيرفعوها كما كانوا وقت قومتهم لله يرفعونها في سبيله وحده فأثابهم الله بالعز والسيادة .

وبكل ماأوتي الماكر المنتصر ، والحاسد المتسلط ، تروج القومية العربية لتحويل قومة العرب ، وابائهم وشجاعتهم وكرمهم في سبيل أنفسهم أو في أي سبيل غيرسبيل الله كي يخسروا كما خسروا في جاهليتهم ، تروج الدعوة الى القومية العربية بديلا من الاسلام ، ويقال زورا أن العروبة أصل الاسلام ، ويفتى للعرب بأنه ليس لهم الا أن يحتفظوا بأصلهم فهو في خطر ، ولا يضرهم ان فاتهم فرعه وهو الاسلام ، على زعمهم ، ويملل للعرب بأن العدو المستعمر والحاسد المحتل والماكر المنتصر ، لن يرضى عنهم ويمنحهم حريتهم وتقرير مصيرهم واستقلالهم ببلادهم ، الا اذا أبعدوا عن نقطة الحساسية وهي الاسلام ، وقنعوا بالعودة الى اثبات شخصيتهم ، وعبادة قوميتهم ونقل المعركة من اعلان الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمة الله الى ذلك كأن العدو يجهلهم وكأن التعريف بهم وبذواتهم وأوطانهم وخيراتهم ومآثرهم وأمجادهم وماكان عليه آباؤهم يمنعه ويكفه عن الطمع فيهم .

استجاب القوميون لهذه الرجعية ، ونادوا في قومهم كما نادى من قبلهم في قومهم حين قالوا : (ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا) الأحزاب: ١٣ . فقالوا ياأمة العرب من مسلمين ويهود ، ونصارى ومشركين دعوا أديانكم جميعا للعروبة ، وا عتصموا بقوميتكم من جميع الأديان حتى دين الاسلام ، ففي العروبة مقنع وكفاية ، ولانريد أن نتجاوزها لنظفر بالمخلص والمفازة .

وجزموا بذلك ، وكرروا بأساليب مختلفة سرا وجهرا دعوتهم للعرب بأن حل مشاكلهم ، ومفتاح نهضتهم ، وسر يقظتهم ، ومعقد عزهم هو في قوميتهم وذاتيتهم ، ويد للون زورا بوهم أن كل مجد نالته الأنسانية انما هو من عبقرية العرب لأنهم عرب ، ومن لدن العرب بمجرد أنهم عرب وليس لأنهم أسلموا ، ويقولون للمسلمين اسمحوا لنا ولا تفتنوننا عن عروبتنا (ألا في الفتنة سقطوا) وفي الحيرة وقعوا ، وفي التناقض انقسموا .

وقوع القوميين في حيرة من أمرهم وشعورهم بالحاجة الى المخلص

لكن القوميين على رغم تمسكهم الشديد بالقومية يشعرون أن قوميتهم ذابت وتلاشت أمام اعصار شديد " حتى بلغ القرف عند الكثيرين أن أصبحوا يشمئزون من سماعها أو سماع الحديث عنها" كما يقول الدكتور المنجد ، ولقد آلت القومية بالعرب الى مستوى برم به حتى القوميون أنفسهم ، وجعلت حليمهم حيرانا ، وحتى أن بعضهم كفر بها ولكن راح يلتمس خلاصه في الشيوعية أو في الرأسمالية الالحادية ، أما من بقي متشبثا بها فهو قرف منها ، حيران فيها لايهتدي للخلاص من القومية التي يراها هالكة وهو صائر الى مصيرها لأنه لايزال قوميا ولايرى في غيرها مخلصا ، مع أنه في الحقيقة لامخلص الا بالأسلام ، لكن القومي بسبب التزامه مبدأ القومية لا يتجاوزها اليه

وما كان للمندس في القومية أن يرى فضل الأسلام ، بل انه يدور في بحر منها لجي مظلم ولا يدري أن داءه منه ، ويظل يذهب في التبرير والتأويل شتى المذاهب ، يقول الدكتور صلاح الدين المنجد : "هكذا أصبحت القومية العربية الموبة ، يستخدمها الكتاب والمؤرخون والسياسيون والحكام ، لأغراضهم ، فضاعت قدسيتها ، وشوه جمالها ، حتى بلغ القرف عند الكثيرين ان أصبحوا يشمئزون من سماعها أو سماع الحديث عنها ، وأصبحنا جميعا أمام هذا البحر من التأويلات والدراسات والتفسيرات ، وتحت تأثير الاغراض المختلفة لا ندري ماهي القومية ولا نعرف أي قومية نريدها ، ولا أي قومية توافق مجتمعنا العربي المعاصر" (١)

ونلاحظ أن الدكتور صلاح الدين المنجد لم يتخلص من اعتقاد أن القومية حق ، ولذا واجه هذا البحر الذي يذكره من التفسيرات والتبريرات ودخل فيه حينما يزعم أن للقومية قدسية وجمال ، ضاعت وشوهت باللعب بها تبعا للأهواء ، هكذا يحار القومي ، لا يدري ماهي القومية؟ ولا يعرف أي قومية يريدها ؟ ولا أي قومية توافق مجتمعنا المعاصر؟ لم يجدوها شيئا في ماضولا حاضر، ثم ينكس القومي على رأسه فيشتد بالتزامها كمبدأ مسلم به وحق ثابت لا يقبل فحصا ولا مراجعة ويبدأ من جديد في السلسة الدائرة كالحلقة المفرغة من التأويلات والدراسات والتفسيرات، يقول الدكتور المنجد في تقديمه لكتاب : " محنة القومية العربية " الذي ألفه القومي :أركان عبادي:

"اني أعتقد أن هذا الكتاب الذي ألفه السيد أركان عبادي ـ وهو عربي الدم ، وسياسي ، ومثقف ممتاز ، من أحسن الكتب التي صدرت هذا العام في البلاد العربية ... ...

"لأنه حاول أن يصف الداء الأكبر ، أو المحنة ، وأن ينفذ الى الجزئيات ، وأن يبين الاتجاهات الدخيلة ، ويذكر خيرها وشرها ، ثم أن يضع الحل الذي يجب اتباعه ... ...

" ولقد كان المؤلف حياديا في بحثه ، عميقا في نظراته ، لقد رأى : أن قوميتنا يجب أن تنبع منا ، من أنفسنا ، وتراثنا ، وروحنا ، وما نحتاج اليه للتقدم ومسايرة الأنسانية ، والمشاركة في بناء الحضارة . ولقد عرض رأيه أحسن عرض" (٢)

ويقول أركان عبادي حين يهدي كتابه هذا : " الى الزعيم العربي الذي يحمل رسالة الأصلاح عن طريق بعث الذات العربية الأصيلة في كرامتها وعزها نهدي هذا الكتاب " (٣)

" اننا نعتقد بأن الأمة العربية ... تقف اليوم أمام اعصار شديد يهدد سلامتها وأسسها في الصميم .

" وتعيش في أزمة نفسية حادة لتقرير مصيرها تجاه "الايديولوجيات" المعاكسة والمستحدثة ، وتجاه زحف الأحداث وتطور العلوم ، وتغيرات العالم .

١ـ الدكتور صلاح الدين المنجد ، مقدمته لكتاب : اركان عبادي ، محنة القومية العربية ، ص ٧.

٢ـ المصدر السابق: ص ٧، ٨.

٣ـ اركان عبادي محنة القومية العربية ، ص٩.

" يذكرنا التاريخ ، وهو غني بالحوادث والعبر ، بما حدث لأمم عريقة في الوجود ، مثل أمتنا ، أصبحت في عالم الفناء اليوم ، فانقرضت ، لأنها أذابت شخصيتها في بحر الأممية فتلاشت صفاتها الأصيلة ومقوماتها المميزة " (١)

ويقول أركان عبادي أيضا وهو في كتابه على حد تعريف الناشر: " يعبر فيه عن آراء الآلاف والآلاف من العرب المعاصرين " :

" هذا طريق الخلاص ، القومية التي نريدها والميثاق الذي نقترحه .

"الامة العربية من أعرق الأمم في التاريخ ، وجذورها تمتد عبر القرون والأجيال ، ولها تراث زاخر يشمل كل فكر في حقول الفكر الانساني تعاونت أجيال عديدة على صنعه وتكوينه " (٢)

"ان حياتنا العامة تعاني أثر التفكك العميق في جوهر وحدتنا القومية .

" ويجب علينا أولا أن نركن الى تجارب أمتنا وتاريخنا .

" يجب علينا تركيب الأفكار المجردة ، و تنظيم وظائفها وعلاقاتها في كل متماسك ومفهوم عقائدي يطابق وحدة تفكيرنا الاساسية ، ويكون عرضا عاما لمقومات أيديولوجيتنا القومية . يجب أن تحظى باحترام اجماعي لا باعتبارها وسائل حكم فحسب ، بل لذاتها وقيمتها المطلقة ، وباعتبارها تمجيدا لتراث ثقافي متنام ومتطور " (٣)

ويقول : الميثاق القومي ، الاتجاه ، يعلن ميثاق قومي ، بعد اقراره في مؤتمر عام يعقد في محل ما ويضم نخبة من المفكرين والزعماء السياسيين وكبار الصحفيين والأدباء ورجال التعليم وخبراء القانون في دنيا العرب ، تحت رعاية أحد كبار المفكرين أو أحد القادة في الأمة العربية ليدعمه ويرعاه بكل مالديه من القوى المعنوية ليضعه بعد اقراره أمام الشعب العربي ، أمام الملاك والحكام والجامعة العربية والمؤسسات الثقافية والأدبية الأخرى للتأييد والأقرار " (٤)

وفيما يلي وصفة أخرى من قومي آخر كشاهد لما تقدم :

يقول مدثر عبد الرحيم الطيب في كتابه : " أزمة المجتمع العربي المعاصر المسألة الحضارية "

" أما الخطر المحدق بنا اليوم فأنه لايتهدد أرضنا أو أعناقنا وحسب ، بل انه يتهدد شخصيتنا نفسها وأصل كياننا ، يتهدد عبقرية هذه الأمة " (٥)

ثم يقول : " ان الشرط الأساسي في تحقيق نهضتنا المرجوة ـ اذا أردنا نهضة حقيقية تتوافر

---

١ ـ اركان عبادي : محنة القومية العربية ، ص ١٣ ـ ١٦ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٣١ ـ ١٣٣ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
٥ ـ مدثر عبد الرحيم الطيب ، أزمة المجتمع العربي المعاصر ، المسألة الحضارية ، ص ١٢ .

فيها عناصر الأبداع والحيوية والأصالة والديناميكية ، الشرط الأساسي لكل ذلك هو تحقيق ثورة ثقافية خلقية حضارية شاملة ... ثورة ننفض بها ماتراكم على أمتنا من غبار الزمن وخرافة الأجيال وننفذ بها الى جذور شخصيتنا الحقيقية في تاريخنا ، ثم نتعهدها " (١)

وفي موضع آخر صور الاستاذ مدثر حالة القوميين العرب فقال :

" ١ــ أما بعضهم فقد أضاع الوقت في التراشق بالتهم ، وتبادل السباب ، يبرئ كل منهم نفسه ويضع مسؤلية ماحدث على اكتاف الآخرين ... فانشغلوا ببعضهم ، وانصرفوا عن المعركة الحقيقية .

٢ــ وأدرك بعضهم حقيقة الموقف فقام محاولا صد الهجوم ... ولكن بأسلحة قديمة صدئة بالية ، باذلا غاية جهده لسد الباب في وجه الاعداء ... ولكن الابواب مثقبة هالكة ، والنوافذ هزيلة ركيكة ، والسقوف خاوية مهتكة .

٣ــ وفريق ثالث ، كذب ما أبصرت عيناه ، ورفض أن يصدق هول ما حدث ــ فراح يغالط الحقيقة ويماري الواقع ... آثر أن يدفن رأسه في رمال الماضي وسحب الذكريات ... يجتر أيام العرب ، ويدمن فتوحات المسلمين ، ويوهم نفسه أن كل شيء على مايرام .

٤ــ شلت الصدمة فريقا آخر ... أصيبوا بعنة فكرية أجلستهم القرفصاء في قاع السفينة ...

٥ ــ وبين هؤلاء وأولئك قام فريق من الخائرين المنهزمين ... استهوتهم مظاهر من حضارة الغرب ... فراحوا يتسللون الى سفن العدو : يزاولون البغاء الفكري ويتاجرون فيه سرا وعلانية ... وأصبحوا يأتوننا كل يوم بجديد من زينة القوم : مرة باسم الحضارة ، ومرة باسم التحرر ، ومرة باسم الفنون . ولكنهم ، شأنهم في ذلك شأن البغايا ، قد أخذوا اليهم بالأعراض دون الجواهر وبالمظاهر دون اللباب ... فظنوا أن الحضارة الغربية هي "سيجارة وكاس" ، أو لكنة في الكلام ومجرد زي في اللباس .. أما العلم ، وأما الجد ، وأما النظام من مقومات الحضارة الغربية ، وميزاتها فقد أهملوها أو استثقلوها ، أو لمسوها لمسا مخنثا ضعيفا بفرض التزين بذكرها ، والتطاول بها في المجالس والمنتديات . ثم انهم ، شأنهم في ذلك شأن البغايا ، قد اختلفوا فيما بينهم ، ورفعوا أصواتهم بالخلاف والنزاع ... أخذت جماعة منهم تجرنا الى فرنسا ، وجماعة أخرى تجذبنا الى انجلترا أو أمريكا ، وجماعة ثالثة تحاول سحبنا الى روسيا ... وكل جماعة منهم تحاول أثناء ذلك اغراءنا وخداعنا عن أنفسنا والمساومة في أعراضنا " (٢)

انتهى ما أردت نقله من وصف الأستاذ مدثر للمجتمع العربي ولأنه قومي عربي يصف العرب من هذه الزاوية التي هو نفسه يشعر بانتمائه اليهم منها فأن وصفه انطبق بصدق تمام الانطباق على القوميين العرب ولم يجاوزه الى غيرهم لأنه لايرى غيرهم ، كما أنه لايرى أن الأسلام غير القومية العربية ،

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ١٨ .

٢ ــ = = = = ، ص ٥٥ وما بعدها .

بدليل قوله : " ان ارتباط العروبة بالاسلام وثيق قريب بحيث لايمكن التفريق بينهما فى واقع الأمر ولا حتى من الناحية النظرية ... " الى قوله : " واذن فالاسلام (أو الحضارة الأسلامية) تراث مشترك بين جميع العرب : نصارى كانوا أم مسلمين . راجع فى ذلك كتابات قادة الفكر والقومية العربية من المسيحيين كالأستاذ ميشيل عفلق ، والدكتور نبيه فارس ، والدكتور جميل صليبا " (١)

هكذا يحارك قومي صادق فى قوميته كما حار الاستاذ مدثر على الرغم مما لديه من عواطف اسلامية وسواء رأى هذه الحيرة أم لم يرها ، فهو لايرى نقطة الافتراق الواضحة بين المسلمين والنصارى ما داموا عربا بسبب التزامه المبدأ القومي التزاما عاقه عن المسيرة الاسلامية التى جاوزت حدود القومية سائرة الى الله رب العالمين ، وهذا هو السر فى عدم رؤية الآخرين من القوميين ذوى العواطف الأسلامية نقطة افتراق الأسلام بأهله عن النصارى واليهود وجميع المخالفين له ، وان كانوا عربا ، أو من جنسهم القريب .

ولذا فأن مدثر القومي ـ كغيره من القوميين ذوى العواطف الأسلامية ـ لم يخرج فى وصفه للدواء والحلول عن أن يكون نفسه من الفريق الثاني الذين وصفهم بادراك الموقف على حقيقته ـ الخطر المهدد شخصية الأمة العربية ـ ولكن أسلحته قديمة صدئة بالية ، فراح مدثر : يصف العلاج والحل من نفس هذه الأسلحة القديمة الصدئة البالية ، بقوله بعد ذلك الوصف للداء : " ولكن أمتنا الكريمة الأبية ، رغم نكبتها ، وتكالب المصائب عليها من جهة ، ورغم الأغراء والترضية وسياسة الاحتضان من جهة أخرى ... انها رغم ذلك قد رفضت أن تساوم فى شخصيتها ...

" ان أول ما نحتاج اليه فى تحقيق النهضة التى نصبوا اليها هو الالتفات الى تاريخنا وتراثنا .

" نريد أن نلتفت اليه ونتفهمه لنكتشف فيه جذور شخصيتنا ـ فننفض عنها غبار الزمن ونرعاها وسر عبقريتنا ـ فنستلهمها ونفجر كوامن طاقاتها ، وعناصر رسالتنا الى هذا العالم المضطرب فننشرها ونأسوا بها جراحه ، ونسهم فى اسعاده مستقبلا كما فعلنا سابقا .

" أما اذا لم يكن بد من الاستشهاد ـ بأوربا ، فلنذكر أنها لم تنهض نهضتها العظيمة الحاضرة الا بالرجوع الى تراثها فى حضارة الأغريق والرومان وآباء الكنيسة فى القرون الوسطى ، ثم بالبناء الذكي على ما وضع أولئك من قيم وتقاليد وفلسفات مازالت هي المنهل الذى تستقي منه وتستلهمه .

" ولا عجب ان فعلت ذلك ، فتاريخ الامم وتراثها ، اذا ما نظرت اليه نظرا ذكيا واعيا ، مصدر عظيم من مصادر قوتها والهامها ، وجذر حي سرعان ما ينبت اذا ماتعهد ويمتد فرعه ثم يزهر ويثمر وليس كما يزعم الجهلاء مجرد " رواسب " ينبغي التخلص منها وقطع الصلة بها ، أو جثث تحنط ويكتفى بالنظر اليها والتعجب منها " (٢)

---

١ ـ المصدر السابق ، الهامش ص ٥٤ .

٢ ـ = = = ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ .

هكذا يصف لنا الحل ، بالرجوع الى تاريخنا وتراثنا ،لنكتشف فيه جذور شخصيتنا كعرب ، وهذا يعني طبعا ذلك التاريخ المشترك الجامع لليهود والنصارى والوثنيين والباحثين عن الدين الحنيف المضاع، ويستشهد بزعم أن أوربا نهضت بما وضعه آباء الكنيسة وبما نبشت من مخلفات الرومان والأغريق في قرونها الوسطى ويعلل بأن التاريخ والتراث بالنظر الذكي مصدر عظيم من مصادر القوة والألهام الخ . فهل هذا سوى سلاح قديم صدئ؟ بال؟يعود بالأمة العربية الى ماضيها الجاهلي بقدوة أوروبية ، نزعة قومية بعقلية غربية ، كما قال الحصري وتقدم وكذلك الدكتور صلاح الدين المنجد فأنه مع معرفته لماهية فكرة القومية يلتزمها بدليل قوله : " تنبه العرب الى فكرة القومية في أوائل هذا القرن ـ بعد أن كان مضى على موتها في أوربة فترة طويلة ـ بتأثير الغرب ، وكان هدفه الاول اشعال الثورة على الخلافة الاسلامية الممثلة في الامبراطورية العثمانية وتحطيمها ، وقد تم للغرب ما أراد فانهارت الخلافة التي كانت ترمز الى التراث الاسلامي ـ العربي كله . أما العرب ،الذين خيل اليهم أن ثورتهم ضد العثمانيين ستعطيهم الحرية فقد وقعوا تحت عبء الحمايات والانتدابات فترة ليست قصيرة . " (١)

ثم يعود الدكتور المنجد الى الثناء على كتاب "محنة القومية العربية" ومؤلفه اركان عبادي ورأيه في الداء والدواء الذي قدمناه وفيه قول المنجد : "كان المؤلف حياديا في بحثه ، عميقا في نظراته ، لقد رأى أن قوميتنا يجب أن تنبع منا ، من أنفسنا ... " (٢)

هكذا يقول القوميون : " قوميتنا يجب أن تنبع منا " ، ونقول لهم : وأنتم من أين نبعتم؟ لكن القومية تدورنهم حتى يدورون على أنفسهم . ان القومي لايخطر بباله وان كان متسميا بالاسلام ومن المسلمين أن الاسلام شيء نازل من خارج ذاتية العرب لأن اعتقاده بأن القومية حق حجبه عن الحق ، عن ذكر أن الاسلام رباني (تنزيل من رب العالمين) الواقعة : ٨٠ ، الحاقة : ٤٣ . تنزيل من رب العالمين الذي انفرد بصفات الكمال عن مماثلة المخلوقين ، فلا يرى القومي أنه يلزمه أن يعبد ربه بمنهج ليس من وضعه ،وليس له فيه خيار ، ولا هو من ذاتيته ، فوقع في حيرة ودور كما وقع من اعتقد أن البيضة تخرج الدجاجة ، والدجاجة تخرج البيضة ، بنفسها ، دون مكون خارجي . وكما هو شأن كل من وهم أن وضع البشر يماثل أويكافيء وضع رب البشر تعالى . ومن هذه النصوص وأمثالها نرى هؤلاء الدائرين في دائرة القومية ، حتى وان كانوا في أفضل حالاتهم وأصفاها مع الأسلام ، انما يدعوننا الى مايزعمون أنه الخلاص لنا ولهم كعرب أن نركن الى كلية مشتركة تاريخية تشخص العرب عن غيرهم على أساس وصف العروبة فحسب ، واذا سايرناهم قليلا للأنصاف ، فبحثناها وجدناها ممتدة الجذور من الواقع التاريخي للذات العربية المشتركة في الجاهلية .

---

١ ـ تقديم للدكتور صلاح الدين المنجد ، لكتاب: اركان عبادي ، محنة القومية العربية ص٥ .
٢ـ وانظر: صفحة ، ١٤٤ من هذا البحث. ابتداءا من السطر الثالث.

وللمقارنة بين غناء ذلك القدر المشترك عن المشتركين فيه وبين غناء الأسلام عن المسلمين يوم ان امتن الله به عليهم أقدم خلاصة موجزة هي أجمع ما وجدت في تصويره من خلال أنسابهم ومساكنهم ولغتهم وحالتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية نلمح منها عن كثب ذلك الواقع العربي المشترك ، وتلك الذات العربية ، والتي منها اتصلت العروق وامتدت الجذور بالقومية العربية الصادقة ، :

١ ــ يذكر ابن كثير أن هودا عليه السلام : " من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف ــ وهي حبال الرمل ــ وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ، ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد) أي عاد ارم وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فمتأخرة "

"ويقال ان هودا عليه السلام أول من تكلم بالعربية وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها وقال غيره أول من تكلم بها نوح وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

" ويقال للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل عليه السلام ــ العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة : منهم عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعمالق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان وبنو يقطن وغيرهم .

" وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان .

"وقحطان بن هود وقيل هوهود وقيل هود أخوه ، وقيل من ذريته ، وقيل ان قحطان من سلالة اسماعيل حكاه ابن اسحاق وغيره .

" والجمهور على أن العرب القحطانية ليسوا من سلالة اسماعيل . (١)

" وأما العرب المستعربة فهم من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل .

" وكان اسماعيل أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان ، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله (محمد) صلى الله عليه وسلم . (٢)

"وعندهم (أي الجمهور) أن جميع العرب ينقسمون الى قسمين : قحطانية وعدنانية ، فالقحطانية شعبان : سبأ وحضرموت ، والعدنانية شعبان أيضا : ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان .

"والشعب الخامس ــ وهم قضاعة ــ مختلف فيهم فقيل انهم عدنانيون والقول الثاني أنهم من قحطان .

---

١ ــ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جزء ٢ ص١٧١ ، تحقيق النجار .
٢ ــ المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

وقال محمد بن سلام البصرى النسابة : العرب ثلاثة جراثيم العدنانية والقحطانية وقضاعة ، قيل له فأيهما أكثر ؟ العدنانية أو القحطانية ؟ فقال ماشاءت قضاعة ان تيامنت فالقحطانية أكثر وان تعدنت فالعدنانية أكثر . (١)

ويذكر ابن جرير فيما ذكر له والله أعلم أن بدء نزول العرب أرض العراق وثبوتهم فيها ، واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلا بسبب دخول بختنصر بلاد العرب وجزيرتهم وقتله كل ذى روح قدر عليه مما استعرضه وتخريبه الجزيرة تسليطا من الله لأنهم كذبوا الأنبياء واتخذوا الآلهة من دون الله بعد فراغه من بنى اسرائيل ومن اخراب ديارهم وتشريد بقيتهم الى بابل .

ولقد سلط الله بختنصر على أهل عربة (مكة) فى زمن عدنان ، واجتمع أكثر العرب من أقطار عربة مع عدنان الى (حضور) ـ اسم مكان ـ لملاقاة بختنصر ، فأخذت سيوف بختنصر العرب من بين أيديهم ومن خلفهم فندموا على ذنوبهم فنادوا بالويل ، واياهم وبنى اسرائيل عنى الله بقوله : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) الآيات : من سورة الأنبياء : ١١ ـ ١٥ .

ونهي بختنصر عن عدنان ، ونهي عدنان عن بختنصر فرجع بختنصر الى بابل ، وألقى ما جمع من سبايا عربة بالأنبار فقيل أنبار العرب والحيرة لتحيرهم فيها . (٢)

ويذكر ابن جرير الطبرى أيضا فيما يروى عن ابن الكلبى : أنه لما مات بختنصر انضم الذين أسكنهم الحيرة من العرب الى أهل الأنبار من قبائل العرب من بنى اسماعيل ، ولما كثر بنوا معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب وملئوا بلادهم تهامة وما يليها فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت فيهم فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد فتحالفوا على التنوخ ـ وهو المقام ـ وتعاقدوا على التوازر والتناصر ، فصاروا يدا على الناس وضمهم اسم تنوخ ، فكانوا بذلك الاسم ، كأنهم عمارة من العمائر ، وتنخ عليهم بطون من نمارة بن لخم ، ودعا مالك بن زهير جذيمة الابرش الأزدى الى التنوخ معه ، فتنخ جذيمة وجماعة ممن كان بها من قومهم من الأزد فصارت كلمة تنوخ كلها واحدة ، وذلك أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الاسكندر عند قتله دارا بن دارا ملك فارس ، وكان يملكهم .

فتطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب الى ريف العراق ، وطمعوا فى غلبة الأعاجم ، فأجمع رؤساؤهم بالمسير الى العراق ونزل كثير من تنوخ مع عرب الأنبار والحيرة الذين ألقاهم بختنصر بها فكان أول من ملك منهم مالك بن فهم من تنوخ ثم من بعده أخوه عمرو بن فهم ثم من بعده

---

١ ـ المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .
٢ ـ أنظر: تاريخ الطبرى ١ / ٥٥٨ ـ ٥٦٠ .

جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم الازدى من سبأ . (١)

ويذكر ابن جرير أيضا عن ابن الكلبى أن جذيمة من أفضل ملوك العرب رآيا ، وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية ، وأظهرهم حزما ، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب وغزا بالجيوش وكانت منازله فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها وعين التمر ، وأطراف البر الى النشوير والقطقطانة وخفية وما والاها ، وتجبى اليه الأموال ، وتفد اليه الوفود ، وكان غزا طسما وجديسا فى منازلهم من اليمامة وما حولهم — وكانت طسم وجديس يتكلمون العربية — فأصاب أن ملك اليمن حسان بن تبع الحميرى وهو ابن وريث بلقيس على الملك فى عهد ملوك الفرس الذين استطالوا بعد نهاية ملك سليمان وتسليط بختنصر على بنى اسرائيل والعرب — فأصاب جذيمة أن ملك اليمن هذا قد أغار على طسم وجديس باليمامة فانكفأ جذيمة راجعا بمن معه ، وتأتي خيول تبع هذا على سرية لجذيمة فتجتاحها وعندها يقول جذيمة شعرا :

ربما أوفيت فى علم ... ترفعن بردى شمالات

فى فتو أنا كالئهم ... فى بلايا غزوة بساتوا

الى قوله :

أنا رب الناس كلهم ... غير ربي الكائنات الفات

الى قوله :

وقد شربت الخمروسطهم ناغما فى غير أصوات

ولا يخفى ما فى هذا الشعر من اقواء وتفاهة

وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن واتخذ صنمين يقال لهما : الضيزنان وكانهما بالحيرة معروف وكان يستسقى بهما ويستنصر بهما على العدو ، وكانت اياد بعين أباغ ، وأباغ رجل من العماليق ففزاهم جذيمة ، فبعث اياد قوما سقوا سدنة الصنمين الخمر ، وسرقوا منهم الصنمين فأصبحا فى اياد ، وبعثوا لجذيمة ان أوثقت لنا أن لا تغزونا رددناهما اليك ، فأوثق لهم وانصرف عنهم بالصنمين ، وجمع جموعه من العرب ففزا ملك العرب الآخر بأرض الجزيرة ومشارف الشام عمرو بن ظرب العملقي فقتله جذيمة وملكت ابنته الزباء ، وكانت جنود الزباء من العماليق والمعارية الاولى وتزيد وسليح ابنى حلوان بن قضاعة ، ومن كان معهم من قبائل قضاعة . (٢)

وقصة الزباء مع جذيمة مشهورة وأنها احتالت عليه حتى قتلته ثأرا بأبيها ، واعتمدت فى ذلك على الكهان ، ومشهور كذلك ما جرى بينها وبين ابن أخت جذيمة عمرو بن عدى الذى ملك بعد خاله من قبل الفرس ، وحيل قصير معها . (٣)

---

١ — انظر : تاريخ الطبرى ، ١ / ٦٠٩ — ٦١٣ .

٢ — المصدر السابق ، ٦١٣ — ٦١٨ .

٣ — = = = ، ٦١٨ — ٦٢٨ .

وكان من أخبار طسم وجديس أنهم من ساكني اليمامة ، وهي اذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وكان عليهم ملك من طسم ظلوم غشوم ، لاينهاه عن هواه شيء ، يقال له عملوق ، مضرا بجديس مستذلا لهم ، ومما لقوا منه أنه أمر بألا تهدى بكر من جديس الى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها فقتلته جديس وقتلت معه كثيرا من طسم وفر طسمي الى اليمن يستمدى تبع على جديس فكان فناء جديس على يد تبع اليمن حسان بن تبع كما سبق ذكره الى أن فقأ عين اليمامة أخت المستمدى وصلبها على مدينة جو فسميت باسمها . (١)

وكان من أخبار تبابعة اليمن أنهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فلما عبدت قبائل سبأ غير الله وبطروا وسألوا أن يباعد بين أسفارهم أرسل الله عليهم سيل العرم فتفرقوا فى البلاد تشاءم منهم أربعة وتيامن ستة ، وهؤلاء التبابعة من تيامن بقي فيهم الملك حتى سلبهم ملك الحبشة ملكهم وأمر عليهم أبرهة الى أن استرجعه سيف بن ذى يزن الحميرى قبيل مولد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بقليل . وكان أحد ملوك التبابعة ربيعة وخبره مع شق وسطيح الكاهنين ، وانذارهما بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهور ، وذكر السهيلي أنهما ولدا فى يوم واحد وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ، ويقال انها تفلت فى فم كل منهما فورث الكهانة عنها ، وهي امرأة عمرو بن عامر وكان كاهنا أيضا وله قصة تتلخص فى أنه أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم حين رأى الجرذ يحفر فى سد مأرب فكاد قومه حتى باعهم أمواله وهم لايعلمون ، وقد ذكرها ابن كثير فى تفسير سورة سبأ مطولة . (٢) وهذه الدولة قد استولى عليها الفرس تماما زمن باذان كما أن الرومان قد قضوا على بترا سنة ١٠٦م بقيادة تراجان ثم قضوا على تدمر سنة ٢٧٢م بقيادة أورليان (٣)

وكان العرب على العموم خاضعين اما للروم فى الشام وما يليه ، واما للفرس فى ريف العراق وما يليه ، وليس لهم فى داخل الجزيرة كيان مستقل وله نظام حكومي ، وانما من كان له هذا النظام فهو تابع اما للرومان فى الغرب واما لفارس فى الشرق ، وهذا التابع رغم ذلك هو فى الحالة الفضلى فى المعيشة والحضارة الدنيوية على سائر العرب ، وسائر العرب تفد عليه وتؤمه للتجارة والتمرض للعطاء والترف وغير ذلك من مرغوبات أهل الجاهلية .

٢ ــ ولا يزيد عن ذلك الباحثون الجدد فى التاريخ للقومية العربية ، فكما فى محاضرات الدواليبي من ص ٥ ــ ١٥ حيث قرر فيها أن من نتائج البحوث العلمية الجديدة فى السنوات الاخيرة ومن خلال الآثار الحضارية القديمة ، الجزم بحقيقتين علميتين هما كما يقول :

١ ــ " أن الحضارة الأنسانية الأم انما نشأت فى جزيرة العرب وفى جنوبيها على الضبط (أى

---

١ ــ انظر المصدر السابق ، ص ٦٢٩ ــ ٦٣٢ .

٢ ــ انظر : البداية والنهاية ٢ / ١٧٤ ــ ١٩٧ .

٣ ــ انظر : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، للدكتور الأسد ، ناصر الدين ، ص ١٣ .
وانظر : العرب فى الشام قبل الأسلام لمحمد أحمد باشميل ص ٣٥ ، ٧٣ وما بعدها .

سبأ التى أخبرنا الله بقصتها) . ثم اضطرت هذه الحضارة ـ تحت تأثير حدوث الجفاف فى الجزيرة العربية فريقا من أصحابها من آكديين وبابليين وآشوريين وغيرهم ، الى الانتقال والانتشار على جوانب الرافدين فى العراق وما حوله ، والفراعنة بجميع أسرهم الجنوبية والشمالية الى الانتقال والانتشار على جانبى النيل .

" ٢ـ أن هجرات عربية أخرى امتدت منذ ماقبل التاريخ على كل من أفريقية الشمالية ، والبلقان وايطاليه وأسبانيه ، كما وصلت أيضا الى كل من قفقاسية وبحر الخزر من جهة ، والى ترانسيلفانيه وسلوفاكيه وأعالي بوهيميه فى ألمانيا ، عن طريق مجرى الدانوب من جهة أخرى ، وأخيرا الى كل من فرانسه والجزر البريطانية وايرلندة والدانمركة واسكاندیناوه من جهة ثالثة ، كما شرحنا ذلك فى كتابنا " قلمة طروادة التاريخية " وصلتها بالهجرات العربية القديمة الى أوربة " (١)

ويستطرد فيقول :

" الشعب الفلسطينى العربي القديم ، الذى يدل اسمه فى اللغة الكنعانية القديمة على أنه فريق من الكنعانيين حسب مهنتهم واختصاصهم وهم "المحاربون " أو " الجبارون " كما أشار اليهم القرآن الكريم على لسان بنى اسرائيل حين خرجوا من رقهم لفراعنة مصر فقالوا فى الفلسطينيين :

" ان فيها قوما جبارين " أو كما جاءت تسميتهم فى كتب التاريخ بالعمالقة .

ثم يذكر فى استطراده : " البونيين " فيقول : " وماهم الا الهجرة العربية التى يرجع أصلها الى منطقة "بون" فى اليمن والتى امتدت الى الجزائر وتونس فى صدر التاريخ ، واليهم يرجع بناء مدينة بون فى الجزائر المعروفة اليوم بمدينة عنابة ... مع بنائهم عدة مدن أخرى تحت هذا الاسم فى أماكن أخرى من العالم .

ثم يذكر التيرانيين والبحر التيراني فيقول : " وماهم الا الشعب " الايتروسكي " من بحارة النيل ، وهو كنعاني الأصل ، وقد سكن فى مطالع التاريخ فى شمالي ايطالية من نهر " التيبر " الى جبال " الألب " وهو الذى اكتشف الجزر الثلاثة " كورسيقة " و " سردينية " و " سيسيليه " فيما بين ذلك من هذا الجزء من البحر مما أطلق عليه اليونان اسم بحر " التيرانيين " والكلمة كنعانية وتعنى بحر " البحارة " ولا نشك فى أن اسم جزيرة "تيران" ومضايق "تيران" فى مدخل خليج العقبة العربي له صلة بأصل هؤلاء " التيرانيين " (٢)

وهكذا يجد العاملون للقومية العربية ، ويتكلفون فى تحصيل الحاصل ، وتثبيت الواقع ، ويؤكدون صلة العرب بهذه المسميات من بلدان وشعوب وعمران ، ويظنون أن المسألة المشكلة عدم ثبوتها منسوبة اليهم ، وما فطنوا أن الكفر يقطع ما يدلي به الوارث من نسب ، والى أن سبب الأرث الصحيح هو

١ـ الدكتور محمد معروف الدواليبي ، دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الأنسانية ص ٥٥ ، ٦ .

٢ـ المصدر السابق ، ص ٨ ، ٩ .

ما دل عليه قوله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) الأنبياء : ١٠٥، ١٠٦ . والزبور : زبور داود الملك عليه السلام والذى ينتظر اليهود من نسله طاغية يحكم العالم ، وهو الدجال الذى يتبعه اليهود المفسدون وكتب الله فى الزبور أن الأرض ، وله ملكها ، انما يرثها عباده الصالحون لا المفسدون ، أى أن سبب الارث الحق ، هو الصلاح والأصلاح وهو عبادة الله وحده ، وليس التعلق بالأنساب والمآثر والتغنى بالامجاد والمفاخر ، وعجيب أن يلتمس أصحاب هذه البحوث الملهية عن نقطة الخصومة الاسلام ، حتى يضيع أصحابه عنه فيضيعوا عن كل شيء ، عجيب أن يلتمسوا مبررا من القرآن ، يقول الدواليبى بأنه يبحث فى هذا : " للأسهام بالعمل بالأشارة القرآنية فى هذا المقام التى خاطبت العرب فى عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمرتهم بالنظر فى تاريخ أجدادهم السابقين وما كانوا عليه من قوة وآثار حضارية فى الأرض حيث جاء فى القرآن الكريم (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن . مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) الأنعام : الآية : ٦ . وكما قال فى مكان آخر :(كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض) سورة المؤمن الاية ٨٢ ، وكما جاء فى مكان آخر فى ارم ذات العماد ، (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) سورة الفجر الاية ٩ . وفى مصر (وفرعون ذى الاوتاد) الفجر الاية ١١ . أى الأهرامات " (١)

ثم لم يبين أن مراد الله هو تنبيه العرب أن لايفتروا بنواديهم وأموالهم وأولادهم وتجارتهم التى تفوقوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من الصحابة حين بدء الدعوة فى مكة ، وأن آباءهم وأجدادهم وغيرهم ممن قبلهم ماأغنت عنهم هذه الأمور وهي فيهم أكثر وأعمر بدليل آثارها التى يرونها لما كذبوا وعبدوا غير الله بل يوهم أن مراد الله هو دعوة العرب لزيادة التمسك بالأموال والأولاد والأوطان وعمرانها حتى يصلوا الى مستوى آبائهم فيها بدليل مدحها بأنها قوة وحضارة ، وعدم تكملة سياق هذه الآيات لان فيه بيان مراد الله تعالى ، بل مدحها فى حالة المسغبة ، مسغبة العرب المنكوبين الى هذه القوة والحضارة ، وكأن مدحها واثارة الشهوة فيها هو طريق الحصول عليها ، بينما ذلك زيادة فى الحرمان ، زيادة فى الشعور به ، والحسرة على فواته ، أما طريق الحصول عليها فهو مجاوزتها الى مالكها وطلبها منه ، سبحانه ، والعمل بما شرعه سببا لرزقهم اياها .

وهل يريد أعداء العرب من علماء الآثار فى بحوثهم الأثرية سوى دعوة العرب الى أن يعودوا الى آثارهم الوثنية ، ومخلفاتهم الهمجية التى كان العرب عليها ابان ضياعهم وحرمانهم ، ويروجون الدعوة اليها بأنها حضارة مؤثرة ، كما يقوله هومل الاوربي ، وقد سبق ، وأعيده

---

١ ــ المصدر السابق ، ص ٧، ٨ .

هنا للمناسبة: " ان الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها ، وحصونها وقلاعها لابد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الاول قبل الميلاد "

وقال: " ان أهمية العرب في الشرق القديم تكمن في مجال الحضارة والدين ويكفي أن نذكر كلمتي البخور وعبادة النجوم ، لندرك أثر العرب في الامم المجاورة لهم ولا سيما العبرانيين واليونان " (١)

٣ ــ وبقي مصدر تاريخي هام وهو الشعر الجاهلي (ديوان العرب):

اذا بحثنا في الشعر الجاهلي نجد فيه أن بني أسد سموا "عبيد العصا" حين قتل سرواتهم ملك العرب في جاهليتهم ، حجر بالعصي وكان هذا الملك قد ورث الملك عن أبيه الحارث الذي قباذ ملك الفرس على العرب (٢) ، يقول شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص بين يدي حجر هذا بعد تلك الحادثة يستعطفه:

اما تركت تركت عفوا	أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم	وهم العبيد الى القيامة
ذلوا لسوطك مثلما	ذل الاشيقر ذو الخزامة

فعطف عليهم حجر ، وعفا عنهم ، فتكهن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدي ، فقال:

"ياعباد: قالوا: لبيك ربنا" وحرضهم بالسجع على قتل حجر وهو لا يصرح باسمه حتى استفهموا منه بقولهم: " من هو ربنا؟ " فأفصح لهم فقتلوه . وفي ذلك يقول ابنه امرئ القيس ووريثه المضياع:

أرقت لبرق بليل أهـــل	يضيء سناه بأعلى الجبل
.....	.....
بقتل بني أسد ربهم	ألا كل شيء سواه جلل
فأين ربيعة عن ربها	وأين ثميم وأين الخول (٣)

وامرئ القيس هذا ، ملك ضيع ملكه كما ضاع قلبه بين الغواني ، وابن ملوك من ملوك العرب ومذكور في دنياهم ، وشريف في جاهليتهم ، يقود لواء الشعر العربي الجاهلي ، حتى وصل الى أن قال:

نادمت قيصر في ملـكه فأوجهني وركبت البريدا (٤)

وقد خصص من معلقته المشهورة وأولى المعلقات مايقارب أربعين بيتا في وصف ضياع القلب وحبه الذي بلغ حد العبادة والتوله حين يبدؤها بقولـه:

---

١ ــ نقلا عن الدكتور ناصر الدين الاسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، تمهيد مجتمعات العرب في الجاهلية وتفاوتها في الحضارة ، ص ١١ ، ١٢ .

٢ ــ أنظر: مختار الشعر الجاهلي للشنتمري ، تحقيق مصطفى السقا ، ص ٩٠

٣ ــ المصدر السابق ص ٢ ومابعدها ، وشرح ديوان امرئ القيس ، تأليف حسن السندوبي ، ص ١٨٠

٤ ــ مختار الشعر الجاهلي ، ص ١٠٢ .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل (١)

الى أن يصف مدى تغلغل هذا الحب الضائع على فاطمة أو عنيزة ونحوها :

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل (٢)

ويقول فى هذه المعلقة وهو يصف أفعاله التى أثمرها ذلك الحب حين ضاع :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينى من جناك المعلل
فمثلك حبلى قد طرقت و مرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول
اذا ما بكى من خلفها انصرفتله بشق وتحتى شقها لم يحول (٣)

ومن ذلك قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلي

. . .

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة وما ان أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت علي هضيم الكشح ريا المخلخل (٤)

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى من المختارات:

سموت اليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله انك فاضحي ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صال
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى اذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظن والبال

ثم ان امرئ القيس مع هذا يتهدد بعلها لوحملته الغيرة فيقول :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال (٥)

ومما يدل على أن امرئ القيس كان ممتنعا بما تراه له العرب من مكانة وشرف رغم عهره وضياعه

---

١ ــ شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، ص ٣
٢ ــ المصدر السابق ، ص ١٣ .
٣ ــ = = = = ، ص ١١ ، ١٢ .
٤ ــ = = = = ، ص ١٥ وما بعدها .
٥ ــ مختار الشعر الجاهلي ، للشنتمرى ، تحقيق السقا ، ص ٣٨ وما بعدها .

لاستساغة وقوع هذا الضياع في المجتمع الجاهلي أن القلة الذين يخشون المعاربين الناس لايجرؤون على قتله جهارا ويودون لو قتلوه سرا قوله في معلقته والذي سبق ذكره قبل قليل :

تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا علي حراصا لويسرون مقتلي

ولا أدري ماذا يبقى من المهر والأفساد بعد افتخاره بأغواء الحامل والمرضع ، وبيضة الخدر التي لايرام خباؤها ، وذات الزوج في شعره؟ انه الفتنة والضياع ، ولا أدل على هذا الضياع العام في المجتمع العربي بلا اسلام من قول طرفة بن العبد في معلقته يفتخر أيضا :

فأن تبغني في حلقة القوم تلقني وان تقتنصني في الحوانيت تصطد

... ...

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد

الى قوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكري اذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهتـه المتورد

وتقصيري يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد (١)

قد استطاع طرفة أن يجمع بين مجالس الرؤساء وأندية الفجار في مجتمعه وكل شيء عنده في هذه الحياة هو شرب الخمر ، والحرب ، والتمتع بالنساء ولولا هذه الثلاث لم يبال في أي وقت جاءه الموت . وهذه الثلاث من المفاخر في المجتمع العربي بلا إسلام ، واعلاها التشبيب بالنساء وتبرير الزنى بالعشق والغرام والحب وما يحدث من ميل القلب وضلاله ، ويليها الخمر . حتى أصبح من الأغراض الأساسية لشعر القوم أن تستهل القصيدة بذكر مفاتن المرأة وصفات الخمرة فاتحة ومقدمة ومهل للقصيدة كي تسمع وتنال القبول وتعلقها القلوب لأنها والهة هذه الاشياء حتى حكيم الجاهلية زهير في معرض الجد والحزم والأصلاح بين المتحاربين يبدأ معلقته بقوله :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

"يعني من منازل الحبيبة المكناة بأم أوفى دمنة لم تكلم ؟" ، "والدمنة ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما" (٢)

وهذا الصبا والفتنة بالمرأة حمل كثيرا منهم على دفن بناته أحياء مخافة المعاربين الناس واستسلاما لوقوعه ، نظرا لمقتضى وقوع قلوبهم في قبضة عشق المرأة والخمرة وهذا دليل كونهم من الجاهلين ، قال يوسف عليه السلام : (والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) يوسف: ٣٣

---

١ ــ شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ .

٢ ــ شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٨٥ .

وينقض زهير حكمته وغرض معلقته بمقولته فيها :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (١)

وبمقولته فيها أيضا : " ومن لا يظلم الناس يظلم (٢)

ويصور لنا التبعية الى حد العبادة للقبيلة ان غوت وان رشدت هذا البيت لدريد بن الصمة؛

وما أنا الا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد (٣)

ولمقام هذا الفصل أكتفي بهذه الأمثلة من كتب التاريخ ، وتقارير البحوث الحديثة ، ودواوين الشعر الجاهلي ، لتقديم صورة مقبولة لجذور الشخصية العربية المشتركة التي يزعم القوميون أن رجوعنا اليها وتصورنا بها مخلص ومفازة مما يهدد شخصيتنا وأصل كياننا .

وقد تبين من هذه المصادر المختلفة مدى المستوى الذي وقع فيه العرب من اسفاف في النظر وانحطاط في الفكر ، وتبعية مذلة ، وذل لمن لا يستحق ، فهم وان كانوا يذكرون الله ويحلفون به ويسمون أبناءهم : عبد الله وتيم الله ، ويقرون بأن الله خالقهم ومن قبلهم وسائر المخلوقات وأنه الذي يدبر الأمور فهم مشركون قد اتخذوا من دون الله أولياء وقالوا : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) الزمر: ٣ . وفي جاهلية أفسدت تقديرهم للقيم والأخلاق .

والقوميون : سواء شعروا أولم يشعروا انما يجرون قومهم الى هذه الصورة وهي صورة لا يعبأ بها ولا يقام لها وزن ، صورة العرب وهم على أسوأ حال يشركون بالله ، ويقتل بعضهم بعضا يقول الشاعر القطامي عمير بن شييم وهو يصف حالهم ، حال قومه من العرب في كرهم وفرهم وعدوانهم على ذوي الأرحام ان لم يجدوا غيرهم أو على الأصح ان عجزوا وجبنوا عن عدوهم استأسدوا على بني عمهم وذوي قرباهم :

وأحيانا على بكر أخينا ... اذا مالم نجد الا أخانا (٤)

وهذا القتال في غير سبيل الله ، فمن يعوضهم غير الله؟ انها الخسارة . يتمسحون بأذيال فارس المجوسية في الشرق ، أو بأذيال الرومان في الغرب ، وقد دخل فيهم اليهود بالشر والفتنة والفساد والاستغلال ، وليس من نقص في العروبة ، بل كانوا في قمتها ومنتهاها ، يقول أحدهم المعلقات الطوال انشاء ورواية ، ويقيم النوادي والمؤتمرات العربية من أدبية وفكرية وغيرها من محالفات ومعاهدات ، وتجري فيها البيانات غاية في البلاغة وتصريف الكلام الذي يسبي المقول ويصرف القلوب اذا أذن الله تعالى . ينحر أحدهم ناقته التي يركبها جودا لمن نزل به ، بل يجود بنفسه لمن دعاه وعاذ به ولو في سبيل التوافه ، ويسمي ذلك شهامة

---

١ ــ شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص١٠٢ .

٢ــ المصدر السابق، ص١٠٤ .

٣ ــ الأصمعيات ، ص ١٢ .

٤ ــ انظر: مجلة المجتمع ، عدد ٢٨٥ في ٣ / صفر / ١٣٩٦هـ ص ٤ وما بعدها .

يخشى المار فيها ويتحاشى المسبة ويطلب حسن الأحدوثة من الناس فحسب، ويتعصبون لذلك الى حد التضحية والفداء ، فهل أنقذهم ذلك وخلصهم من الضلال المبين ، والخسران المظيم هذا امرئ القيس الذى دون شعره ونشر وكان به يفتخر ، وبشعره وشعر غيره يستشهد على صحة العروبة لغة وعادة وتقليدا ، وشرح ديوانه حسن السندوبي ورأى أن ينوه فى شرحه هذا باسم من لقبه "بطل العروبة الموفق" للمناسبة فى طبعته الخامسة بمطبعة الاستقامة الصفحة ٣ من الورقة الثانية بعد ورقة العنوان الأولى .

أقول هذا لم ينج امرئ القيس فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه : (امرئ القيس صاحب لواء الشعراء الى النار) (١)

والعروبة لم تنج عمرو بن لحي أباخزاعة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :(رأيت عمرو بن عامر بن لحي يجر قصبه فى النار ، وكان أول من سيب السوائب) . قال ابن المسيب : " كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء " (٢)

والعرب بمجموعهم لم تمنعهم العروبة المشتركة وهي فيهم كل متكامل من الجهل والضلال والخسران يقول ابن عباس رضي الله عنهما : " اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الانعام (الى قوله تعالى) (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين) الانعام : ١٤٠ (٣)

وما يسرني جهلهم ولكن يسرني العلم .

والذى وجدناه فى شعر امرئ القيس من دعارة وعهر يكاد أن يكون سائدا فى الجاهلية لدى المجتمعات العربية بل المعروف أن من أنحاء نكاحهم الزنى والبغاء المحترف ففي صحيح البخارى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصف لانحاء النكاح فى الجاهلية ومنه "أن الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها حتى يتبين حملها ، فأذا تبين أصابها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، ونكاح آخر يجتمع الرهط (مادون العشرة) على المرأة فيدخلون ، كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، أرسلت اليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم ما كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يافلان ، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لايستطيع أن يمتنع منه الرجل ، ونكاح آخر : يجتمع ناس كثير ، فيدخلون على المرأة لاتمتنع من جاءها ــ وهن البغايا ــ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أراد هن دخل عليهن ، فاذا حملت احداهن ووضعت ، جمعوا لها ، ودعوا لهم

---

١ ــ مسند الامام أحمد ، ٢/ ٢٢٨

٢ ــ صحيح البخارى ، ٤/ ١٤٧

٣ ــ نفس المصدر .

القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به ، ودعي ابنه ، لايمتنع من ذلك " (١)
وأجمع وصف لهم قبل الاسلام فى قوله تعالى : (وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)آل عمران : ١٦٤
هل يستطيع القوميون مهما فسروا القومية العربية وبرروها وقالوا بعدم الفرق بينها وبين الأسلام أن يخرجوا هذه الصورة من القومية العربية؟ وهل تجتمع مع الأسلام ؟ وهي صورة الضلال ، والضياع والخسار ، والتى جمعت بين اليهودى والنصراني والوثنى والمسلم فى رابطة العروبة فهل يهون على حر احترام رابطة متوهمة فيدخل عليه عدوه بذلك الاحترام ويستولي عليه ولا يرقب فيه الا ولا ذمة؟

لا يستطيع القوميون أن يخرجوا تلك الصورة من القومية العربية ، ولا أن يجعلوا القومية العربية من الاسلام ، ولا الاسلام منها .

ولا أدرى ماذا فيها من خلاص ومفاز ونصر على الاعداء وقد تضمنت يهودية ونصرانية ووثنية؟

الاسلام هو المخلص والمفازة

عرفنا فيما تقدم أن القومية العربية ، حتى وان كانت أصيلة كما رأينا لامخلص فيها ولامفازة .

ولكن المخلص والمفازة هو الاسلام الذى من الله به فتخلص به هؤلاء العرب من تلك الصورة المتقدمة من الضلال المبين الى الهدى ، والزكاء ، والعلم ، والحكمة ، قال الله تعالى :

(هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) الجمعة : ٢ .

لقد من الله على المؤمنين وعلى الناس ببعثة رسوله فى وسط هذا المجتمع الجاهلي ، وعلى تلك الصورة التى قدمنا مثالها وكان قومه عليها فجابههم بخلافها ونقضها ليغيرها ولينقذهم بالأسلام ، بـ "لااله الا الله " حتى تزكو أنفسهم وتتطهر فيتعلموا منه الكتاب والحكمة ويهتدوا بهما الى الرشد والسيادة ، وينتقلوا بهما الى العز والمنعة وسعادة الدنيا والآخرة . اللهم صل وسلم على رسول الله محمد . فكان حائز السبق : صديق الأمة أبا بكر رضي الله عنه صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووزيره فى دين الله ، ودعا همه الى الله ، فاستجاب لأبى بكر عثمان وطلحة وسعد رضي الله عنهم ، وبادر الى الاستجابة صديقة النساء خديجة رضي الله عنها ، وبادر الى الاسلام علي بن أبى طالب رضي الله عنه ، وكان ابن ثمان سنين ، وفى كفالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذه من عمه ، وبادر زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وأسلم ورقة بن نوفل " (٢) وهكذا بدأ الاسلام بقلة من الناس ، بآحاد ضعفاء حتى كثرهم الله

---

١ ــ صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب ٣٧ من قال لا نكاح الا بولي ، ص ٥١٤ .
٢ ــ مختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٥٧ .

ودخل أناس في دين الله واحدا بعد واحد ، وانتبهت قريش على بيان حقيقة ما هي عليه سابقا ، وأنه باطل ، فخاف المشركون من دعوة الحق أن تجتاح شركهم وما هان عليهم فراقه فحينئذ شمروا لرسول الله بالعداوة ، ولأصحابه بالأذى والعذاب ، يقولون: لساحر كذاب أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق ، أ ءنزل عليه الذكر من بيننا ؟) ص: ٤ ـ ٨ .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات : " قال السدي ان ناسا من قريش اجتمعوا فيهم أبوجهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والاسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا الى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه والهه الذي يعبده ، فانا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا اليه شيء ، فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى اذا مات عنه تناولوه ، فبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب فاستأذن لهم على أبي طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال أدخلهم فلما دخلوا عليه قالوا ياأبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه والهه ، وقال فبعث اليه أبوطالب فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ياابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك والهك قال صلى الله عليه وسلم : " يا عم أفلا أدعوهم الى ما هو خير لهم؟ " قال والام تدعوهم؟ قال صلى الله عليه وسلم : (أدعوهم أن يتكلموا بكلمة واحدة يدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم) . فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم ، ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرأمثالها ، قال صلى الله عليه وسلم (تقولون لااله الا الله) فنفروا وقالوا : سلنا غيرها ، قال صلى الله عليه وسلم : (لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها) فقاموا من عنده غضابا وقالوا : والله لنشتمنك والهك الذي أمرك بهذا) . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير (١)

وفي جامع الترمذي في تفسير سورة ص بسنده عن ابن عباس قال : (مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم وعند أبي طالب مجلس رجل فقام أبو جهل كي يمنعه قال وشكوه الى أبي طالب فقال يابن أخي ماتريد من قومك؟ قال أريد منهم كلمة (واحدة) تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم العجم الجزية ، قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة ، فقال ياعم : قولوا لااله الاالله ، فقالوا الها واحدا ؟ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق قال فأنزل فيهم القرآن (ص والقرآن ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ـ الى قوله ـ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق) هذا حديث حسن صحيح . (٢)

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٤ / ٢٧ ، تفسير سورة ص .

٢ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، تصحيح عبد الرحمن عثمان ٩/ ٩٩ وما بعدها .

فقال عتبة : حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :لا .
فرجع الى قريش فقالوا ما وراءك ؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به الا كلمته ، قالوا :
فهل أجابك؟ قال نعم ، لا والذى نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قاله ، غير أنه أنذركم صاعقة
مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لاتدرى ما قال ؟ قال لا والله ما
فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة " .

وذكر ابن كثير روايات أخرى عن أبي يعلى والبغوى وعن محمد بن اسحاق بن يسار فى كتاب السيرة تقرب منها وتؤيدها الا أن فى رواية ابن اسحاق زيادة فى العروض التى عرضها الوليد هي قوله، " وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الاطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فأنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه " .

وفى رواية ابن اسحاق زيادة أيضا فى كلام أبى الوليد عتبة لقريش حينما رجع اليهم بعد سماعه القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أنه قال لقريش : " سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها لي خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه؟ قال هذا رأيى فيه فاصنعوا مابدا لكم " (١)

وفى هذه الآيات التى تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عتبة قول الله تعالى :
(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) فصلت : ٦ ـ ٧ .

وفى هذا خلاصة الدعوة الاسلامية وغايتها ، وليست فى شيء من تلك الغايات التى عرضها عتبة حتى المال والملك وهما أقصى غاية عند أهل الجاهلية ، ولله كم يلقى من عناء من يريد نقلهم من هذا الواقع الذرك ، وما كان انذار رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من هذا الواقع الوخيم ليفر من يعيشه الى الله الذى يدعو الى دار السلام ، وله الدنيا والآخرة ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم الشدة فى المداوة والأذى من أهله . وفيما يلي أسوق موقفا من مواقف انذاره صلى الله عليه وسلم لقرابته لما نزل عليه قوله تعالى : (وانذر عشيرتك الأقربين) ، وهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : ياصباحاه ، فقالوا من هذا ؟ فاجتمعوا عليه ، فقال : أرأيتم ان أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٤ / ٩٠ وما بعدها .

مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا ، قال : فأني نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، قال أبو لهب تبا لك ، ما جمعتنا الا لهذا ؟ ثم قام فنزلت: (تبت يدا أبي لهب وقد ـ تب ، هكذا ، قرأها الأعمش يومئذ " (١)

ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مافتر عن الدعوة مستمضما بربه يوافى المواسم يتتبع القبائل قبيلة قبيلة يدعوهم الى الله وحده ، ورد فى مسند الأمام أحمد فى مواضع متعددة بروايات مختلفة وبألفاظ متقاربة عن ربيعة بن عباد الديلي وكان جاهليا أسلم فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عينى بسوق ذى المجاز ـ ويطوف على الناس بمنى فى منازلهم قبل أن يهاجر الى المدينة يقول : ياأيها الناس قولوا لااله الاالله تفلحوا ، ويدخل فى فجاجها والناس متقصفون عليه فمـــا رأيت أحدا يقول شيئا وهو لايسكت يقول أيها الناس قولوا لااله الا الله تفلحوا ، ويتبع القبائل ، ويقف على القبيلة ويقول يابنى فلان انى رسول الله اليكم آمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوابه شيئا وأن تصدقونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به ، ووراءه رجل أحول وضىء الوجه ذو غديرتين ، يقول انه صابىء كاذب ، يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه ، هذا يأمركم أن تدعوا دين آبائكم ، قال ربيعة فقلت لابى من هذا الذى يكذبه قال عمه أبو لهب " . (٢)

وقال ابن كثير فى تفسيره لسورة تبت بعد أن ساق هذا الحديث بنصه عن محمد بن اسحاق؛ " ورواه أحمد والطبراني " (٣)

وكانت القبائل ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ، وتؤذيه ، ويقولون له : " عشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك " وهو يقول : (اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا) (٤)

ولقد مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا الناس الى الأسلام ، الى قول لااله الا الله ، وما تقتضيه ، وهي كل الأمر وأصله ، وعليها مبنى الأسلام جميعه ، ومنها تصدر الشريعة ، وفيها ينحصر المدل ، ولا يكون فى غيرها ، وهي المفتاح الوحيد ، الذى تفتح به الدنيا ، والآخرة ، وتنفتح به القلوب ، ويخرج بها الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن كل ضيق وعقدة وقيد الى السعة والحل والتحرر من الظلم ، فى الدنيا والآخرة ، ومن الجاهلية الى العلم ومن الظلمات الى النور ، ومن الفساد الى الصلاح ، ومن الجور والاضطراب الى المدل والاحكام ومن المنكر الى المعروف ومن الخبيث الى الطيب ، ويغير هذا المفتاح لايمكن لكائن من كان سواء كان زعيما وطنيا أو مصلحا عبقريا ، أو سياسيا محنكا ، أن يفتح له ، ولايمكن أن يفتح له به حتى يتبع به طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ صحيح البخارى ، ٦/ ١٤٨ ، تفسير سورة تبت .
٢ ـ مسند الأمام أحمد ، ٣ / ٤٩٢ ، ٤/ ٦٣ ، ٣٤١ ، ٥ / ٣٧٦ .
٣ ـ انظر : تفسير ابن كثير لسورة تبت ٤/ ٥٦٤ .
٤ ـ أنظر: مختصر السيرة ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٠ .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فى السجون ، مسجونين بسخافة التصور وباطله ومظلمة الجاهل وجوره " يسجد أحدهم للحجر والشجر والنهر وللتمرة فى الصباح ثم يأكلها فى المساء ، ويسجد لكل مالا يملك لنفسه فضلا عن غيره نفعا ولا ضرا ، ويعيش ما ينتج عن ذلك من فساد فى العقلية ، فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ، وانعكس نظام الفكر فاذا النظرى بديهي ، واذا البديهي نظرى ، يستريب الأنسان منهم فى موضع اليقين والجزم ويؤمن فى موضع الشك ، وفسد الذوق فصار الأنسان منهم يستحلي المر ويستطيب الخبيث ، ويستمرئ الوخيم ، وبطل حسه فأصبح لايبغض العدو الظالم بل يتملقه ، ولا يحب الصديق الناصح ، وفسدت الحياة كلها فتحولت الى شقاء وبؤس يشقي الانسان نفسه ، والناس يذيق بعضهم بأس بعض .

واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمعا عالميا بأكمله منكوسا فى وضعه ، قد أصبح فيه الذئب راعيا والخصم الجائر قاضيا ، وأصبح المجرم سعيدا بجرمه ، والمصلح شقيا بأصلاحه ، لاأنكر فى هذا المجتمع من المعروف ، ولا أعرف من المنكر قد غلته عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها الى هوة الهلاك ، معاقرة الخمر ، والمهر ، والربا ، والقسوة ، ووأد البنات ، وقتل الاولاد ، وملوك قد تداولوا بلاد الله بينهم ، واستعبدوا عباد الله لهم ، ورهبان اتخذوا أربابا من دون الله ، واتخذوا الرهبنة ودعوى التدين وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله وعلى العموم فالناس قد سجنوا فى ظلمهم وجهلهم ، فعادت مواهبهم عليهم وبالا وعلى رقابهم أغلالا ، كدودة القز التى تنسج من حولها سجنها بفيها ، قد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا ، والحمية عمية جاهلية ، والذكاء خديعة ، والعقل ابداعا فى الجنايات وابتكارا فى مزاولة الشهوات ، واتباع الأهواء .

ولكن قد أعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المفتاح وهو لااله الا الله وأنزل عليه منهاج الفتح به ، وهو الوحي بقسميه ، قرآنا يتلى ويتدبر كما قال الله (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) وسنة يعمل بها ، ولا يرفضها الا ضال طريقة الفتح والنصر ، فأنى له؟

فواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك البشرية السجينة بمفتاح سجنها ، يهديها الى طريق الخلاص والفوز ، بل الى الفتح والنصر بأذن ربه ، وعلم الناس اليقين عينا وعلما أنه لاشيء يعادل هذا المفتاح ، ولاشيء يستغلق عليه ، حتى ولو كان السموات السبع وعامرهن غير الله والأرضون كل ذلك فى كفة ، ولااله الا الله فى كفة لمالت بهن لااله الا الله ، ولو صارت المذكورات حلقة واحدة مبهمة ضد لااله الا الله لفصمتها لااله الا الله ، لكن بشرط استعمال هذا المفتاح على طريقة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى فتحت له كنوز كسرى وقيصر وأعطي الكنزين الذهب والفضة ففتح عنهما المفاليق ووزعهما فى سبيل الله ، وزويت له الارض من المشرق والمغرب ، ونصر بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمره ،

ولذا صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه على طريقته ، ومضى على سنته ، يدعو الناس الى لااله الا الله ، المفتاح الوحيد الذى لاينفتح المغلق بغيره ، وما رضي بديلا به لأنه لايمد له مهما كان ، حتى وان كان الرياسة القومية والأمارة الوطنية ، والملكية العربية ، ولو كانت هذه تنوب عن كلمة لااله الا الله لقبلها حينما عرضت عليه بحضرة عمه أبي طالب الكافل المحرج ، كيف لا وهي أى الزعامة قد بذلها خصومه الالداء أبوجهل وعتبة والوليد وغيرهم ، ورضوا أن ينضموا تحت هذا اللواء القومي بسيادته ورئاسته ، أما حكموه فى وضع الحجر الأسود فى مكانه من البيت بعد أن كاد القتال يقع بينهم ؟ وهو أكبر حادث فخرى فى حياتهم فمنحوه اياه ، ثقة بأمانته وعدله أما قالوا له على لسان عتبة كما تقدم وهم ماعرفوا الاغراء السياسي : " ان كنت انما بك الرياسة : عقدنا لك ألويتنا فكنت رأسا ما بقيت " ؟

" واذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمي الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للمروءة المهضومة ، وينتصر من العجم الظالمين ، ويفرز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم وفارس ، اذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز احدى الامبراطوريتين فى ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة ، أو جارة أخرى ، ويضمها الى الأمارة العربية الوليدة .

" ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلا بباطل ، ويبدل عدوانا بعدوان آخر ، ويحرم شيئا فى مكان ويحله فى مكان آخر ، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى ، لم يبعث زعيما وطنيا يجر النار الى قرصه ، ويصفى الأناء الى شقه ، ويخرج الناس من حكم الفرس والروم ان الى حكم عدنان وقحطان .

" وانما أرسل الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله وسراجا منيرا ، بأذن الله تعالى فما كان ليتصرف من تلقاء نفسه ، انما أرسله الله ليخرج من شاء الله من عبادة العباد الى عبادة الله رب العباد ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها وسعة الآخرة ، ومن جور الأديان الى عدل الأسلام يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

" فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ، ولقوم دون قوم ، وللعرب دون الناس ، ولوطن دون وطن ، ولكن خطابه للناس جميعا . وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به رسالته ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافي واستقلالها السياسي لعدم مطامع الساسة الدنيوية فيها خير مركز لرسالته ، وكانت الامة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الادبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته (والله أعلم حيث يجعل رسالته) .

" أتى النبي صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والأصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذى أعيا المصلحين جميعهم فتحه ، وكل من حاول فتحه بغيره ، دعا الناس الى الأيمان بالله وحده ، ورفض الاوثان ، والكفر بالطاغوت بكل معنى الكلمة ، قام

فى الناس ينادى : (يا أيها الناس قولوا لااله الا الله تفلحوا) (١)

ثم كانت الهجرة ، كانت الهجرة الى الله ورسوله ، والتقى المهاجرون بالأنصار ، التقى المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، بالأنصار الذين تبوأوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . واتحدوا لا يجمعهم الا الاسلام ، ألف الله بين قلوبهم فاصبحوا بنعمة الله اخوانا وكانوا نواة الأمة الأسلامية المباركة ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله .

"ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة ، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ، ويذكي جمرة قلوبهم . ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخا فى الدين ، وعزوفا عن الشهوات (المحرمة) ، وتفانيا فى سبيل مرضاة الله ورسوله وحنينا الى الجنة ، وحرصا على العلم وفقها فى الدين ومحاسبة للنفس ، يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنشط والمكره ، وينفرون فى سبيل الله خفافا وثقالا ، قد خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم للقتال سبعا وعشرين مرة فى عشر سنين ، وخرجوا لقتال العدو أكثر من مائة مرة ، فهان عليهم التخلى عن الدنيا وهانت عليهم زينة أولادهم ، ونسائهم فى نفوسهم ، ونزلت الايات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه ، وبكل مايشق على النفس اتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها .

" وانحلت العقدة الكبرى ــ عقدة الشرك والكفر ــ فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول صلى الله عليه وسلم جهاده الاول فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي .

" وانتصر الاسلام على الجاهلية فى المعركة الاولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة ، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لايشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى .

" حدثوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد اذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد ، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة ، والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة .

" حتى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم . وانصفوا من

---

١ ــ مقتبسات مما كتبه أبو الحسن الندوى فى كتابه : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين مع التصرف أنظر : ص ٧٨ وما بعدها من كتابه المذكور . وانظر فى كتاب : معالم فى الطريق ، لسيد قطب ص ٢٨ وما بعدها .

أنفسهم انصافهم من غيرهم ، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة وفى اليوم رجال الغد .
لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والاقربين ، وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا باجتماعهم عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم (١) ومثلا لقيام دين الله مشهودا فى هذه الحياة ، وودعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بخطبه الوداعية وفيها :
(ان دماءكم و أموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع) (٢)
وفيها : (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما ذا أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكبها الى الناس اللهم اشهد ثلاث مرات) (٣)
وفيها : (يا أيها الناس ان ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لاسود على أحمر ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى) (٤)
وفيها : (يامعشر قريش لا تجيئوا بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتجيء الناس بالآخرة ، فاني لا أغنى عنكم من الله شيئا) (٥)
واستخلفهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى عمله ليلحق بالرفيق الاعلى قرير العين من أمته ورسالته
وكان فى عشية عرفة من حجة الوداع قد نزل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) المائدة : ٣ . كما فى تفسير ابن كثير ٢ / ١٢ ـ ١٤ .
ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل الله لهم الدين فلا يحتاجون الى زيادة أبدا ، وأتمه فلا ينقصه أبدا ، ورضيه فلا يسخطه أبدا .
وهكذا كانت النقلة من الجاهلية الى الاسلام ، وكان التحول من صفات الجاهلين الى صفات الحكماء العالمين ، وكانوا خامة طيبة أى العرب فكما كانوا يفضلون الناس بما فضلهم الله به من الشيم التى مدحها كالكرم والمروءة ، والشجاعة والوفاء ، والمروءة والبيان ، وان كانت لا تغنى عنهم فى حالة الكفر ، فكذلك هم فى الأسلام أفضل لما فقهوا ، فهم خيار فى الجاهلية خيار فى الاسلام اذا فقهوا ، وليس سائر الناس أسعد مصيرا منهم ، وان كانوا أكثر رخاء وترفا

---

١ ـ مقتبسات مع التصرف من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوى ، ص ٨٧ ، ٨٨ .
٢ ـ صحيح مسلم ، صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جابر ، ١ / ٢ / ٥٣٤ .
٤ ـ مسند أحمد ٥ / ٤١١ .
٥ ـ رواه الطبراني عن العداء بن خالد ، نقلا عن كتاب : الابداع ، شرح خطب حجة الوداع تأليف سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ، وانظر شرحه وشرح حديث مسلم وحديث أحمد المذكورين هنا فى كتاب الابداع هذا ص ٨ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ومابعدها .

وقوة وبأسا فى الظاهر ، وزينة فى دنياهم ، فليسوا بأقوى منهم فى عقولهم وحافظتهم ، وبيانهم وعبارتهم ، ولا أقرب منهم للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء غير أنها مكارم وشيم وضعت فى غير موضعها ففسدت وضاعت ، أما غيرهم فيفتقرون الى مثل هذه الشيم ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " كانوا قبل الاسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ، ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبى ولا هم أيضا مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة ، كالطب والحساب ونحوهما ، انما علمهم ما سمحت به قرائحهم : من الشعر والخطب وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم وما احتاجوا اليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم ، أو من الحروب . فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى — ما جعل الله فى الأرض ولا يجعل أعظم قدرا منه — وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية ، والظلمات الكفرية ، التى كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها . فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الرين عن قلوبهم ، واستنارت بهدى الله الذى أنزل على عبده ورسوله فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة . فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزل الله اليهم ، بمنزلة أرض جيدة فى نفسها ، لكن هي معطلة عن الحرث أو قد نبت فيها شجر الغضاه والعوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فأذا طهرت عن المؤذى من الشجر والدواب ، وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار : جاء فيها من الحرث مالا يوصف مثله فصار السابقون الاولون من المهاجرين والانصار أفضل خلق الله بعد الانبياء ، وصار أفضل الناس بعدهم : من تبعهم بأحسان الى يوم القيامة من العرب والعجم "(١)

وللمثال الشخصي : عمر بن الخطاب كيف كان فى الجاهلية ؟ وكيف كان فى الاسلام ؟ .

وعمرو بن العاص يعد من دهاة العرب وترسله قريش فى سفارتها الى الحبشة ليسترد المهاجرين من المسلمين فيرجع خائبا لا لنقص فى حيلته أو قصور فى خطته ولكن لأنه حارب بها الله ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم عاد فاتحا عظيما وداهية حصيفا وقائدا ناجحا .

"كان الارطبون أدهى الروم ، وأبعدها غورا ، وأنكاها فعلا ، وقد كان قد وضع بالرملة جندا عظيما وبأيلياء جندا عظيما ، وكتب عمرو الى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمرو ، قال عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فأنظروا عم تنفرج "(٢)

وخالد بن الوليد فى الجاهلية أحد فرسان قريش الشجعان ، وزاده الاسلام أن كان سيف الله المسلول .

وهكذا ما من شيمة كريمة ، وخصلة حميدة الا وزادها الاسلام صلا وزكاء ونماء وكمالا ، ولا مطمح كبير ، وهمة عالية الا وقد وجد صاحبها ضالته فى الاسلام القائم ، فتحولت الاحوال ، ارتفعت

---

١ — اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

٢ — وكان ذلك فى وقعة أجنادين وفتح بيسان بعد ارتحال هرقل منهزما من الشام وقوله لسورية : " السلام ياسورية تسليم المفارق ، ولا يعود اليك رومي أبدا الا خائفا " ، أنظر تاريخ الطبرى ٣/٦٠٣ ، ٦٠٥ .

القيم الكريمة ، وهبطت القيم الرذيلة ، وقدروا الحياة قدرها ، وأخذوا لما يستقبلهم من آخرتهم أمرها . ساروا بالمفتاح : (لااله الا الله) يفتحون به شرقا وغربا ، وما يستعصي عليهم مغلق بأذن الله ، فالحصون تفتح ، والقلوب تفتح ، والموازين تصحح ، والحب الضائع الذى مرصور منه فى الجاهلية يأخذ وضعه الصحيح : " هم فضالة بن عميربن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة؟ قال : نعم يارسول الله ، قال ماذا كنت تحدث به نفسك قال لاشيء كنت أذكر الله ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضالة يقول والله مارفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب الي منه ، قال فضالة فرجعت الى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث اليها قالت هلم الى الحديث فقلت يأبى الله عليك والاسلام :

لو قد رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الاصنام

لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الاظلام (١)

ولقد استمسك المسلمون من بعده صلى الله عليه وسلم بوصيته التى ودعهم بها : (تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله) والتى مر ذكرها وذكر مصدرها قبل قليل .

وكان المسلمون فى عز وهدى على قدر تمسكهم بهذه الوصية ، رغم أنه صلى الله عليه وسلم ليس فيهم بشخصه ، ولكن فيهم ميراثه باقياً محفوظاً بحفظ الله وثيقة منه فله الحمد والمنة .

ولنستعرض بعض صور من وقعة القادسية نرى فيها أصالة التربية التى تربوا عليها وهي تربية رب العالمين بنعمته الأسلام ، سنرى حوارهم مع فارس الشرق ، وجهادهم اياهم ، على شأن يختلف عن جميع شؤون أهل الارض غيرهم فى الحروب ، واختصر ما أعرضه مما نقله عن مصادره المؤرخ ابن جرير الطبرى :

جاء سعد بن أبى وقاص حتى نزل القادسية ومعه الناس ، ولا يزيد المسلمون على سبعة آلاف أو نحو من ذلك ، والمشركون يبلغون ثلاثين ألفا أو نحوا من ذلك ونبال المسلمين وعدتهم موضع سخرية أهل فارس الشرق ، يشبهونها بالمغازل فيقولون "دوك دوك" ويقولون للمسلمين مزدرين لهم : " لايدى لكم ولا قوة ولا سلاح ما جاء بكم ؟ ارجعوا " . ولكن المسلمين يأبون الرجوع ، ويفهمونهم أنهم ما جاءوا الا بدعوة ربانية ، يدعونهم الى الله عز وجل ، وعندئذ يطلب منهم أهل فارس أن يبعثوا اليهم رجلا منهم ، "عاقلا يبين لنا ما جاء بكم" ، ثم يرسل سعد وفدا الى كسرى يزدجرد ، ويطوى قائد الفرس "رستم" حتى ينتهي الى باب يزدجرد فيوقف الوفد على خيل عروات معهم جنائب وكلها صهال ويستأذن فيحبس على الباب " ويبعث يزدجرد الى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ، ويقوله لهم ، وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون اليهم ، وعليهم البرود

---

١ ــ زاد المعاد تأليف ابن القيم ٢ / ١٦٧ .

والمقطعات ، وفى أيديهم سياط دقاق وفى أرجلهم النعال ، فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فادخلوا عليه ...

"وجعل أهل فارس يسوءهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم ، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس ، وكان سيء الأدب ، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال سلهم ما يسمون هذه الاردية ؟ ألخ وكان يلقى منهم أجوبة يتطير منها .

" ثم قال سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم الى غزونا والولوج ببلادنا ؟ أمن أجل أنا أجممناكم ، وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فقال النعمان بن مقرن لهم ان شئتم أجبته عنكم ، ومن شاء آثرته . فقالوا : بل تكلم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا . فتكلم النعمان ، فقال : ان الله رحمنا فارسل الينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، وينهانا عن الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع الى ذلك قبيلة الا صاروا فرقتين ، فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه الا الخواص . فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ الى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الأنصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله ، وان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه ، الجزاء ، فان أبيتم فالمناجزة ، فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وان اتقيتمونا بالجزاء ، قبلنا ومنعناكم ، والا قاتلناكم .

" فتكلم يزدجرد ، فقال : اني لاأعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم . لاتغزوا فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وان كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

" فأسكت القوم . فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى ، فقال : أيها الملك ... انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فأنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس الا ما غزلنا من أوبار الأبل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض ، وان كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله الينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا

وأحلمنا فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له ، وكان الخليفة بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا الا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق لـــه واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا : ان ربكم يقول : انني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت اذ لم يكن شيء ، وان رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأحلكم داري ، دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم . فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وان شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك . فقال أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال ما استقبلت الا من كلمني ، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به . فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم ، وقال ائتوني بوقر من تراب ، فقال احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أني مرسل اليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسيه ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور " الى آخر القصة ، وفيها أن عاصم ابن عمرو احتمل وقر التراب واعتبره فألا على الظفر بأرضهم ، كما تطير منه رستم على أنه علامة أن الله سلبهم أرضهم وأبناءهم للمسلمين . ثم ان كسرى بعث أهل فارس بعددهم وعددهم وعلى رأسهم رستم ، حتى اذا نزل رستم بالعقيق على منقطع معسكر المسلمين راسل زهرة فخرج اليه حتى واقفه ، فأراده أن يصالحهم ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه ، وجعل يقول أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ... الخ ، فقال له زهرة : صدقت ، قد كان ما تذكر وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا . انا لم نأتكم لطلب الدنيا ، انما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كما كما ذكرت ، يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع اليكم يطلب ما في أيديكم . ثم بعث الله تبارك وتعالى الينا رسولا ، فدعانا الى ربه ، فأجبناه ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : اني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين بـــه وهو دين الحق ، لا يرغب عنه أحد الا ذل ، ولا يعتصم به أحد الا عز . فقال له رستم : وما هو ؟ قال أما عموده الذي لا يصلح منه شيء الا به ، فشهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والاقرار بما جاء من عند الله تعالى . قال : ما أحسن هذا ، وأي شيء أيضا ؟ قال : واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله تعالى . قال : حسن ، وأي شيء أيضا ؟ قال والناس بنوا آدم وحواء ، اخوة لأب وأم ، قال ما أحسن هذا ، ثم قال رستم : أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر ، وأجبتكم اليه ، ومعي قومي ، كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ قال : اي والله ، ثم لا نقرب بلادكم أبدا الا في تجارة أو حاجة . قال صدقتني والله ، أما ان أهل فارس

منذ ولي أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة ، كانوا يقولون : اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم ، وعادوا أشرافهم ، فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس ، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون نطيع الله في السفلة ، ولا يضرنا من عصى الله فينا " فانصرف عنه وطلب رستم آخر ، ثم ان سعدا أرسل ربعي بن عامر أيضا الى رستم وصفته وهيئته عجيبة ، ودعوته مثل دعوة زهرة قال " الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي الى موعود الله . قال وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي . فقال رستم : قد سمعت مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم ، كم أحب اليكم ؟ أيوما أو يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . وأراد مقاربته ومدافعته ، فقال : ان مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن ، متردون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الأسلام وندعك وأرضك ، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك ، وان كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه ، وان كنت محتاجا اليه منعناك ، أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع الا أن تبدأنا أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى . قال : أسيدهم أنت؟ قال : لا ، ولكن ، المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم . فخلص رستم برؤساء أهل فارس ، فقال ما ترون ؟ هل رأيتم كلاما قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله لك أن تميل الى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ، أما ترى الى ثيابه؟ فقال : ويحكم لا تنظروا الى الثياب ، ولكن انظروا الى الرأى والكلام والسيرة ، وأقبلوا يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه الى آخر حوارهم ومراسلتهم بينهم ، ثم ان أهل فارس لم يقبلوا الدعوة الى الله واختاروا المناجزة فنصر الله المسلمين ، فهزموا فارس وسبوهم . " قال حصين : فحدثني رجل منا يقال له عبيد بن جحش السلمي ، قال لقد رأيتنا وانا لنطأ على ظهور الرجال ما منهم سلاح ، قتل بعضهم بعضا ولقد رأيتنا أصبنا جرابا من كافور فحسبناه ملحا لانشك أنه ملح ، فطبخنا لحما ، فجعلنا نلقيه في القدر فلا نجد له طعما ، فمر بنا عبادي معه قميص فقال يامعشر المعربين ، لاتفسدوا طعامكم فأن ملح هذه الأرض لاخير فيه ، هل لكم أن تأخذوا هذا القميص به؟ فأخذناه منه ، وأعطينا ، منا رجلا يلبسه ، فجعلنا نطيف به ونعجب منه فلما عرفنا الثياب ، اذا ثمن ذلك القميص دراهم قال : ولقد رأيتني أقرب الى رجل عليه سوار ان من ذهب ، وسلاحه ، فجئت فما كلمته حتى ضربت عنقه " .

أنظر: تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٦ وما بعدها .

هذا حوار المسلمين ، الدال على العزة ، كما قال الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) المنافقون : ٨ . هذا حوارهم مع أهل فارس الشرق ، وهذا جهادهم الكريم ، وحالهم الأبية الشريفة مع فارس ومع الروم أيضا فقد شهد لهم رجال الروم وهم يحاربونهم بأنهم رهبان بالليل ، فرسان بالنهار ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، وقال فيهم ملك الصين لما استنجد بهيزدجرد ملك الفرس هذا الذى سبق ذكره ، بعد أن وصفهم له : " انه يمكنني أن أبعث لك جيشا أوله في منابت الزيتون ـ الشام ـ وآخره في الصين ، ولكن ان كان هؤلاء القوم كما تقول فأنه لا يقوم لهم أهل الأرض ، فأرى لك أن تصالحهم ، وتعيش في ظلهم وظل عدلهم "(١)

ولكنه لم يصالحهم فكبته الله وأورثهم أرضه وملكه .

وبعد أن استعرضنا بعض صور التحول من الجاهلية الى الاسلام ، يمكن أن نكتفي بها هنا ، كأمثلة تبين لنا كيفية النقلة والتحول من عبادة غير الله تعالى الى عبادة الله وحده ، والتي امتن الله بها على العرب خاصة وعلى الناس عامة ، ببعثة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ومصدر نور في حياة البشرية كلها .

أثر الاسلام ، أو المد الاسلامي ، في حياة البشرية

جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وغلبت العقيدة لانها هي الصحيحة وفازت الدعوة لانها هي السليمة ، وصارت للمسلمين العاقبة لأنهم متقون ، والعاقبة للمتقين ، أقبل الناس على اختلافهم جميعا للدخول في الاسلام يوم كانت له الدولة ، ويوم كان طريقه الى حياة الناس كلها مفسوح لأن كلا يجد فيه رغبته فان كان عادلا أحبه وان كان ظالما أذعن له لأنه يجد في الأسلام نصرته حقا بردعه عن الظلم ، وحمايته عن عاقبته ، ووصايته الرشيدة عليه ولا يجدها فيما سواه ، حتى لقد وجد كل واحد ممن استظل براية الاسلام وان كان غير مسلم بغيته ، وتنمية مواهبه ، واشباع رغباته باعتدال ، ومسح آلامه وانصافه وشفاءه مهما تعددت أمراضه وتعقدت مشاكله ، ذلك لشمول الأسلام وتمامه وكماله وصلاحيته وانفراده بذلك في هذا الوجود كله ـ وحيث أتيح للاسلام أن يظهر بمظهره ولم يمنعه الناس ـ حصل الامن والهدى ، وعند ذلك انساح المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ، وانتشر معهم الاسلام بسرعة ، فائقة ، وما من مانع خارجي يعاديه سواء تمثل في دولة أو في ديانة الا واهتز وندكت أركانه ، ورعب من مده وذل لأمره وتصاغر لعظمته عن مخالفته ، وخضع لأصلاحه ، زهقت أمامه قوتان من أقوى قوى الظلم ، عالميتان تتجاذبان العالم فيما بينهما ، وكل منهما جعلها أصحابها الها يتعالى على الآخر ، فالرومان ينازعون فارس وفارس تنازع الرومان ، ونشأ عن ذلك فساد

---

١ ـ نقلا عن كتاب : افادة الأخيار ببراءة الأبرار ، تأليف محمد العربي ١/٣٨ .

يحمي كل منهما نصيبه من هذا الفساد ويغذيه ، ولكن جاء الحق وزهق الباطل ، فكان أثر الأسلام فى بناء الحياة البشرية عظيما حتى على أهل الباطل يوم كان وجودهم قائما ، فانه لأول مرة يتحد أهل الباطل فيما بينهم فى وحدة متماسكة ضد غيرهم من أهل الحق ، وما كانوا قبل ظهور الحق يعرفون الانسجام والاتحاد فيما بينهم ، ولكن أثر الحق عرفهم حسن هذه الوحدة ، وتغلغل أثر الاسلام فى حياة البشرية كينابيع الماء فى الأرض .

" والمبادئ والتصورات والقيم والموازين ، والنظم والاوضاع التى واجه بها الاسلام البشرية أول مرة وليس معه الا رصيد الفطرة ...

" هذه المبادئ والتصورات والقيم والموازين ، والانظمة والاوضاع قد استقرت فى حياة جماعة من البشر — وهي فى صورتها الكاملة — فترة من الزمان . ثم استقرت فى حياة العالم الاسلامي العريض — فى مستويات متفاوتة — فترة طويلة أخرى . ثم عرفت فى حياة الجماعة البشرية كلها تقريبا ، خلال نيف وثلثمائة وألف عام .. عرفت على الاقل دراسة ورؤية وفرجة . ان لم تعرف مزاولة وعملا وتجربة .

" ان حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وكالفن فى أوربا ، وحركة الاحياء التى تفتقت منها أوربا اليوم . وحركة تحطيم النظام الأقطاعى فى أوربا ، والانطلاق من حكم الاشراف وحركة المساواة واعلان حقوق الانسان ...

"وحركة المذهب التجريبى التى قام عليها مجد أوربا العلمي ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة فى العصر الحديث .. وأمثالها من الحركات الكبرى ، التى يحسبها الناس أصولا فى التطور التاريخي .. كلها قد استمدت من ذلك المدد الاسلامي الكبير ، وتأثرت به تأثرا أساسيا عميقا .. "(١)

ويقول أحمد أمين : " ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الاسلام . من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثاني والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا حركة تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسس ، وأن ليس للقسس حق فى ذلك ، وأن يضرع الأنسان الى الله وحده فى غفران ما ارتكب من اثم .

" وكذلك كانت حركة تدعو الى تحطيم الصور والتماثيل الدينية ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع الميلادى أو القرن الثالث والرابع الهجرى ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الامبراطور الروماني ليو الثالث أمرا سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمرا آخر سنة ٧٣٠م يعد الأتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ...

" ان بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة الى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالاسلام ويقولون

---

١ — سيد قطب ، هذا الدين ص ٦٥ ، ٦٧ .

أن كلوديوس أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣هـ)والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ولد وربي فى الاندلس الاسلامية ...

" كذلك وجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام " (١)

ومما يقوله "بريفولت" مؤلف كتاب " بناء الأنسانية " :

" فانه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الاوربى الا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، فان هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون فى نشأة تلك الطاقة ، التى تكون ماللعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمي " (٢)

وماذا فى الأندلس وجامعاتها ؟

جاء فى كتاب قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ، عصر الأيمان ، ترجمة محمد بدران نقل المؤلف عن استانلى لين بول من كتابه "حكم المسلمين فى أسبانيا " قوله : " لم تنعم الاندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب "

ويعنى بالعرب المسلمين ، لكن المستشرقين من غير المسلمين لايعرفون الاسلام نازلا من رب العالمين ، ويحسبون أو يوهمون أن الأسلام من وضع العرب ، أو خاص بهم ، وهو منهم ، فلا يفرقون فى تاريخهم لمز العرب بالاسلام ، بين العرب والمسلمين ، أوربما تعمدوا نسبة عطاء الاسلام وغنائه للعرب لايهام أن العروبة أصل الاسلام ، وأن الاسلام من وضع العرب للصد عن الاسلام .

ويقول ديورانت معلقا على قول استانلى لين بول هذا : " ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم " (٣)

وقال ديورانت :" وفى وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الاسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت فى عام ١٣١١م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين فى ذلك الوقت بمائتى ألف ، كلهم ما عدا خمسمائة منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الأسلام . وكثيرا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين " (٤)

هذا القول يصدره المؤلف ديورانت الذى لايعرف عنه أنه أسلم ، بل المعروف تحامله وغمطه قدر المسلمين ، وعصبيته للنصارى الواضحة فى كتابه هذا الذى اختارته وانفقت على ترجمته الأدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية .

---

١ ــ ضحى الاسلام ١/٣٦٣ ، ٣٦٤ .

٢ ــ نقلا عن كتاب : هذا الدين لسيد قطب ص١٧٠

٣ ــ ص ٢٩٢ .

٤ ــ ص ٢٩٧ . نفس المصدر المذكور .

نعمت الأندلس تحت ظل الاسلام بحكم عادل رحيم ، لم تنعم بمثله تحت ظل غيره ، ولذا كانت أوربا تبعث أبناءها للاستفادة من المسلمين ، تبعثهم الى مسلمين شهد لهم الكون كله الموافق والمخالف بالصلاح والأصلاح ، ولم تبعثهم الى مشركين ويهود ونصارى ، وشتان بين الفريقين كما لايستوى الكفر والايمان .

كانت هذه البعثات من أوربا احتكاكا أولى من نوعها اقتبست منها أوربا نورها ونهضتها وبدأ معها الاستشراق من الغرب ، ولان هذا النور المقتبس أنقذ أوربا من ظلمات الكنيسة ، وظلم الطغاة كان فزع الكنيسة وطواغيتها مصاحبا فى بدئه لبدء تلك البعثات الباعثة ومستمرا مع العلم المستنير حتى انتهى الصراع بالفصام بين دين النصارى والعلم الناهض فى أوربا التى لم تدرك أن هذا العلم مبني على دين الحق ، فحصل وهم انفصال العلم عن الدين على الاطلاق ، مع أنه فى الحقيقة يستحيل فصل العلم عن الاسلام ، ويمتنع قيام العلم على غير أساسه .

" عند ماكانت الاندلس منارة للعلم والمعرفة ـ يأتيها الاوربيون للتزود منها ـ

" هؤلاء هم أول من تعلم اللغة العربية ، واطلع على الاسلام ، وقد عادوا من بلاد الاسلام ، وعادوا من مدارس المسلمين يتكلمون اللغة العربية ، ويحملون فى قلوبهم تأثرات اسلامية ، وبلغة العصر الحديث ، والتشبيه مع الفارق ، كانت الكنيسة تعتبرهم غزوا فكريا اسلاميا بالنسبة لاوربا ولهذا فزعت الكنيسة ، فلتستمعوا الى هذا القرار الكنسي ، الذى تقول فيه الكنيسة : " ان هؤلاء الشبان الرقعاء الذين يبدأون كلامهم بلغات بلادهم ثم يكملون كلامهم باللغة العربية ليعلم عنهم أنهم تعلموا فى مدارس المسلمين ، هؤلاء ان لم يكفوا عن ذلك فستصدر الكنيسة ضدهم قرارات حرمان " .

تدلكم هذه العبارات على فزع الكنيسة من التأثرات الاسلامية العائدة مع المبتعثين الأوربيين الى مدارس الاسلام " (١)

وانتشر نور الاسلام فى جميع ميادين الحياة الدنيوية الظاهرية فى أوربا ، ولولا عداء عباد الصليب وعباد الدنيا ، ومن ورائهم عباد العجل ، وسائر أولياء الشيطان ، لكانت أوربا قد دخلت فى الاسلام باطنا وظاهرا منذ مدة ، وننتظر ذلك ان شاء الله فى المستقبل .

يقول القس رئيس الدير ، ميشو ، فى كتابه : رحلة الى الشرق ، : " ان من المحزن لدى الأمم النصرانية أن يكونوا قد تعلموا من المسلمين التسامح الدينى ، الذى هو دستور الأحسان من شعب الى شعب " (٢)

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه : حضارة العرب ، : " لم تكن القوة عاملا فى انتشار القرآن قطعا

---

١ ـ نقلا عن محاضرة للأستاذ محمد قطب ، بعنوان : المستشرقون والاسلام ، ونشرت فى مجلة المجتمع ، انظر: عدد ، ٣٤٠ ، فى ربيع الاول / ١٣٩٧هـ ص ٢٧ .

٢ ـ نقلا عن كتاب مجالي الاسلام : تأليف حيدر باماّت "ج . ريفوار "ترجمة عادل زعيتر ، ص ٣٩ .

... واذا حدث أن اعتنقت الشعوب النصرانية دين غالبيهم فذلك لان الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلا نحوها ، مما كان عليه سادتها السابقون ، ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان من البساطة البالغة مالم تعرفها الشعوب النصرانية حتى ذلك الحين " (١)

هذه معاملة المسلمين للمغلوبين والتى يحزن النصارى وأممهم كما يقول القس ميشو أن يكونوا تعلموها من المسلمين ، ولذا كان رد هؤلاء لما ظهروا لهذا الجميل والفضل ردا ينبثق من هذه الروح التى لاتشكر ، ونأخذ شهادة من فم واحد منهم عليهم ، قال ميشود فى تاريخ الحروب الصليبية " : " منع محمد قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة ، ولما استولى عمر على القدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذه المدينة المقدسة ذبحوا المسلمين بـــلا رحمة وأحرقوا اليهود " (٢)

وكتب ايتين دينيه عن تبرير قديسي النصارى موقف محاكم التفتيش وما عملته من مجازر بشرية رهيبة فى بلاد المسلمين وغيرها : " أرسل القديس أغسطين الى الحاكم (بوليفاس) رسالة يبرر له اضطهاد المخالفين وقتلهم قائلا : " انه لخير أن تقوم الكنيسة نفسها بذلك ، لأن الكنيسة ان هي اضطهدت أحدا ، فانما هي لاتقدم على ذلك الا مدفوعة بعاطفة المحبة .. " (٣)

وتلك هي مكافأة أوربا وأممها للمسلمين بعد أن أشرقت أندلسهم بنور ربها على العالمين ، فبدأ اضطهادهم لسكانها المسلمين منذ سنة ١٤٩٩م واستمر نحو قرن وكما قدر مسيو سيديو وغيره من المؤلفين الذين يوثق بهم عدد ضحايا التفتيش المقدس بثلاثة ملايين ، وينتهي دور الاضطهادات فى سنة ١٦١٠م بطرد جميع العرب المسلمين الى افريقية ، ويتم نقل مليون من الناس فى احوال بالغة القسوة ، فقد روى بليدا الدومينيكي أنه ذبح منهم فى الطريق أكثر من ثلاثة أرباعهم " (٤)

وما كان يحدث هذا فى حال ظهور الاسلام وعزه ولكن يحدث من أحقاد طواغيت الباطل على الحق حين يقدر لهم الظهور للدرس والتأديب لأهل الحق الذين أهملوه (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) .

ورغم هذا الانتكاس والبلاء يكثر النوم وتستمر السكرة فيأتى الاحتكاك من الجانب الاسلامي بالعالم الغربي ، الذى كانت هذه ذمته ومكافأته وتقواه لله ، يأتي الاحتكاك هذه المرة من الجانب الاسلامي لا لاقتباس النور وأسباب القوة كما فعلت أوربا سابقا ، ولكن لجر الظلمات وأسباب الضعف ومتابعة التدحرج الى قيعان الذل والتبعية بين واشنطن وموسكو وما دار فى فلكيهما البعيدين عن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين كما أمر الله وفق طريقة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أرى بدا من ايراد كلام المؤرخ اليهودى الغربي برنارد لويس هنا أيضا كما سبق أن أوردته فى آخر

---

١ ــ نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٩ .
٢ ــ نقلا عن المصدر السابق أيضا ص ٣٦ .
٣ ــ أشعة خاصة بنور الاسلام ، ترجمة راشد رستم ، سلسلة الثقافة الاسلامية للسمان (١٧) ص ١٩ .
٤ ــ نقلا عن كتاب: مجالي الاسلام ، تأليف (ج . ريفوار) ص ١١٦ ، ١١٧ .

الفصل الرابع (١):

" كل باحث في التاريخ الاسلامي يعرف قصة الاسلام الرائعة في محاربته لعبادة الاوثان منذ بدء دعوة النبي ، وكيف انتصر النبي وصحبه وأقاموا عبادة الأله الواحد التي حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية ، وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضد اللات ، والعزى وبقية آلهة الجاهلية بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها : الدولة ، والعنصر ، والقومية . وفي هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف ... الاصنام ، فادخال هرطقة القومية العلمانية أوعبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط ، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرا واعلانا . وانه لمن المحزن حقا أن يؤرخ الأنسان المراحل المتعاقبة التي مرت : كيف بدأ الاحتكاك ... ثم العدوى ... ثم الالتهاب ... ثم الازمة " (٢)

وهكذا قال أهل التاريخ كلمتهم : " أعز الله العرب بالاسلام ، ولما بعدوا عنه ذلوا وانحطوا " .

فما هي كيفية هذا الذل والانحطاط؟

فيما يلي أسوق نصوصا من الوحي ، الذي أوحاه الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الانفال تعقيبا على غزوة بدر وما أصاب كفار قريش ومشركي العرب من عقوبة عاجلة كالبطش والقتل والأسر والذل حين أعرضوا عن ذكرهم الذي أنزله الله اليهم ونعمته التي أسبغها الله على المسلمين من أمثالهم : (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ، كدأب آل فرعون ، والذين من قبلهم ، كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ، ان الله قوي شديد العقاب ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) من آية : ٥١ ـ ٥٣ .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الرعد : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام ، وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) الى قوله تعالى : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال) من آية : ٨ ـ ١١ .

وبوب مسلم في صحيحه بابا في هلاك هذه الامة بعضهم ببعض وساق أحاديث صحيحة منها حديث بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الاحمر والابيض ، واني سألت ربي لامتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وان ربي قال يا محمد ، اني اذا قضيت قضاء فأنه لا يرد ، واني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا) (٣)

---

١ ـ انظر: ص ١٣٩ من هذا البحث .

٢ ـ برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، تحت عنوان الفصل الرابع : الوطنية والقومية ص ١٠٥ .

٣ ـ صحيح مسلم ٢/٢/ ٣٠٩ .

وقد أورد البخارى فى صحيحه عن معاوية رضي الله عنه قوله : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين) (١) فمفهوم قوله : (ما أقاموا الدين) أن عدم اقامة الدين سبب فى انحطاطهم وزوال الامر عنهم ، وعذر لمن نازعهم الأمر ليقيم الدين حيث لم يقيموه فأقامه ولو كان عبدا .

وفى صحيح البخارى فى كتاب الفتن باب (قول النبي صلى الله عليه وسلم هلاك أمتى على يدى أغيلمة سفهاء) ــ وساق سنده ــ قال أبو هريرة : (سمعت الصادق المصدوق يقول :(هلكة أمتى على يدى غلمة من قريش) فقال مروان : لعنة الله عليهم غلمة ، فقال أبو هريرة : لو شئت أن أقول بنى فلان وبنى فلان لفعلت . ، قال الراوى عمرو بن يحى بن سعيد : " فكنت أخرج مع جدى الى بنى مروان حين ملكوا الشام ، فاذا هم غلمانا أحداثا قال لنا عسى هؤلاء أن يكونوا منهم ؟ قلنا أنت أعلم) (٢)

وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى فى المتن أن الترمذى عقد بابا فى ما جاء فى الخلافة وساق حديثا بسنده عن سفينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة . ثم ملك بعد ذلك) ، وقال الترمذى : " هذا حديث حسن " .

وقال الشارح : وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائى ، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح بعد ذكر هذا الحديث : أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره (٣)

وفى البخارى فى كتاب الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : ويل للعرب من شر قد اقترب . وساق بسنده عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش ، رضي الله عنهن ، أنها قالت : استيقظ النبى صلى الله عليه وسلم من النوم محمرا وجهه يقول : (لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وعقد سفيان تسعين أو مائه ، قيل أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم اذا كثر الخبث) (٤)

وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، اشارة الى أسباب الانتكاسة صريحة ، وهذه الاشارة هي قوله ، لا اله الا الله ، ويل للعرب ، أى ان فرطوا بلا اله الا الله ، وانحرفوا عن مدلولها وهي الكلمة التى دانت بها العرب ، وأدت بها العجم الجزية ، فاذا فرطوا بتطبيق مقتضاها وتنفيذ مدلولها ، وانحرفوا عن مفهومها الشامل ، باعراضهم عن دراسة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفيهما بيان معنى لا اله الا الله ، بيانا شمل حياة البشرية كلها فى جميع أزمنتها وأمكنتها الى قيام الساعة ، ونهج بهذه الحياة منهجا الى الكمال والشمول لا يماثله أى مستوى فى حياة جميع الناس الذين

---

١ ــ صحيح البخارى كتاب المناقب ، ٤ / ١٤٣ .
٢ ــ صحيح البخارى كتاب الفتن ، ٩ / ٤٠ .
٣ ــ تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى ، ٦ / ٤٧٦ .
٤ ــ صحيح البخارى كتاب الفتن ، ٩ / ٤٠ .

استمدوا منهجهم من غير دين الله الذى ارتضاه وهو الاسلام له وحده على سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مهما كان هذا الغير فى الكم والكثرة كما يظهر بالمقاييس الدنيوية ، أقول فاذا فرطوا بتطبيق لااله الا الله ، وتنفيذ مدلولها ، وانحرفوا عن مفهومها الشامل لحياة البشرية دخلوا فى الوعيد بالويل : ويل للعرب من شر قد اقترب ، ومن هذا الشر أن يلبسهم الله شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض ، ويمزقهم كل ممزق بظلمهم أنفسهم ، واستدعائهم للشر كما قضى الله وقدر ، ولا يرد ما قضاه وأراده سبحانه ، وتقدم ذكر الحديث الصحيح بذلك قبل قليل ، والذى فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وان ربى قال يامحمد ، انى اذا قضيت قضاء فانه لايرد ، وانى أعطيتك لأمتك أن لاأهلكهم بسنة بعامة ، وأن لاأسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا) (١) وليس معنى أن الله قضاه وقدره عدم مسؤوليتهم ، فهم قد انحرفوا باختيارهم ورضاهم بتبعة انحرافهم ، والله لايسأل لماذا خلق وقدر أن يختاروا الانحراف ويرضوا تبعة هذا الانحراف ، فتلك قدرته الفريدة فى ملكه الذى انفرد به بلا شريك له فيه فلايظلم أحدا ، وكل الملك له وحده لاشريك له وهو على كل شىء قدير ، أما مملوكي الله من الجن والانس فهم يسألون ، لانهم لايملكون غير ما ملكهم مالكهم ، وشرع لهم كيف يتصرفون فيه بأذنه ، فلا يتصرفون فيه تصرفا يخالف شرعه واذنه الا حق عليهم أن يسألوا : (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) ؟ يونس : ٥٩ .

ومن أسباب هذا الانحراف عن مدلول لااله الا الله سببان رئيسان هما :

١ ــ اللهو والأعراض عن الذكر الذى هو القرآن الكريم وماتلاه النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى بقوله وفعله وتقريره ، ونجم عن ذلك نسيان لله تعالى ولآياته وسننه فى مخلوقاته ، فأنساهم أنفسهم وهذا الاعراض وقع اول ماوقع على شكل انشغال فى امور الناس وفى حياتهم دون ان يستصحب مع هذا الانشغال قصد وجه الله وما عنده فى الآخرة ومعرفة صورة الحياة الدنيا الصحيحة وصورة سائر الاشياء على حقيقتها فى كل وقت .

وهذا برز اول مابرز فيمن اسندت لهم الامور وهم ليسوا اهلا ولا يدلون الا بوراثة الاسم والنسب وليس بوراثة علم وعمل فاراد وا سد نقصهم بالجبرية على بيعتهم .

٢ــ ايثار الحياة الدنيا والنشاط فى امورها ومازين فيها للناس من حب الشهوات والمتاع والترف فى النساء والبنين والقناطير المقنطره من الذهب والفضه والخيل المسومة والانعام والحرث ، ونسيانهم الآخرة وعدم العمل على حسابها ومراعاة ميزانها .

وهذا برز اول مابرز فى عامة الناس بعد انسياحهم فى الارض وفى الذين دخلوا فى الاسلام يوم صارت له الدولة والفتح ودخلوه وقت ضعوره وهم لم يفقهوه مجردا عن مظاهر الدنيا

١ــ صحيح مسلم ٢ / ٢ / ٣٠٩ .

فدخولهم لم يتعد مرغوبات اهل الدنيا ، ولهذا صاروا آلة للسياسة الشيطانية ، وأتباعا لكل ناعق ، وسواد على كل مطمع دنيوي وشهوة غي اما في رئاسة ومال اي دنيا موثرة وعلو في الارض ، واما في بطن وفرج ، فحسب ، وكأن هذه الامور الدنيوية ماعنها سؤال ولا عليها حساب ، ولا بعدها أمور أخروية تترتب السعادة بها والشقاء على ما عمله المبتلى بتلك الامور الدنيوية . ونتيجة لهذا التصور نسوا الدار الآخرة ، ونسوا لقاء الله ونسوا الله ، فألهوا أمور دنياهم فنسدت ، وضل عنهم ما كانوا يكسبون .

وليس هذا الاعراض وهذا الايثار عاما ولا كليا ، فأنه لا تزال طائفة على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى قيام الساعة ، ولم تخل الارض من قائم لله بحجته ولله الحمد ، وكذلك هما نسبيان ، وعقوبتها من جهل ونسيان وخسارة كل ذلك نسبي ايضا ، الى يومنا هذا ، فأن وزنت حالهم بحال الصحابة ، وجدت حالهم مرجوحة بحسب بعدهم عن تلك الحال ، وان وزنت حالهم بحال من خرج عن الاسلام وخسر الآخرة ، وجدت حالهم أرجح حتى وان خسروا الدنيا كلها ، مادامو مسلمين فهم لم يخسروا الآخرة ، ويتحمل كل مسؤولية اعراضه عن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وايثاره للدنيا على الآخرة في حدود الوسع والطاقة ، وما عجزوا عن اظهاره في الحياة الدنيا من الاسلام مادامو مطمئنين بالايمان ، بقلوبهم ، فلا يضرهم وما اكرهوا عليه من الكفر الظاهر في مظاهر الحياة الدنيا كذلك لا يضرهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان . ولا يغيبن عن البال عند المقارنة ان ما قد يوجد في المسلمين من المعاصي الكثيرة التي هي دون الكفر كالكذب والخيانة والغش ونحوها ، وأقل منها يوجد في الكفار من أهل الشرق والغرب ، ذلك لان الشيطان لم يفرغ من المسلمين ، ولا يفرغ منهم حتى يكفروا أو يفارقوا الدنيا ويأتيهم اليقين ، وقد فرغ الشيطان من الكفار ، فما بعد الكفر ذنب ، وهو الذنب الاعظم المؤدي الى خسران الآخرة ، وذلك غاية مطلوب الشيطان اما المسلمون فهم المجاهدون ولا يزال عدوهم الشيطان يحاولهم ويستفلهم ويسارقهم ولو عن بعض امور الاسلام ، ويورطهم ولو بالصغائر ومحقرات الذنوب ، حتى يجرهم الى الكفر بها من قرب ، او ينقص اجرهم ودينهم على الاقل (١) ولا شك ان الاعراض عن الذكر وايثار الدنيا سببان رئيسان لانحطاط المسلمين ونكستهم والتاريخ كله ناطق بأمثلة دالة على هاتين الحقيقتين ، امثلة كثيرة لا يمكن حصرها في حدود باحث واحد ، وضمن بحث لا يختص بهما ، ولكن اكتفي بأيراد هذه القصة كدليل على اعراض العرب بعد عهد الصحابة مباشرة :

١ــ انظر : الابداع شرح خطاب حجة الوداع ، للشيخ ابن حميد ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

نقل ابن حجر في تهذيب التهذيب عن الزهري انه قال :قدمت على عبد الملك بن مروان فقال من أين قدمت يازهري؟قال قلت من مكة قال ومن خلفت بسودها وأهلها؟قلت عطاء بن ابى رباح قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، قال فبم سادهم؟قال قلت بالديانة والرواية قال ان أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا . قال فمن يسود أهل اليمن قلت طاوس بن كيسان ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى . قال فبم سادهم ؟ قلت بما ساد به عطاء قال انه لينبغى ذلك قال فمن يسود أهل مصر؟قلت يزيد بن حبيب ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى ، قال فمن يسود أهل الشام ؟ قلت مكحول ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى (عبد نوبى اعتقته امرأة من هذيل) قال فمن يسود أهل الجزيرة؟قلت ميمون بن مهران قال فمن العرب أم من الموالى؟ قال قلت من الموالى قال فمن يسود أهل خراسان ؟ قال قلت الضحاك بن مزاحم ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى قال فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت الحسن البصرى ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت من الموالى ، قال ويلك ومن يسود أهل الكوفة؟قال قلت ابراهيم النخعى ، قال فمن العرب أم من الموالى ؟ قال: قلت من العرب قال ويلك يازهرى فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها قال قلت ياأمير المؤمنين :انما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط " (١)

وجاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه : " وقال ابن أبى ليلى : قال لى عيسى بن موسى ديانا شديد العصبية ــ من كان فقيه البصرة؟ ، قلت الحسن بن أبى الحسن ، قال ثم من؟ قلت محمد بن سيرين ــ قال فما هما ؟ قلت مولیان . قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار . قال فما هؤلاء ؟ قلت موالى . فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبى نجيح قال فما هؤلاء ؟ قلت موالى ، فتغير لونه ، ثم قال فمن أفقه أهل قباء ؟قلت ربيعة الرأى وابن أبى الزناد . قال: فما كانا ؟ قلت من الموالى ، فاربد وجهه ، ثم قال فمن كان فقيه اليمن؟ قلت طاوس وابنه وابن منبه . قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا . قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى قال فما كان عطاء؟ قلت مولى ، فازداد وجهه تربدا واسود اسودادا حتى خفته ، ثم قال فمن كان فقيه الشام؟قلت مكحول قال فما كان مكحول هذا؟ قلت مولى . قال فتنفس الصعداء . ثم قال فمن كان فقيه الكوفة؟ قال فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتيبة وعمار

---

١ ــ نقلا عن كتاب الابداع شرح خطب حجة الوداع للشيخ ابن حميد ص ٨١، ٨٢، ٨٣.

ابن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت : ابراهيم والشعبي ، فما كانا قلت عربيان قال الله أكبر ، وسكن جأشه " (١)

ومثل هذا جاء في معجم البلدان لياقوت في مادة خراسان : " قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما مات المبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي — وعدد ها الى قوله — الا المدينة فان الله تعالى خصها بقرشي ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب" (٢)

قال أحمد أمين بعد ايراده ما جاء في العقد الفريد في كتابه ضحى الأسلام ص ١٥٤ وما بعد ها " وهناك قصص كثيرة أخرى كهذه لا تخلو من نزعة شعوبية ، ولكن أساسها صحيح وهو أن أكثر العلماء من الموالي " (٣)

وهذا الذي نريد التدليل عليه ، وهو أن أكثر العلماء ليسوا من العرب ، فلما ذا ؟ انه الأعراض ، وكما نقل أحمد أمين عن ابن خلدون أنه يقول : " انشغالهم بالرياسة " (٤)

ومايتبع هذا الانشغال بالرياسة عن طلب العلم من أنفة وتكبر يمنع عن التواضع والتذلل في طلب العلم لله تعالى ، وقد عرفت هذه الأنفة عن العرب في جاهليتهم ، فاذ هبها الاسلام ولكن لما اتصلوا بحضارة الرومان وفارس — رغم أن اتصالهم هذا كفاتحين — اشتغلوا في الرئاسة والأمارة ، وسار فيهم خلب هاتين الحضارتين على غرة منهم عن دعوتهم الى الله والدار الآخرة ، واستمتعوا بالترف كما استمتع الذين من قبلهم ، وتتبعوا فيه سنن من كان قبلهم ، حذو القذة بالقذة ، استمتعوا كما استمتع الروم وفارس ، ومن الناس الأولئك ولقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه : " اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم " ما وقعت فيه الامة من هذا على سبيل التحذير والنصيحة ولا يتسع له بحثنا أكثر من هذا ، وذلك في وقته ، فكيف بوقتنا هذا ، والواقع أبلغ من تسطير وصفه لو قدر وهذا ماكان يخشاه عمر رضي الله عنه ، لما رأى بوادره وصار يحذر منه ولاته ويحمل الناس على الجد والجهاد كي يشغلهم عنه بادئا بنفسه ، وسيرته رضي الله عنه تنطق بهذا ، وما تلا عهده رضي الله عنه من توسع الناس وذهابهم الى الأمصار ، ثم في قيام دولة بني أمية سرى الترف الى الحكام كمثل عهد يزيد بن معاوية ، وبلغ أشده في طبقة علية الناس — في نظر العامة من الناس — في دولة بني العباس .

ثم كانت نهاية حكم العرب بالأسلام ، وقيض الله للأسلام من يحكم به من غير العرب ، كما قال تعالى للعرب المسلمين بالأولوية : (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا

---

١ — العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٢٥ / ٢٦٢ ، باب المتعصبين للعرب .
٢ — معجم البلدان ، لياقوت ، ٢ / ٣٥٤ ، مادة خراسان .
٣ — ضحى الأسلام ، تأليف أحمد أمين ، ص ١٥٤ وما بعد ها .
٤ — نفس المصدر السابق .

أمثالكم) محمد : ٣٨ .

فكان الذين تسلموا أمر المسلمين من غيرا لعرب ومنهم محمد ا لفاتح العثماني حماة ا لاسلام بل حماة للعروبة المتشرفة بالقرآن الكريم ، وبالنبي من ولد عدنان ، سيد ولد آدم ولافخر ،وهذا شأن دين الحق من حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط،كما وصفه الزهرى ، وهو القرشي لعبد الملك بن مروان ، فى قصته معه التى قدمناها ، قبل قليل

وبالجملة فان السبب الرئيسي فى الانتكاسة التى أصيب بها المسلمون هو تقصيرهم بتطبيق مدلول لااله الاالله فى القلب واللسان والأعمال على قدر وسعهم وطاقتهم ، كما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والقرون المفضلة .

وجميع مايقال عن أمور أخرى أنها أسباب للانتكاسة فهي وان كانت صحيحة لاتعدوا أن تكون من عوارض ونتائج هذا السبب الأكبر ، وهو عدم شمول تطبيق الأسلام كله فى كل الحياة الدنيا على جميع الأحياء فيها ، كما هي طبيعته أو صفته وصبغته ، فاذا قصرت على لون كان كمن يعبد الله على حرف ، وما انحسار قولها على اللسان فقط لدى كثير من يتوهم أن ذلك كاف ليكون من قالها الا صورة من صور عدم تحقيقها ، كما هو المطلوب وكذلك قصر أركان الاسلام على فئة من الناس دون الآخرين ، والجميع مشمولين باسم الاسلام ومعاملين على السواء يعد حصر المفهوم الشامل فى البراء والولاء وهما ركناها .

ولقد كان نتيجة ذلك تشويه مفهوم لااله الاالله حتى صار من يزعم أنه من المسلمين لايفهم لااله الا الله كما فهمها الكافرون حين قالوا :أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ، فهو يقولها ولايرفضها بلسانه كما رفضها أولئك لكنه لايحقق قولها بفعله وقلبه نفيا واثباتا وولاءا وبراءا ، وزاد هذا التشويه لمفهومها حتى كانت الكارثة على المسلمين ، عموما عربيهم وعجميهم بالقومية التى أحلت محل الاسلام ، فتمزق أمر المسلمين ، وانفكت وحدتهم ، وتركوا خلا فتهم تموت وهي سنة راشدة وهم يجرون خلف هذه القومية وهي سراب ويتكئون عليها وهي جرف هار ، ومهما تكلف القوميون فانهم لايجدون قوميتهم شيئا فعالا بنفسه ، قائما بذاته ، ولايستطيعون أن يوجدوها كذلك ، وسبرناها فى الماضي فما رأيناها وفى الحاضر فما وجدناها ، لاوحدة واستقلالا ، ولا فكرا وحضارة . ليست فى التاريخ سوى ما أغير عليه من أعمال اسلامية جردت من نسبتها الى الاسلام ، ونسبت الى القومية ، حتى اذا أخذ الغرور مأخذه ، انتكس بأهله وذهب عنهم ، وأخذوا يتفرقون عن هذه القومية أمام الهزائم المنكرة التى لم يبق معها كرامة لقومي على أيدى الصهاينة ، وكلما خلفوه انما هو المشاكل التى تعقدت بسبب القومية وغيرها ، ولم يجدوا لها حاصرا ولا حالا من القومية فذهبوا شيعا وأحزابا منهم من يلتمس الحل فى روسيا وشيوعيتها ومنهم من يلتمس الحل فى أمريكا ورأسماليتها ، وتبعا لذلك صاروا على بعضهم حربا ، يذيق بعضهم بأس بعض

ولله كم أبعدوا ، وتعبوا ، وأرضوا عدوهم بما بلغوا من أنفسهم من العذاب مالم يبلغه أشد أعدائهم منهم ، كم يلتوون فى طلب الحلول والمخالص والمفازات ، والملاجئ والمغارات والمدخلات ، ويجمحون بولايتهم الى الغرب والشرق كلما لوح لهم بأحبولة وأضحوكة بعد أحبولة وأضحوكة ، حتى أصبح وكأنهم لهذا خلقوا ، وبه وجدوا ، وكلما أرادوا كانت النتيجة عكس ما أرادوا ، تزيد المشكلة مشكلة أخرى ، ويركب الظلمة ظلمة فوقها حتى كثرت المشاكل وتراكمت الظلمات ، بعضها فوق بعض ، حتى اذا أخرج أحدهم يده ، لم يكد يراها ، ولم يفيقوا مرة ، أثناء ذلك كله على الاسلام يجد ، (واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) الزمر: ٤٥ .

بينما عندهم المخلص والمفازة قريب ميسر قال الله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) القمر: ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

نعم القرآن لم يرفع بعد ولله الحمد ، ولايزال ميسرا محفوظا فهل من مدكر؟

بسم الله الرحمن الرحيم ، ألر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أن لاتعبدوا الا الله ، انني لكم منه نذير وبشير ، وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ، وان تولوا فأني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ، الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير) هود : ١ — ٤ .

ومن هذه الآيات نفهم أن القرآن الميسر للذكر كله من أوله الى آخره : " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير أن لاتعبدوا الا الله " أى من أوله الى آخره بيان لمعنى : (لااله الا الله) التى دعي أول مادعي اليها العرب فأجاب منهم من كانوا أئمة الرشد والهدى وأن الله لاينزع فضله هذا عن العرب وغيرهم بعد أن تفضل به عليهم الا أن يتولوا عنه ، بل انه سبحانه هو الكفيل بايتاء كل ذى فضل فضله .

هذا طريق المخلص والمفازة

أيها العرب قولوا لااله الا الله تفلحوا .

لقد أتيحت الفرصة للعرب الآن أكثر من ذى قبل أن يأخذوا بعزهم ، ويطلبوا به من الله نصرهم ويعودوا الى مركز الهداية والقيادة الى المعالي فى العالم ، كما كانوا من قبل لقد رفعت عنهم الوصاية فلم يعد من غيرهم قائم فعلا بأمر المسلمين وخلافتهم الآن . خلا الميدان للعرب وهم أحق بها ، الآن ، فغيرهم كالأتراك قد جنى عليهم شبابهم بالأمس وشيبهم اليوم ، ونبذوا عنهم خلافة المسلمين منذ زمن ، والعرب وسائر أممه والشرق وأممه من غير المسلمين من يهود ونصارى وملحدين ، يشهدون بان الاسلام دين العرب فهل على العرب منهم عار أو سبيل ان أخذوا بدينهم الاسلام ؟ كل الدنيا تشهد برفع الزرية والمذمة بل تشهد بالأعجاب والمحمدة للعرب ان هم قاموا بالأسلام ، فهو ميراثهم الذى أقامه أجدادهم

وآباؤهم الكرام من المهاجرين والأنصار ، من قبل وعزوا به وانتصروا ، هذا في حس الغرب والشرق مستقر ، فهل فيه وفي الأخذ به ما يخجل؟ لا بل فيه وفي الأخذ به تدرع بمهابته التي ألبسها الله من أخذ به كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري) (١) وعلى قدر اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون قدر هذه المهابة في قلوب أعدائه وأعداء متبعيه ، ومع هذه الحال ليس مهما أن لا يرضى اليهود والنصارى ، وليس مهما أن لا يرضى من لا يرضى الا باتباع نحلته الضالة المضلة ، فان الله يقول : (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) غافر: ٤٠١

وبحضور الاسلام وظهوره وثبات أهله عليه فان يلقى الله الرعب في قلوب الذين كفروا ويضرب عليهم الذلة والصغار ، ووجود المسلمين يفرض بطبيعته احترامهم . هذا الباحث اليهودي ، برنارد لويس ـ الذي ظل ينتقل من أوربا الى أمريكا في المدة الواقعة بين ٢٩ آذار ، الى ٢٣ نيسان عام ١٩٦٣م ليلقي المحاضرات على الأجيال الناشئة التي تعد لتولي زمام الأمر في المستقبل ليعرفها بمواطن الخطر وأبعاده الحقيقية عليهم ويكشف عن تجارب ، وخبرات من سبقهم في مواجهة هذا الخطر ليكون لهم في ذلك خبرة وعبرة (٢) يقرر هذه الحقيقة فيقول : " فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها أوربية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الاوسط ، والمنظمات الاسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة ، وبالرغم من أن كل الحركات الاسلامية قد هزمت حتى الآن غير أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة "(٣)

ولقد أصبح العرب في حل من اخوانهم في الاسلام حين خلعوا عنهم شرف خلافة المسلمين بأنفسهم ، ولا يمكن لمنصف في هذا الحال أن يلصق بالعرب اذا قاموا بخلافة الأسلام تهمة الخروج على ولاة الأمور . وانها لفرصة عظيمة خاصة بالعرب فهل يفقهون؟

ان وضع العرب ذاته ، وشخصيتهم الكريمة ، وعبقريتهم الفائقة لا تصلح بغير الاسلام . هذه العروبة العذبة الصافية الثرة ، وهذا اللسان العربي المبين ، هل صلحا بغير القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ؟

وهذه العقول الحصيفة الذكية ، والمناطق السليمة ، هل وصلت واطردت بغير الحكمة ، التي علم بها الرسول من الله الى العالمين ؟

وهذه الشجاعة والفروسية ، والنبل والمروءة ، والوفاء والكرم ، والسخاء والحلم ، والجود والأيثار ، هل نفعت وبقيت نافعة في غير سبيل الله تعالى ؟

---

١ ـ رواه البخاري ومسلم وغيرهم ، انظر صحيح البخاري ، الجهاد ، ومسلم المساجد .
٢ ـ ماجد كيلاني ، الخطر الصهيوني على العالم الأسلامي ، ص ٩١ ، ٩٢ .
٣ ـ برناد لويس ، الغرب والشرق الاوسط ، تعريب الدكتور / نبيل صبحي ، ص ١٧٩ .

ان هذه الغرائز القريبة من الخير ، وغيرها من الاخلاق المحمودة ، ما كملت ووصلت بغير الاسلام ، ولا يمكن أن تبقى وتدوم بغير الاسلام ، وان العرب مهما أحرزوا كامل طبيعتهم الخيرة ، وصافى مشخصاتهم العروبية ، بدون الاسلام ، لايعدون كونهم : طبيعة طيبة تقبل الحيوية ، وتتفاعل مع الخير لكنها معطلة عن فعله ، ومقطوعة عن وصله ومنغلقة عن التفتح له ، ولا يمكنها أن تحيا وتنهض الا بالاسلام ، بالاسلام الرباني ، الذى لم ينبع منها ولا من جميع المخلوقات ، وانما أنزله الله رب العالمين ، على رسوله المختار من العرب الى العالمين رحمة بهم وفضلا من الله عليهم ، ولذا صار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من العرب أفضل خلق الله بعد الانبياء ، لاتصال عروبتهم بالاسلام وزكاء نفوسهم بالايمان ، بعد أن تطهروا من أدران الجاهلية والأوثان ، وزادهم الله فضلا وحبب اليهم الأيمان وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وجعلهم من الراشدين أئمة فى الدين ، وما عرب اليوم الا أبناء أولئك ، والمقام مقام وفاء وشكر لاهل الثناء والمجد ، الذى أكمل لنا ديننا وأتم علينا النعمة وحفظها ، ورضيها ، ولم يرض غيرها قال تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) آل عمران : ٨٥ . فليس لنا ميثاق مع الله أو مع خلقه الا الاسلام . ولا صلة لنا معشر العرب خاصة بربنا وبنصره وما النصر الا نصره الا بالأسلام ، بـ (لااله الا الله) ، والا نسلم ـ وأعوذ بالله من الكفر ـ فان الله يستبدل قوما غيرنا ثم لايكونوا أمثالنا كما قال تعالى : (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) محمد : ٣٨ . ويتدبر هذه الآية فى التاريخ نجد أن الله سبحانه قد استبدل قوما غير العرب ، قاموا بالاسلام ، ولم يكونوا مثل من قعد من العرب عن القيام به .

والآن قد أتاح الله من فضله للعرب الفرصة مرة أخرى ليغتنموا حظهم قبل أن يفوت فلا يدركوه ، وان طلبوه وجدوا فى طلبه ، وقد ورد فى الأثر : " أدعوا الله قبل أن تدعوه ، فلا يستجاب لكم " .

ولا خلاص للقوميين العرب خاصة الا أن يخلعوا عنهم القومية ، ويدعوها فانها منتنة ، ويدخلوا فى الأسلام ، لباس التقوى ، فى كل حياتهم حكومة وشعبا ، واقتصادا واجتماعا وسياسة وتربية ، فى الداخل والخارج ، فى الأحوال الخاصة والعامة ، وسائر ميادين الحياة بصدق واخلاص ، وسوف يجدون مبتغاهم بالاسلام وأعلى كما وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لايعلمون : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ، لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) النور / ٥٥ ـ ٥٧ .

وقولهم بالقومية ـ مهما كانت تتراءى لهم منقذة ومطمئنة ـ لا يخلصهم ، ولا ينيلهم مطمعهم لأنهم متى قالوها ، ومتى اختاروها فلن يملكوا الخلاص من ضيقها وحرجها ومشاكلها ونتنها وموتها ، والذى لا يتبين الا بالأسلام ، وبضدها تتبين الأشياء ، ثم لن يستطيعوا اطفاء نور الأسلام ، الذى أضاء له العالم كله ، وهو مؤهل من تأهل به ، والعرب أولى من يتأهل به لقيادة العالم ، الى الله عليه وهو الصراط المستقيم .

لقد أصلح الله بالاسلام أولينا ومنذ أبينا آدم الى خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وعلى أبينا آدم وسائر الانبياء والرسل وأصحابهم وسلم الى يومنا هذا نجد أن كل صلاح صدرانما هو بالاسلام ، واستحال أن نجد الصلاح والعز بغيره .

فكيف يعرض العرب ، من أعرض منهم ، عن هذا الأمر ، ويفوتون هذه الفرصة ؟ سبحان الله ما أحلمه وأكرمه .

ثباشـــــير

ليس كل العرب قوميين ، ولا كل الأمة العربية تجسدت فى هؤلاء القوميين ، يقول الكاتب اليهودى مورو بيرجر فى كتابه (العالم العربي المعاصر) الذى صدر سنة ١٩٦٢م :

" والعربي العادى ما زال حساسا للغاية فيما يتصل بمشاعره بالنسبة للوحدة الدينية ، أكثر مما هو حساس بالنسبة للأخوة العربية بشكلها العلماني . والقومية العلمانية هي أيدلوجية العرب المتعلمين ممن تأثروا بالغرب تعليما وقدوة .. وبالرغم من أن القوميين يستخـــدمون الولاء للأسلام فى تعبئة المشاعر ضد العالم الخارجي غير الأسلامي ، الا أنهم يرفضـــون فى كل بلد لواء الأصلاح (الغربي) الذى يعرضهم لنقمة قادة الحركات الاسلامية .

لذلك يلجأون لهذا السبب .. الى التلويح بخطر الاستعمار .. " (١)

نعم ولله الحمد كثير من العرب مسلمون ، وكثرتهم باخوانهم المسلمين تضطر القوميين الى ذلك المسلك الذى وصفه بيرجر ، وكثير من العرب لا يرضون بالقومية ، ويراها المسلمون فتنة ظهرت فى أوائل هذا القرن بينهم لتفتيت وحدتهم بعد أن أتمت دورها فى أوربا ثم انتهت منها واختفت عنها لشر منها ، ونبتت فى العالم الاسلامي للقضاء على الأسلام فى حسبان ، أعدائه من اليهود والنصارى والمشركين ، ولكن يأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ولئن قامت الثورة على الخلافة العثمانية ، فأزالتها ، فأن الأسلام ولله الحمد ليس مربوطا بعين من الخلق ، فقد زالت الدولة الأموية فاعتز الاسلام بالعباسية ، ثم زالت دولة العرب

---

١ ـ نقلا عن الاستاذ ماجد كيلاني ، من كتابه الخطر الصهيوني على العالم الاسلامي ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

اعتز الأسلام بالأتراك وغيرهم ، وحين زالت امبراطورية آل عثمان فأن الا سلام سيعود عزه بالعرب ان شاء الله تعالى ، مع أن الأسلام رغم كل هذه التحولات عزيز بذاته وما زال ولله الحمد باقيا محفوظا بحفظ الله له ، ولم يربط الله مصيره بجنس معين ، ولا فرد بل ان الله تعالى لم يربط مصيره حتى برسوله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله به ، والذى ليس بعده رسول ، ورسالته الى قيام الساعة ، فقد قال تعالى لأمة رسوله : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفأن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) آل عمران : ١٤٤

ولقد تلى هذه الآية أبو بكر الصديق على المسلمين حين أرتج عليهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعوها فتح عليهم وسقط السيف عنهم من يد عمر وعاد الى رشده رضي الله عنهم ، والله سبحانه يقول وقوله الحق : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) الحجر: ٩ .

وبوب البخارى فى صحيحه فى كتاب الاعتصام : (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون وهم أهل العلم) ثم ساق حديثا بسنده عن المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) . ثم ساق بسنده حديثا عن معاوية رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وانما أنا قاسم ، ويعطى الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتي أمر الله) وكلا الحديثين متفق عليه . ومن معنى هذا أنه لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته وهو الاسلام رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولن يخلو الناس من مسلمين وان كانوا قلة وغرباء ، وأنه لا يزال القرآن محفوظا ، والسنة الصحيحة مدونة فى غاية من التحقيق والاتصال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سندا ومتنا ، ورواية ودراية وعلما وعملا ، وهذه ميزة الاسلام وبرهانه الوحيد الذى لا يشاركه فيه أى دين سواه ، وهذا القرآن وهذه السنة هما الوحي الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من الانبياء نبي الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) متفق عليه [1] ولقد أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته فى حجة الوداع قبيل وفاته : (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله) كما فى حديث جابر عن مسلم فى باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الله تعالى ردا على من لم يكتف بالقرآن ويطلب انزال آيات على محمد صلى الله عليه

---

١ ــ انظر صحيح البخارى ، ٦/ ١٤٩ ، باب فضائل القرآن .

وسلم منهم / (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمـــة وذكرى لقوم يؤمنون) العنكبوت : ٥١ .

والجهاد ماض منذ بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، الى أن يقاتل آخر أمته الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . (١)

ولا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال . (٢)

والدجال هو المسيح الدجال الذى من اليهود وهم ينتظرونه ، من نسل داود ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى يباشر قتله المسيح عيسى بن مريم بعد نزوله فى هذه الأمة حكما مقسطا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد (٣)

وصح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودى ورائي فاقتله) (٤)

ويكون قبيل خروج الدجال أن الروم يجمعون لأهل الأسلام ، ويجمع لهم أهل الأسلام ، وأخيرا يجعل الله الدبرة على أولئك الأعداء لاهل الاسلام فيقتلون مقتلة لا يرى مثلها وذلك يكون نحو الشام (٥) .

والعقل يحكم بأن "المستقبل للأسلام" بمشيئة الله تعالى ، لأنه منهج الحياة الشامل ، وهو دين الحق ، ولا يليق بالله الواحد القهار أن يجعله القوميون ونحوهم مختصا بجانب من جوانب الحياة بينما تكون بقية الجوانب من اختصاص مألوهات أخرى ، كلا فالدين كله لله والحياة التى هي ميدانه كلها لله ، الدين لله والوطن لله وحده لا شريك له ، ويؤتي فضله من يشاء بمحض ارادته وخيرته (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) الأعراف : ٥٤ .

وقد أصبح الصدام بين الدين والدولة نكدا ظاهرا لكل مبصر أو بصير ، كسائر الأنكاد الواقعة فى كل ميدان حيوى أبعد عن الدين ، و " انتهى دور الرجل الأبيض وحضارته الغربية " وبدأت صيحات الخطر تتعالى منذرة بسوء مصير البشرية فى ظل هذه الحضارة الخاوية " من الأسلام ولا مخلص للبشرية الا بالاسلام .(٥)

ولقد صدق الله رسوله ونصره وصاحبه يوم الغار ، وأيدهم بجنوده التى لم نرها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

---

١ ـ أنظر: سنن أبي داود ، ٢/ ١٧ .
٢ ـ أنظر المصدر السابق ، ص ٤ .
٣ ـ أنظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، ٦/ ٤٨٨ ، وصحيح مسلم ٢/ ٢/ ٣١٢ .
٤ ـ أنظر: تحفة الاحوذى ، ٦/ ٤٩٤ ، وصحيح البخارى ٤/ ١٥٧ كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الأسلام ، وصحيح مسلم ٢/ ٢/ ٣٣٩ .
٥ ـ أنظر صحيح مسلم ، ٢/ ٢/ ٣١٤ ، ومن ص ٣٢٤ إلى ص ٣٣٩ . وانظر: المستقبل لهذا الدين لسيد قطب.

كان سراقةبن مالك يطلب رسول الله وصاحبه لما خرجا من الغار ليردهما أويقتلهما طمعا في جعل قريش ، مائة من الابل ، فدعى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فساخت قوائم فرسه به ، ثم طلب منهما الدعاء له بالخلاص ، على أن يرد عنهما الطلب ، فدعاله النبي صلى الله عليه وسلم فنجا ، فجعل لايلقى أحدا الا قال كفيتكم ماهنا ، فلا يلقى أحدا الا رده (١) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسراقة وهو على تلك الحال "كيف بك ياسراقة اذا ألبست سوارى كسرى" (٢) وفى البخارى عن عدى بن حاتم قال : " بينا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ، فقال ياعدى : هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها ، وقد أنبئت عنها ، قال: فأن طالت بك حياةلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا الا الله قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت كسرىبن هرمز؟ قال كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه) الحديث (٣)

ولقد صدق الله وعده رسوله لسراقة فى عهد عمر : " فلما أتي عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه وكان أزب كثير شعر الساعدين فقال له ارفع يديك وقل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي " (٤)

وقال عدى: " فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة ، لترون ماقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج ملء كفه " (٥)

وكما صدق الله وعده نبيه ، ووعد نبيه ، فيما مضى ، وما تخلف ، فأن الله الحي الذى لايموت سيصدقه فيما بقي عند وقته ولن يخلف الله وعده ، ان وعد الله حق ، ووعد رسوله حق ،(وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم)، (لقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) . (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .

---

١ ــ أنظر: صحيح الخارى ، ٤/ ١٦١ .
٢ ــ الاصابة ، لابن حجر العسقلاني ، ج ٢ ، حرف السين ، رقم ٣١١٥ (سراقة) قسم ١ ص ١٨ .
٣ ــ صحيح البخارى ، ٤/ ١٥٧ .
٤ ــ الأصابة ، لابن حجر العسقلاني ، ج ٢ ، حرف السين ، رقم ٣١١٥ (سراقة)قسم ١ ص ١٨ .
وانظر: المستقبل لهذا الدين ، لسيد قطب . ص ١١٤ .
٥ ــ صحيح البخارى ، ٤/ ١٥٧ ، ١٥٨ .

قائمة المراجع

القرآن الكريم

السنة

أ

أبحاث مختارة في القومية العربية

أبوخلدون ، ساطع الحصري

دار المعارف بمصر ١٩٦٤م

الأبداع ، شرح خطب حجة الوداع

للشيخ عبد الله بن محمد بن حميد

مطابع دار الثقافة ـ مكة الزاهر

الأتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر

الدكتور محمد محمد حسين

الطبعة الثانية ، المطبعة النموذجية ١٣٨٢هـ

أحجار على رقعة الشطرنج

وليام غاى كار

ترجمة سعيد جزائرلي ، مراجعة وتحرير م . بدوى ١٩٧٣م

الأدب والقومية العربية ، محاضرات عامة

ألقاها الدكتور اسحق موسى الحسيني

على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية ، بجامعة

الدول العربية ، ١٩٦٥م ، ١٩٦٦م ، مطبعة لجنة البيان العربي

أرض الصرورية

عبد الحي حسن المليراني

مطبعة الجامعة ـ الدار البيضاء

أزمة المجتمع العربي المعاصر (المسألة الحضارية)

مدثر عبد الرحيم الطيب

الطبعة الأولى ١٩٦١م ، دار الطليعة بيروت

أسرار الماسونية

الجنرال جواد رفعت آتلخان ، ترجمه من التركية : نور الدين الواعظ

المحامي ، سليمان محمد القابلي ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار البصرى

بغداد ١٩٦٥م

أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب

تأليف محمد بن السيد درويش

الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ مطبعة مصطفى محمد بمصر

أشعة خاصة بنور الأسلام

ايتين دينيه ترجمة راشد رستم ، سلسلة الثقافة الأسلامية (١٧)

بأشراف محمد عبد الله السمان ، رمضان ١٣٧٩هـ المطبعة الكمالية

الأصابة فى تمييز الصحابة

تأليف أحمد بن حجر العسقلاني ، مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨هـ

أعمدة الحكمة السبعة

ت.أ .لورانس ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م منشورات المكتبة الأهلية بيروت

افادة الأخيار ببراءة الأبرار ، الجزء الأول

تأليف الشيخ محمد المربي التباني

١٣٨٤هـ مطبعة الحلبي

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم

تأليف شيخ الأسلام أحمد بن تيمية ، تحقيق محمد

حامد الفقى ، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ

مطبعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة

الأمة والعوامل المكونة لها ، (المجتمع العربي) (١)

محمد المبارك ، دار الفكر بدمشق

ب

بحوث موء تمر توجيه الدعوة واعداد الدعاة العالمي المنعقد في الجامعة الأسلامية بالمدينة

٢٤ـ٢٩/٢/١٣٩٧هـ ، المجلد الخامس ، مطبوع على الاستنسل .

بحث مخطوط فى حديث " اذا ذلت العرب ذل الأسلام " ، للنصف الثاني لنصف السنة الأخيرة

(الليسانس) قسم الشريعة ١٣٨٥هـ بكلية الشريعة

بمكة ، للطالب صالح بن عبد الله العبود ، قرضه

المشرف أمين المصرى بخطه (رحمه الله) فقال :

"بحث جدير بأن ينشر بين الناس لينتفع به الناس"

البداية والنهاية فى التاريخ ، جزء : ٢٠١ .

ابن كثير ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، مطبعة الفجالة

بروتوكولات حكماء صهيون ، محمد خليفة التونسي ، تقدير المقاد
الطبعة الخامسة
البلاد العربية والدولة العثمانية
أبو خلدون ، ساطع الحصرى
طبعة ثانية ١٩٦٠م ، دار العلم للملايين بيروت
بين الدعوة القومية والرابطة الاسلامية
أبو الأعلى المودودى ، دار الضروبة بيروت

ت

تاريخ الطبرى جزء ١ ، ٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (ذخائر العرب ٣٠)
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠م
تاريخ مكة جزء ٢ ، أحمد السباعي ، الطبعة الثانية ، مطابع دار قريش بمكة ١٣٨٢هـ
توزيع رابطة العالم الاسلامي بمكة
التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ، عرض لجهود المبشرين التى ترمي الى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي
تأليف الدكتور مصطفى خالدى ، الدكتور عمر فروخ
الطبعة الثالثة ١٩٦٤م بيروت
تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى
للإمام محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى
الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ ، مطبعة المدني
تطور المفهوم القومي عند العرب
أنيس صايغ ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة بيروت
١٩٦١م
تفسير القرآن العظيم ،
اسماعيل بن كثير ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، طبعة ثانية
التلمود ، تاريخه وتعاليمه
ظفر الاسلام خان ، الطبعة الأولى ١٩٧١م دار النفائس بيروت

ث

ثقافتنا فى جامعة الدول العربية
أبو خلدون ، ساطع الحصرى ، الطبعة الأولى ١٩٦٢م
دار العلم للملايين بيروت

الثورة الفلسطينية أبعادها وقضاياها
تأليف ناجي علوش ، الطبعة الأولى ١٩٧٠م
دار الطليعة بيروت

ج

جامع البيان عن تأويل آي القرآن
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، الطبعة
الثانية ، ١٣٧٣هـ ، الحلبي
جذور البلاء ، القسم الأول
عبد الله التل ، دار الأرشاد بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ
الجامعة الاسلامية وأوربا
تأليف رفيق المظم ، سلسلة الثقافة الأسلامية ٤٣ ربيع آخر
١٣٨٣هـ بأشراف محمد عبد الله السمان ، طبع دار الثقافة العربية
الجديد في التربية القومية (القومية العربية والوحدة العربية) ، للصف الثالث الثانوي (أدبي
وعلمي) ودور المعلمين والمعلمات الفني .
تأليف لجنة من الأساتذة المتخصصين ، مطبعة دار العالم العربي
رقم الأيداع بدار الكتب ٥١٨٠
جذور الأزمة في المجتمع العربي الاسلامي
محمد المبارك ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م

ح

حصوننا مهددة من داخلها (في أوكار الهدامين)
الدكتور محمد محمد حسين ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ
حقيقة القومية العربية ، دراسات علمية في المجتمع العربي
محمد الغزالي ، نشر دار العروبة ، مطبعة المدني
حكومة العالم الخفية
شيريب سبيريد وفيتش ، تحرير وتقديم أحمد راتب عرموش
الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ، دار النفائس بيروت
حواشي الأمير شكيب أرسلان على كتاب: حاضر العالم الاسلامي
الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ مطبعة الحلبي

خطر اليهودية العالمية على الأسلام والمسيحية
عبد الله التل ، ١٣٨٤هـ
الطبعة الثانية ، دار القلم بالقاهرة
الخطر الصهيوني على العالم الأسلامي
ماجد كيلاني ، الدار السعودية للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى جدة ١٣٨٩هـ

د

دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضارتهم الانسانية
الدكتور محمد معروف الدواليبي
الطبعة الاولى ١٩٧١م، دار الكتاب الجديد بيروت
دراسات سياسية وقومية
دكتور محمد طه بدوى ، دكتور محمد طلعت الغنيمي
طبعة أولى ، نشر منشاة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٣م
دراسات عن مقدمة ابن خلدون
أبو خلدون ساطع الحصرى ، الطبعة الثالثة ، موسعة ١٣٨٧هـ
الدعوة (مجلة من الرياض) عدد ٥٩٢ في ٢ ربيع الثاني / ١٣٩٧هـ
دفاع عن العروبة
ساطع الحصرى ، الطبعة الأولى ١٩٥٦م ، دار العلم للملايين بيروت
الدنيا لعبة اسرائيل
الكومندور وليم كار ، الناشر كولور فيوز كومباني ، بيروت

ز

زاد المعاد ، الجزء الثاني
تأليف محمد بن قيم الجوزية ، طبعة ثانية ١٣٦٩هـ ، الحلبي

س

سلسلة الاحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، المجلد الأول
تأليف محمد ناصر الدين الألباني
منشورات المكتب الأسلامي

سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة الحلبي ١٣٧٢هـ بمصر
سنن أبي داود ، بتعليقات أحمد سعد علي ، الطبعة الاولى ، الحلبي ١٣٧١هـ
السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق
صلاح الدين البيطار ، طبعة أولى ١٩٦٠م بيروت

ش

شرح ديوان امرئ القيس
تأليف حسن السندوبي ، الطبعة الخامسة ، مطبعة الاستقامة بمصر
شرح المعلقات السبع
للقاضي أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، طبعة علي يوسف١٣٨١هـ
القاهرة
الشعوبية الجديدة
محمد مصطفى رمضان ، الطبعة الاولى بيروت ١٣٨٩هـ
الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الاول
الدكتورة زاهية قدورة ، دار الكتاب اللبناني ط١، ١٩٧٢م

ص

صحيح البخاري ، تقديم وتحقيق وتعليق محمود النواوي وزميليه ، مطبعة الفجالة
الجديدة ، ١٣٧٦هـ بمصر
صحيح مسلم ، طبعة الحلبي ، جماد ثاني ١٣٧٢هـ
صراع مع الباطل
محمد أحمد باشميل ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٦٠م
الصراع بين الفكرة الأسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الأسلامية
أبو الحسن علي الحسني الندوي ،
الطبعة الاولى لبنان ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م

ض

ضحى الاسلام
محمد أمين ، الطبعة السابعة، مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٦٤م بمصر

ع

العرب فى الشام قبل الأسلام

محمد أحمد باشميل ، دار الفكر ، ط١ ١٣٩٣هـ

العرب والأسلام

أبو الحسن الندوى ، مطبعة ندوة العلماء (الهند) ١٣٨٤هـ

العرب وتجربة المأساة

تأليف صدقي اسماعيل ، ط١ ، ١٩٦٣م ، منشورات دار الطليعة بيروت

العصر الجاهلي

دكتور شوقي ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر

العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ٢ ، ط ٢ ، المطبعة الأزهرية ١٣٤٦هـ

العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨م ـ ١٩٢٩م

كتبه علي حاج بكرى ، وقدم له نبيه أمين فارس

مطبعة الترقى بدمشق ، منشورات دار الرواد

غ

الغارة على العالم الأسلامي ، لخصها ونقلها الى العربية

محب الدين الخطيب ومساعد اليافي

ط ٢ ، ١٣٨٧هـ جدة الدار السعودية للنشر

الغرب والشرق الأوسط

برنارد لويس رئيس قسم التاريخ فى كلية الدراسات الأفريقية والشرقية

بجامعة لندن ، تعريب الدكتور نبيل صبحي ١٩٦٥م

الغزو الفكرى ، أهدافه ووسائله

للدكتور عبد الصبور مرزوق ١٣٩٤هـ ، مطابع مؤسسة مكة للطباعة

والأعلام ، نشر رابطة العالم الأسلامي بمكة

ف

فتح البارى بشرح الصحيح للبخارى

لابن حجر العسقلاني ، طبعة السلفية بمصر

الفكر العربي فى عصر النهضة ١٧٩٨ـ ١٩٣٩م ، ألبرت حوراني ١٩٦١م

ترجمه الى العربية كريم عزقول ، دار النهار ، بيروت

في ظلال القرآن ، جزء ٤ ، ٧
سيد قطب ، الطبعة الثانية ، الحلبي ١٩٦١م

ق

قصة الحضارة ، عصر الايمان
تأليف ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، اختارته وأنفقت على
ترجمته الأدارة الثقافية في جامعة الدول العربية
ط٢ ، ١٩٦٤م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
قضايا الثورة العربية : الثورة العربية والوحدة ، الثورة العربية والديمقراطية ، الثورة
العربية والاشتراكية ، للدكتور سمدون حمادى
الطبعة الثانية ١٩٧٠م دار الطليعة بيروت
القرب في محبة العرب
زين الدين عبد الرحيم العراقي ، تحقيق وتعليق ابراهيم حلمي
القادرى ، ونشر عادل محمد البهي وزميله ، الاسكندرية ١٣٨١هـ
القومية العربية
تأليف الدكتور أبو الفتوح رضوان ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة البيان
العربي ، ١٩٦٥م
القومية العربية ، للصف الثالث الثانوى وما في مستواه
تأليف علي عبد الله ، صلاح العرب عبد الجواد
سمير باقي يوسف ، اشراف ومراجعة الدكتور صوفي حسن
أبو طالب ، الدكتورة عائشة راتب ، طبع بدار الهلال القاهرة
١٩٧٤م ، وأودع بدار الكتب برقم ٤٩٢٤/١٩٣٤
القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها الأمير الاستاذ مصطفى
الشهابي على طلبة معهد الدراسات العربية العالية
بجامعة الدول العربية عام ١٩٥٨م المطبعة الكمالية
وقدمه مؤلفه للطبع عام ١٩٥٩م وهو بمكتبة كلية الشريعة
والدراسات الاسلامية بمكة برقم ١٥٨/٣٢٠ م /ش/م
القومية والغزو الفكرى
محمد جلال كشك ١٣٨٦هـ ، نشر مكتبة الامل الكويت

ا لقومية فى نظر الأسلام
محمد أحمد باشميل ، ط ٢ ،بيروت ١٩٦٠م
القيان والغناء فى العصر الجاهلي
الدكتور ناصر الدين الاسد ، ط٢ ، ١٩٦٨م
دار المعارف بمصر

ل

الله ، كتاب فى نشأة العقيدة الألهية
بقلم عباس محمود العقاد ، ط ٤ ، ١٩٦٤م
دار المعارف بمصر
اللغة والادب ، وعلاقتهما بالقومية
ساطع الحصرى ، ط ٢ ، ١٩٦٦م دار الطليعة بيروت

م

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
تأليف أبي الحسن علي الحسني الندوى
ط ٤ ، ١٩٦١م ، ١٣٨١هـ مطبعة السعادة
مجالي الأسلام
تأليف حيد ربامّات(ج . ريفوار) ، نقله الى العربية عادل زعيتر
طبع بدار احياء الكتب العربية ١٩٥٦م، القاهرة
مجلة الأحكام العدلية
ط ٥ ، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م
المجتمع (مجلة من الكويت)
الأعداد : ٢٦٥ فى ١٣٩٥/٨/٢٥هـ، ٢٧٩فى ١٣٩٥/١٢/٢١هـ
٣١١ فى ١٣٩٦/٨/٧هـ ، ٢٨٥فى ١٣٩٦/٢/٣هـ
٣٤٠ فى ربيع أول/١٣٩٧هـ، ٣٤٣ فى ١٣٩٧/٤/٩هـ
مجموعة التوحيد
طبع آل ثاني بقطر
مجموعة التوحيد
طبع السلفية بمصر على نفقة مشعل بن عبد المزيز

مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية

جمع وترتيب ابن قاسم ، مطابع الرياض

محاضرات الأستاذ محمد قطب في مادة " المذاهب الفكرية المعاصرة " :

الديمقراطية ، العلمانية ، العقلانية

القديمة والحديثة ، العالمية (الانسانية)

الوجودية ، القومية ، الوطنية ، الألحاد

التي ألقاها على طلاب الدراسات العليا (الماجستير) بفرع العقيدة في السنة المنهجية ٩٤/٩٥

محاضرات في النصرانية

محمد أبو زهرة ، ط ٣ ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م ، مطبعة يوسف

محاضرات العميد صالح بن عبد الله العبود في مادة " الحضارة الاسلامية " ألقاها على طلاب

السنوات : الأولى والثانية والثالثة ـ شريعة بكلية الشريعة والدراسات

الاسلامية بمكة المكرمة للعامين الدراسيين ٨٦ ـ ٨٧ ، ٨٧ ـ ١٣٨٨هـ

محنة القومية العربية

أركان عبادي ، قدم له الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط١ ، ١٩٦٢م

منشورات دار الكتاب الجديد بيروت

مختار الشعر الجاهلي ، الجزء الاول

للشنتمري ، تحقيق مصطفى السقا ، ط ٢ ، ١٣٦٨هـ ، الحلبي

مختصر السيرة

للشيخ الأمام محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق محمد حامد الفقي

١٣٧٥هـ مطبعة السنة المحمدية بمصر

المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام

محمد محمود الصواف

مذكرات سفير عراقي في تركية ، الجزء الثاني من أوراق أيامي ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥م

طالب مشتاق ، الطبعة الاولى ، دار الكاتب العربي

بيروت ١٩٦٩م

مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٨م ـ ١٩٥٨م

محمد مهدي كبة ، ط ١ ، ١٩٦٥م

دار الطليعة بيروت

مذكراتي في العراق ، ١٩٢١م ـ ١٩٤١م

أبو خلدون ، ساطع الحصري ، ط ١ ، ١٩٦٧م بيروت

مسند الأمام أحمد بن حنبل ، الذى بهامشه منتخب كنز العمال
تصوير عن طبعته الأولى ، نشر المكتب الأسلامي
ودار صادر بيروت

مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية
الدكتور ناصر الدين الأسد ، الطبعة الرابعة
دار المعارف بمصر ١٩٦٩م

معاجم لغوية : لألفاظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واللغة العربية

معالم فى الطريق
سيد قطب ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ مطبعة مخيمر

المستقبل لهذا الدين
سيد قطب

معنى القومية العربية
الدكتور جورج حنا ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٧م

من بعث الأمة العربية ورسالتها الى العالم ، مشاكلنا القومية وموقف الأحزاب منها
الرجعية ، الأقليمية ، الشيوعية ، القومية العربية موقف الأحزاب
العملي ، تجربة لواء اسكندرونه السياسية ، الفلاح والزراعة ، العامل
والصناعة ، قضية فلسطين
بقلم زكي الأرسوزى ، ١٩٥٨م ، دار اليقظة
العربية .. بسورية

من الثورة القومية الى الثورة الاشتراكية
تأليف عزيز السيد جاسم ، ط ١ ، ١٩٧١م بيروت

ن

نجد وملحقاته
أمين الريحاني ، ط ٣ ، ١٩٦٤م دار الريحاني بيروت

نحو استراتيجية عربية جديدة
تأليف أكرم ديرى ، المقدم الهيثم الأيوبي ، دار الطليعة بيروت
الطبعة الاولى ١٩٦٩م

نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية
زين نور الدين زين ، ترجمة الطبعة الثالثة الى العربية للمؤلف
دار النهار للنشر بيروت لبنان ١٩٦٨م

نظرات في الملامح الأساسية للمرحلة الراهنة
الدكتور الياس فرح ، ط ١ ، ١٩٧١م بيروت

نقد الفكر القومي ، أ ـ ساطع الحصري
الياس مرقص ، ط ١ ، ١٩٦٦م بيروت

نقد القومية العربية على ضوء الأسلام والواقع
جمع الفقير الى الله عبد العزيز بن عبد الله بن
باز الأثري ، منشورات المكتب الأسلامي ١٣٨٤هـ

و

الوحدة عسكريا ، المضمون العسكري للوحدة العربية
الفريق الركن صالح مهدي عماش
ط ٢ ، ١٩٧٠م بيروت

هـ

هذا الدين
سيد قطب

ى

يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية
ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد ، الدكتور
احسان عباس ، تقديم الدكتور نبيه أمين فارس ، نشر
بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين .. بيروت ـ نيويورك ١٩٦٦م
الطبعة الثانية دار العلم للملايين بيروت

اليهودية (مقارنة الأديان)
الدكتور أحمد شلبي ، ط ٣ ، ١٩٧٣م التزام مكتبة النهضة مصر